
أين نحن من هؤلاء ؟!

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ

ⓒ دار القاسم للنشر والتوزيع، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القاسم، عبدالملك بن محمد
أين نحن من هؤلاء. / عبدالملك بن محمد القاسم. - الرياض، ١٤٢٤هـ

٣٠٠ ص؛ ..سم

ردمك: ٨-٨٠٨-٣٣-٩٩٦٠

١- القصص الإسلامية ٢- قصص الاطفال أ.العنوان
ديوي ٨١٣,٠٨٨ ١٤٢٤/٢١٥١

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٢١٥١
ردمك: ٨-٨٠٨-٣٣-٩٩٦٠

الصف والإخراج والتصحيح بدار القاسم للنشر

فروع دار القاسم للنشر

جدة. هاتف: ٦٠٢٠٠٠٠ . فاكس: ٦٣٣٣١٩١
الدمام. هاتف: ٨٤٣١٠٠٠ . فاكس: ٨٤١٣٠١١
بريدة. هاتف: ٣٢٦٢٨٨٨ . فاكس: ٣٦٩٢٨٨٨
خميس مشيط. هاتف: ٢٢٢٢٢٦١ . فاكس: ٢٢٢٣٠٥٠

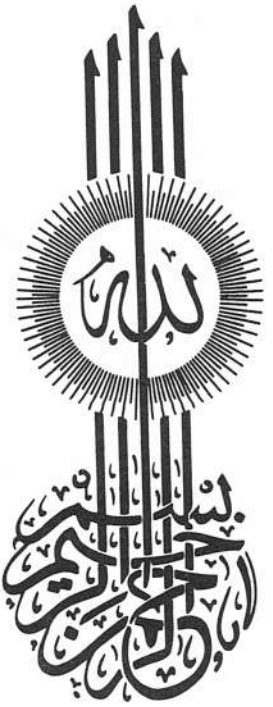
www.dar-algassem.com
sales@dar-algassem.com

أين نحن من هؤلاء ؟!

المجلد الثاني

عبد الملك القاسم

دار القاسم



الوقت أنفاس لا تعود

المقدمة

الحمد لله القائل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥] والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

وبعد:

فإن رأس مال المسلم في هذه الدنيا وقت قصير.. أنفاسٌ محدودة وأيام معدودة.. فمن استثمر تلك اللحظات والساعات في الخير فطوبى له، ومن أضاعها وفرط فيها فقد خسر زمناً لا يعود إليه أبداً.

وهذا العصر الذي تفشى فيه العجز وظهر فيه الميل إلى الدعة والراحة.. جدبٌ في الطاعة وقحطٌ في العبادة وإضاعة للأوقات فيما لا فائدة..

أقدم هذا الكتاب.. ففيه ملامح عن الوقت وأهميته وكيفية المحافظة عليه وذكر بعض من أهمتهم أعمارهم فأحيوها بالطاعة وعمروها بالعبادة.

وفقنا الله إلى استثمار أوقاتنا وجعل مما في الكتاب إحياء للقلوب وتذكير بعدم التفريط واستدراك لما بقي من الأيام.

وصلى الله على نبينا محمد.

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ ـ ٣] أقسم تعالى بالعصر وهو الدهر الذي هو زمن تحصيل الأرباح والأعمال الصالحة للمؤمنين وزمن الشقاء للمعرضين، ولما فيه من العبر والعجائب للناظرين(١).

وقد عرض القرآن الكريم والسنة المطهرة للزمن، قيمةً وأهميةً وأوجه انتفاع وأثراً، وأنه من عظيم نعم الله التي أنعم بها سبحانه..

يقول الله ـ تعالى ـ في بيان هذه النعمة العظيمة التي هي من أصول النِّعم: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢﴾ [النحل: ١٢].

ويقول ـ جل وعلا ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ [الفرقان: ٦٢].

ولبيان أهمية الزمن وأثره، نجد أن المولى سبحانه يُقسم بأجزاء منه في مطالع سور عديدة:

فيقسم بالفجر: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر: ١، ٢].

ويقسم بالليل والنهار ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل: ١، ٢].

ويقسم بالضحى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى: ١، ٢].

وقَسمُه ـ سبحانه ـ بأجزاء الزمن تلك كان لفتاً للأنظار نحوها، لعظيم

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول ص ٧.

دلالتها عليه، ولجليل ما اشتملت من منافع وآثار[١].

فلا شيء أنفس من العمر، وفي تخصيص القسم به إشارة إلى أن الإنسان يضيف المكاره والنوائب إليه، ويحيل شقاءه وخسرانه عليه، فإقسام الله تعالى له دليل على شرفه، وأن الشقاء والخسران إنما لزم الإنسان لعيب فيه لافي الدهر، ولذلك قال ﷺ: «**لاتسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر**»[٢].

وعمر الإنسان القصير والذي لا يتجاوز عشرات معدودة من السنين سيُسأل عن كل لحظة فيه وعن كل وقت مر عليه وعن كل عمل قام به.

قال ﷺ: «**لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه**» لن تزول قدما العبد في هذا الموقف العظيم حتى يحاسب عن مدة أجله فيما صرفه.. وعما فعل بزمانه ووقت شبابه بخاصة فإنه أكثر العطاء وأمضاه، وهو تخصيص بعد تعميم، لأن تمكن الإنسان من الزمن في وقت الشباب أعظم وآكد وأثمر من طرفي العمر حيث ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة..[٣].

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما قال: رسول الله ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ**».

قال **ابن الخازن**: النعمة ما يتنعم به الإنسان ويستلذه، والغبنُ أن يشتري بأضعاف الثمن، أو يبيع بدون ثمن المثل.

---

(١) سوانح وتأملات ص ١٥.
(٢) تفسير غرائب القرآن.
(٣) سوانح وتأملات ص ٧.

فمن صح بدنه، وتفرغ من الأشغال العائقة، ولم يسع لصلاح آخرته، فهو كالمغبون في البيع، والمراد بيان أن غالب الناس لا ينتفعون بالصحة والفراغ بل يصرفونهما في غير محالهما، فيصير كل واحد منهما في حقهم وبالاً، ولو أنهم صرفوا كل واحد منهما في محله لكان خيراً لهم، أي خير[١].

وأكد على ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شُغلك، وحياتك قبل موتك**»[٢].

عمر الإنسان هو موسم الزرع في هذه الدنيا وحصاد ما زرع يكون في الآخرة.. فلا يحسن بالمسلم أن يضيع أوقاته وينفق رأس ماله فيما لا فائدة فيه.

ومن جهل قيمة الوقت الآن فسيأتي عليه حين يعرف فيه قدره ونفاسته وقيمة العمل فيه، ولكن بعد فوات الأوان، وفي هذا يذكر القرآن موقفين للإنسان يندم فيهما على ضياع وقته حيث لا ينفع الندم.

الموقف الأول: ساعة الاحتضار، حيث يستدبر الإنسان الدنيا ويستقبل الآخرة، ويتمنى لو منح مهلة من الزمن، وأُخر إلى أجل قريب ليصلح ما أفسده ويتدارك ما فات.

الموقف الثاني: في الآخرة حيث توفى كل نفس ما عملت وتُجزى بما كسبت ويدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، هناك يتمنى أهل النار لو يعودون مرة أخرى إلى حياة التكليف، ليبدءوا من جديد عملاً صالحاً..

---

(١) سوانح وتأملات ص ١٨.
(٢) رواه الحاكم في المستدرك.

هيهات هيهات لما يطلبون فقد انتهى زمن العمل وجاء زمن الجزاء.

ونلحظ في زماننا هذا الجهل بقيمة الوقت والتفريط فيه.

هذا الزمن زمن العجز.. زمن الدعة والراحة والكسل ماتت الهمم وخارت العوائم.

تمر الساعات والأيام ولا يُحسب لها حساب.

بل إن هناك من ينادي صاحبه

تعال.. لنقضي وقت الفراغ..!!

أخي.. هل لدى المؤمن وقت فراغ؟

اسمع قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ الشرح: ٧، ٨].

إذا فرغت من شغلك مع الناس ومع الأرض ومع شواغل الحياة..

إذا فرغت من هذا كله فتوجه بقلبك كله إذن إلى من يستحق أن تنصب فيه وتكد وتجهد العبادة والتجرد والتطلع والتوجه[1].

هذا مع أن المسلم باحتسابه وإخلاصه في أعمال الدنيا في عبادة، وهو في جهاد في حياته..

ولقد أجمل ـ جلّ وعلا ـ ذلك كله في آيات محكمات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال ـ جل وعلا ـ في آية أخرى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [المؤمنون: ١١٥].

أخي الحبيب:

لنعد قليلاً.. في سطور مضيئة وكلمات صادقة إلى حال من سبقنا

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٣.

لنرى كيف نظروا إلى هذه الأوقات.. وماذا عملوا فيها.. وكيف استفادوا منها..

قال **عبدالله بن مسعود**: ماندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي.

تسافر بالراكب الأيام وتسير به الليالي.. في وضح النهار وفي غسق الدُجى.. آناء الليل وأطراف النهار.. رحلة متواصلة.. وسيرٌ حثيث.. حتى تحط به الركاب.

فالناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حطٌّ عن رحالهم إلا في جنة أو نار، والعاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة وركوب الأخطار، ومن المحال عادة أن يُطلَب فيه نعيم ولذة وراحة. إنما ذلك بعد انتهاء السفر، ومن المعلوم أن كل وطأة قدم أو كلّ آن من آنات السفر غير واقفة، ولا المكَّلف واقف، وقد ثبت أنه مسافر على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل، وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير[١].

قال **ابن العربي** ـ رحمه الله ـ: «سمعت ذا الشهيد الأكبر يقول: ومن الغبن العظيم أن يعيش الرجل ستين سنة ينام ليلها فيذهب النصف من عمره لغوًا، وينام سدس النهار راحة فيذهب ثلثاه ويبقى له من العمر عشرون سنة، ومن الجهالة والسفاهة أنْ يُتلف الرجل ثلثي عمره في لذة فانية، ولا يتلف عمر بسهر في لذة باقية عند الله الغني الوفي الذي ليس بعديم ولا ظلوم»[٢].

---

(١) الفوائد لابن القيم ص ٢٤٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٤٥.

إن الليـــالي لـــلأنـــام منـــاهـــل
تطـــوى وتنشر دونهـــا الأعمـــار
فقصـــارهـــن مـــع الهمـــوم طـــويلـــة
وطـــوالهـــن مـــع السرور قصـــار[١]

إن الساعات ثلاث:

ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية.

وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا، ولا يدري ما يقضي الله فيها.

وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه، فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى. ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها، بل يكون ابن وقته كأنه في آخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدري، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة. وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ من قوله ـ عليه السلام ـ «**لا يكون المؤمن ظاعنا إلا في ثلاث: تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة في غير محرم**»[٢].

أخي الحبيب..

إن الصحة والفراغ والمال هي الأبواب التي تلج منها الشهوات

---

(١) مكاشفة القلوب ص ٢٢١.

(٢) رواه أحمد وابن حبان والحاكم.

المستحكمة، ويتربع في فنائها الهوى الجامح فيأتي على صاحبه، وقد صدق من قال من الفراغ تكون الصبوة. وقد تميز المؤمن عن ذلك كله فهو كما قال **قتادة بن خليد**: المؤمن لا تلقاه إلا في ثلاث خلال.. مسجد يعمره، أو بيت يستره، أو حاجة من أمر دنياه لا بأس بها.[١]

فإن العاقل الموفق من أدرك حقيقة ذلك، فاغتنم عمره في علم نافع يحفظه ويحفظ الأمة من نفسها ومن عدوها، ويجعلها أمة يدها هي العليا وليست هي السفلى، في جهادٍ مبارك.. قلماً ولساناً وسناناً، في أمرٍ بمعروف ونهي عن منكر، في تربية لعقول وأفئدة وأحاسيس تنفع الناس وتمكث في الأرض لتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

إن من أمضى يومه في غير حق قضاه، أو فرض أدّاه، أو مجد أثله، أو حمد حصّله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه فقد عق يومه وظلم نفسه وظلمه.

هذا يتحسسه أشد ما يكون عند ساعة احتضاره، عندما يراه قد أودى به إلى الخسران المبين، فيتمنى على الله أن يؤخره حتى يُصلح ما أفسد، ويتدارك مافات، وأنى له أن يُمْهلَ وقد تحتّم الأجل ونزل الموت في ساحته.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١١ ﴾ [المنافقون: ٩][٢].

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ٢٣١.

(٢) سوانح وتأملات ص ٢٢.

ولهذا حرص الموفقون على الاستفادة من كل دقيقة وثانية بالعمل الصالح وعدوا ذلك مغنما.. وعلموا أن ضياعها بدون فائدة مغرماً.

قال **عمر بن ذر**: قرأت كتاب سعيد بن جبير.. إن كل يوم يعيشه المؤمن غنيمة[١].

وهذا المغنم إنما هو حصيلة أعمال صالحة قُدمت.. صلاةٌ وصيام وتسبيح وغيرها.

فالأوقات والأزمنة عمرٌ قصير وأجل محدود كما قال عنها **طيفور البطامي**: إن الليل والنهار رأس مال المؤمن، ربحها الجنة، وخسرانها النار[٢].

فإن السنة شجرة، والشهور فروعها، والأيام أغصانها، والساعات أوراقها، والأنفاس ثمارها. فمن كانت أنفاسه في طاعة فثمرته شجرة طيبة، ومن كانت أنفاسه في معصية فثمرته حنظل[٣].

ومن جهلنا بقيمة الوقت.. نفرح بمغيب شمس كل يوم ونحن لا ندرك أن هذا نهاية يوم من أعمارنا لن يعود أبداً.. صحائف طويت وأعمالٌ أحصيت وأنفاسٌ توقفت.

إنا لنفرح بالأيام نقطعها
وكل يوم مضى يُدني من الأجل[٤]

---

(١) الإحياء: ٤/ ٢٧٦.
(٢) الزهد للبيهقي ص ٢٩٧.
(٣) الفوائد لابن القيم ص ٢١٤.
(٤) صفوة الصفوة: ٣/ ٣٩٠.

قال **الحسن**: من علامة إعراض الله عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه خذلاناً من الله ـ عز وجل ـ[١].

فإنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهي ذلك بهم إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تُقدّم في كل مرحلة زاداً لما بين يديها فأفعل، فإن انقطاع السفر عن قريب ماهو والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك واقض ما أنت قاض من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغتك[٢].

إنما الدنيا إلى الجنة والنار طريق
والليالي متجر الإنسان والأيام سوق[٣]

أخي الحبيب..

كان **شميط بن عجلان** يقول: الناس رجلان، فمتزود من الدنيا ومتنعم فيها، فانظر أي الرجلين أنت؟

إني أراك تحب طول البقاء في الدنيا فلأي شيء تحبه أنت؟ إن تطع الله عز وجل وتحسن عبادته وتتقرب إليه بالأعمال الصالحة.. ؟ فطوبى لك.

أم لتأكل وتشرب وتلهو وتلعب وتجمع الدنيا وتثمرها وتنعم زوجتك وولدك.. ؟ فلبئس ما أردت له البقاء[٤].

فالواجب على المؤمن المبادرة بالأعمال الصالحة قبل أن لا يقدر عليها ويحال بينه وبينها، إما بمرض أو موت أو غير ذلك من العلل والآفات..

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ١٣٩.
(٢) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٣.
(٣) الزهد للبيهقي ص ٢٩٨.
(٤) صفوة الصفوة: ٣/ ٣٤٣.

قال **أبو حازم**: إن بضاعة الآخرة كاسدة يوشك، أن تنفق فلا يوصل منها إلى قليل ولا كثير، ومتى حيل بين الإنسان والعمل لم يبق له إلا الحسرة والأسف عليه ويتمنى الرجوع إلى حال يتمكن فيها من العمل فلا تنفعه الأمنية[١].

ولنرى الإمام **الشافعي** كيف استفاد من وقته فقد جزأ ـ رحمه الله ـ الليل إلى ثلاثة أجزاء: الثلث الأول يكتب، والثلث الثاني يصلي، والثلث الثالث ينام[٢].

وكان **الحسن** يقول: ما مر يوم على ابن آدم إلا قال له: ابن آدم، إني يوم جديد، وعلى ما تعمل فيَّ شهيد، وإذا ذهبت عنك لم أرجع إليك، فقدم ما شئت تجده بين يديك، وأخر ماشئت فلن يعود أبداً إليك[٣].

تؤمل في الدنيا طويلاً ولا تدري
إذا جن ليل هل تعيشُ إلى الفجر
فكم من صحيحٍ مات من غير علةٍ
وكم من مريض عاش دهراً إلى دهر[٤]

كثيرون باتوا ولم يروا ضوء الفجر التالي، وكثيرون أشرقت عليهم الشمس ولم يدركوا مغيبها.. وهل الإنسان إلا هكذا ميت بليل أو نهار، ينتظر الموت من أين يُقبل!!

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٨.
(٢) صفة الصفوة: ٢/ ٢٥٥.
(٣) الحسن البصري ص ١٤٠.
(٤) موارد الضمآن: ٢/ ٢٤٥.

إن توقفت أنفاسه نهاراً لم ير الليل وإن سكنت أطرافه بالليل أصبح محمولاً إلى القبر..

ألا إنها أوقاتٌ محسوبة ولحظاتٌ مقسومة وأنفاسٌ معدودة.. تمر مر السحاب طوبى لمن عمل بها وإستزاد من الخير وقدم ليوم المعاد.

كان **أبو مسلم الخولاني** يقول: لو رأيت الجنة عياناً ما كان عندي مستزاد، ولو رأيت النار عياناً ماكان عندي مستزاد[١].

وهذه المحافظة على الأوقات من علامات النفوس الكبيرة والهمم القوية.

قال **أبو النصر أباذي**: مراعاة الأوقات من علامات التيقظ[٢].

ومن أضاع أوقاته فيما لا فائدة منه فيرسم لنا حاله **مورق العجلي بقوله**: ياابن آدم تودى كل يوم برزقك وأنت تحزن، وينقص عمرك وأنت لا تحزن، تطلب ما يطغيك، وعندك ما يكفيك.

وللمـــــرء يـــــوم ينقضي فيـــــه عمـــــره
ومـــــوت وقبر ضيـــــق يُـــــولـــــجُ[٣]

قال **الحسن**: لم يزل الليل والنهار سريعين في نقص الأعمار وتقريب الآجال، هيهات قد صحبا نوحاً وعاداً وثموداً وقروناً بين ذلك كثيراً، فأصبحوا قد أقدموا على ربهم ووردوا على أعمالهم، وأصبح الليل والنهار غضين جديدين لم يبلهما ما مرّا به، مستعدين لمن بقي بمثل ما أصاب به من مضى..[٤].

---

(١) صفوة الصفوة: ٤/٢١٣، والسير: ٤/٩.
(٢) الزهد للبيهقي ص ١٩٧.
(٣) إرشاد العباد ص ٤٨.
(٤) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٤.

نهارٌ طويل ماذا كان يُعمل فيه وماذا يُستفاد منه . . قال حماد بن سلمة : ما أتينا **سليمان التيمي** في ساعة يطاع الله ـ عز وجل ـ فيها إلا وجدناه مطيعاً . . إن كان في ساعة صلاة وجدناه مصلياً وإن لم تكن ساعة صلاة وجدناه إما متوضأ أو عائداً مريضاً، أو مشيعاً لجنازة، أو قاعداً في المسجد، قال : فكنا نرى أنه لا يحسن أن يعصي الله ـ عز وجل ـ[١] .

أخي الحبيب:

ينبغي للمؤمن أن يتخذ من مرور الليالي والأيام عبرة لنفسه، فإن الليل والنهار يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويطويان الأعمار، ويشيبان الصغار، ويفنيان الكبار كما قال الشاعر :

أشـــــــاب الصغير وأفنـــــــى الكبير
كـــــرُّ الغـــــداة ومـــــرُّ العشي
إذا ليلـــــة أهـــــرمـــــت يـــــوَمَهـــا
أتـــــى بعـــــد ذلـــــك يـــــومٌ فتـــــي

إن مضي الزمن واختلاف الليل والنهار لا يجوز أن يمر بالمؤمن وهو في ذهول عن الاعتبار به، والتفكير فيه، ففي كل يوم يمر، بل في كل ساعة تمضي، بل في كل لحظة تنقضي، تقع في الكون والحياة أحداث شتى، منها ما يُرى وما لا يُرى، ومنها ما يُعلم ومنها لا يُعلم . .

من أرض تحيا، وحبة تنبُت، ونبات يُزهر، وزهر يثُمر، وثمر يقطف، وزرع يصبح هشيماً تذروه الرياح، أو من جنين يتكون، وطفل يولد،

---

(١) حلية الأولياء: ٢/ ٨٢.

ووليد يشب، وشاب يتكهل، وكهل يشيخ، وشيخ يموت..[١].

إذا كنت في الأمس اقترفت إساءة
فثنِّ بإحسانٍ وأنت حميد
ولا ترج فعل الخير يوماً إلى غدٍ
لعل غداً يأتي وأنت فقيد
ويومك إن عاتبته عاد نفعاً
إليك وما ضُحى الأمس ليس يعود[٢]

دخل رجلٌ على **داود الطائي** يوماً فقال: إن في سقف بيتك جذعاً مكسوراً.. فقال: يا ابن أخي.. إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف[٣].

رحمه الله.. ماذا عن واقع حياة عامة الناس اليوم.. حديث بدون فائدة وأسئلة بلا نهاية.. متى كُسر هذا..؟ ثم تفصيل طويل لا يُفيد مستمع ولا ينفع مُتحدث.. وبالإمكان الغُنية عن هذا كله لو تحرزنا في أحاديثنا وأمسكنا بزمام ألسنتنا.. مجالس طويلة تمتد الساعات الطوال بدون فائدة..

أعد ـ أخي ـ إن استطعت خمس ساعات من عمرك لتسبح تسبيحة واحدة!؟

أرأيت الغبن وضياع رأس المال دون فائدة؟!. أما إذا امتد الحديث لغيبة ونميمة فتلك شر المجالس وبئس الأُنس.. في مقابل ما يضيع من أعمارنا

---

(١) الوقت للقرضاوي ص ١٨.
(٢) ديوان الإمام الشافعي ص ٧٣.
(٣) الإحياء: ٤/ ٤٣٤.

دون فائدة لنرى كيف كانوا يستثمرون اللحظات ويستفيدون منها.. إنهم أهل الطاعة والعبادة..

قالت داية **داود الطائي**: يا أبا سليمان أما تشتهي الخبز..؟. قال: يا داية بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية[١].

وقال **ابن مهدي**: كنا مع الثوري جلوساً بمكة، فوثب وقالك النهار يعمل عمله[٢].

أخي الحبيب... أين نحن من هؤلاء؟

وهذا صباح اليوم ينعاك ضوؤه وليلته تنعاك إن كنت تشعر[٣].

كان **علي بن أبي طالب** ـ رضي الله عنه يقول: إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل[٤].

وحال الكثير اليوم كما تعجب منها أحد الحكماء بقوله: عجبت ممن الدنيا مولية عنه والآخرة مُقبلة إليه يشغل بالمدبرة ويعرض عن المقبلة[٥].

أخي الحبيب..

تمر الخواطر وتتتابع الأسئلة ولكن.. هل سألت نفسك يوماً لماذا تعيش؟

---

(١) صفوة الصفوة: ٣/ ١٤٠، والزهد للبيهقي ص ١٩٩.
(٢) السير: ٢٤٣٧.
(٣) موارد الظمآن: ٢/ ٣٩.
(٤) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٠.
(٥) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٠.

بالجواب يتحدد الهدف ويتضح الطريق ويسهل الوصول..

لنسمع جواب **أبي الدرداء** ـ رضي الله عنه ـ حين قال: «لولا ثلاث ما أحببت العيش يوماً واحداً.. الظمأ لله بالهواجر والسجود لله في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما يُنتقى أطايب التمر».

وهذه الدنيا كما وصفها **عمر بن عبدالعزيز** بقوله.. إن الدنيا ليست بدار قراركم، كتب الله عليها الفناء وكتب الله على أهلها الظعن، فكم من عامر موثق عن قليل يخرب، وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى.

وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن من دار إقامة ولا وطناً فينبغي للمؤمن أن يكون حاله فيها على أحد حالين..

إما أن يكون كأنه غريب مقيم في بلد غربة، همه التزود للرجوع إلى وطنه، أو يكون كأنه مسافر غير مقيم ألبتة، بل هو ليله ونهاره يسير إلى بلد الإقامة[١].

فإن من تيقن ذلك ونظر إليه بعين المتأمل كان مثل **عبدالرحمن بن أبي نعم** عندما قال عنه بكير بن عبدالله: كان لو قيل له قد توجه إليك ملك الموت ما كان عنده زيادة عمل[٢].

قال **الحسن**: ياابن آدم إنك ناظر إلى عملك يوزن خيره وشره، فلا تحقرن من الخير شيئاً وإن هو صغر فإنك إذا رأيته سرّك مكانه ولا تحقرن من

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٠.
(٢) السير ٥/ ٦٢.

الشر شيئاً فإنك إذا رأيته ساءك مكانه رحم الله رجلاً كسب طيباً وأنفق قصداً وقدم فضلاً ليوم فقره وفاقته. هيهات هيهات، ذهبت الدنيا بحال بالها، وبقيت الأعمال قلائد في أعناقكم، أنتم تسوقون الناس، والساعة تسوقكم، وقد أسرع بخياركم فماذا تنتظرون[١].

سبيلك في الدنيا سبيل مسافر
ولابد من زاد لكل مسافر
ولابد للإنسان من حمل عدة
ولا سيما إن خاف صولة قاهر[٢]

أخي..

راحلة الأيام تسير بنا إن توقفت اليوم أو هي غداً لابد واقفة ولمن عليها تاركة..

ولكن أين الزاد لمر صعب وموقف عظيم.. يوم تذهل فيه كل مرضعةٍ عما أرضعت!!

فإن للعبد رب هو ملاقيه وبيتٌ هو ساكنه، فينبغي له أن يسترضي ربه قبل لقائه ويعمر بيته قبل انتقاله إليه..[٣].

فإن الإنسان كما قال عنه **أحمد بن مسروق**: أنت في هدم عمرك منذ خرجت من بطن أمك[٤].

---

(١) صفوة الصفوة ٣/ ٢٣٥.
(٢) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٣.
(٣) الفوائد ص ٤٥.
(٤) صفة الصفوة ٤/ ١٢٩.

أخي المسلم:

إن المترقب إلى من يبني له داراً في الدنيا يرى كم من الساعات ينفق في سبيل بنائها وصيانتها والوقوف عليها.. بل ربما نسي أن له داراً ثانية غير هذه.. وأضاع ليله ونهاره!!؟ وهو يعلم أنه راحلٌ عنها؟!

قال **يحيى بن معاذ**: الليل طويل فلا تقصره بمنامك، والنهار نقي فلا تدنسه بآثامك[١].

واعلم أن الزمان أشرف من أن يضيع منه لحظة فإن في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له بها نخلة في الجنة**» فكم يضيع الآدمي من ساعات يفوته فيها الثواب الجزيل، وهذه الآيام مثل المزرعة، فكأنه قيل للإنسان كلما بذرت حبة أخرجنا لك ألف كر، فهل يجوز للعاقل أن يتوقف في البذر ويتوانى[٢].

كان **الحسن** يقول: يا ابن آدم نهارك ضيفك فأحسن إليه فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك وإن أسأت إليه ارتحل بذمك، وكذلك ليلتك[٣].

إن في المـــوت والمعـــاد لشغـــلاً
وادكـــاراً لـــذي النّهـــى وبـــلاغـــا
فـــاغتنـــم خُطّتين قبـــل المنـــايـــا
صحـــة الجســـم يـــا أخـــي والفـــراغـــا[٤]

---

(١) صفة الصفوة ٤/ ٩٤.
(٢) صيد الخاطر ص ٦٢٠.
(٣) الزهد للحسن البصري ص ١٤٠.
(٤) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٥٢.

قال **وهيب بن الورد**: إن استطعت أن لا يشغلك عن الله ـ تعالى ـ أحد فأفعل[١].

لأن الأمر كما قال **الحسن**: ابن آدم إنك بين مطيتين يوضعانك، الليل إلى النهار، والنهار إلى الليل حتى يسلمانك إلى الآخرة فمن أعظم منك يابن آدم خطراً[٢].

وقالت **رابعة العدوية** لسفيان: إنما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكلُّ وأنت تعلم.. فاعمل[٣].

ألم تـــــر أن اليـــــوم أسرعُ ذاهـــــب
وأن غـــداً للنـــاظـــريـــن قـــريـــب

أخي الشاب:

زمن الشباب زمن الصحة والقوة.. الحركة سريعة والوثبة قوية والحواس مكتملة.. ماذا قدمت في هذا الوقت؟.. وهي صحةٌ لن تعود ونشاط لن يبقى وحواس تنقص.. كانت **صفية بنت سيرين** توصي فتقول: يا معشر الشباب خذوا من أنفسكم وأنتم شباب فإني ما رأيت العمل إلا في الشباب[٤].

إن الشَبـــــاب حُجَـــــةُ التّصـــــابي
روائـــــح الجنـــــة في الشبـــــاب[٥]

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ١٤٠.
(٢) الزهد للبيهقي ص ٢٠٤.
(٣) صفة الصفوة ٤/ ٢٩.
(٤) صفة الصفوة ٤/ ٢٤.
(٥) ديوان أبي العتاهية ص ٤٩٥.

الشاب يرى أن لديه وقت فراغ.. وساعات لا يحتاج إليها.. ويبرر لنفسه بما يشاء.. لنسمع **القاضي شريح** وقد خرج على قوم من الحاكة في يوم عيد وهم يلعبون، فقال: مالكم تلعبون؟

قالوا: إنا تفرغنا!!

قال: أو بهذا أمر الفارغ، وتلا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ٧، ٨][1].

وأكد ذلك الأمر **الشيخ ابن عقيل** حيث قال مفتيا: إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح.[2].

وسأل **الفضيل بن عياش** رجلاً فقال له: كم أتت عليك؟ قال.. ستون سنة.

قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك، يوشك أن تبلغ، فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون!!

فقال الفضيل: أتعرف تفسيره تقول ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ـ فمن عرف أنه لله عبد، إليه راجع، فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف، فليعلم أنه مسئول، ومن علم أنه مسئول فليعدّ للسؤال جواباً.

فقال الرجل: فما الحيلة؟

قال: يسيرة.. قال: ماهي؟

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ١٣٤.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ١٤٦.

قال: تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى، فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت بما مضى وما بقي.

وفي هذا المعنى قال بعضهم:

وإن المـــرء قـــد ســـار ستين حجـــة
إلى منهـــل مـــن ورده لقـــريـــب[١]

أخي الحبيب:

كلمح البصر سنواتٌ مرت كأضغاث أحلام.. نقترب بمضيها من نهايتنا من الحياة.. نتقدم كل لحظة خطوة إلى المنايا..

تجري بنا الأيام كسحاب تهب عليه الريح.. تغمض عينيك برهة من الوقت فلا تجد السحاب.. ولن تُمسكه.. يُمسك الزمن قلةٌ وهبهم الله عوناً وتوفيقاً، حرصٌ ومثابرة.. لم يتركوا لحظة تمر دون عمل..

يحدثنا عن أحد هؤلاء موسى بن إسماعيل يقول: لو قلتُ أني ما رأيت **حماد بن مسلمة** ضاحكاً لصدقت، كان يُحَدِّث أو يسبح أو يقرأ أو يصلي، قد قسم النهار على ذلك[٢].

وعندما سُئل **المعافى بن عمران**: ما ترى في الرجل يقرض الشعر ويقوله؟ قال: «هو عمرك فأفنه بما شئت»[٣].

ومـــن عجـــب الأيـــام أنـــك جـــالـــسٌ
على الأرض في الـــدنيـــا وأنـــت تسير

---

(١) جامع العلوم ص ٤٦٤.
(٢) شذرت الذهب ١/ ٢٦٢.
(٣) صفة الصفوة ٤/ ١٨٠.

فسيرك يـــــاهـــــذا كسير سفينـــــةٍ
بقـــــومٍ جلـــــوسٍ والقلـــــوع تطير[١]

قيل **لمحمد بن واسع**: كيف أصبحت؟ قال: ماظنك برجل يرتحل كل يوم مرحلة إلى الآخرة[٢].

لوتأملنا بقليل من التفكر هذه الحقيقة لنظرنا إلى ما بقي من أعمارنا نظرة **عيسى بن الهزيل** حين قال: «ابن آدم ليس لما بقي من عمرك ثمن».

وأي ثمن ـ أخي الحبيب ـ لأعمارنا؟ لننظر إلى اللحظات الأخيرة والبقية الباقية من عمر أبي **يوسف يعقوب الأنصاري**.. كما يرويها إبراهيم بن الجراح الكوفي بقوله: مرض أبـو يوسف، فأتيتـه أعوده، فوجدته مغمي عليه، فلـما أفاق قال لي:

يا إبراهيم، ما تقول في مسألة؟ قلت: في مثل هذه الحالة؟! قال: ولا بأس بذلك، ندرس لعله ينجو به ناج؟

ثم قال: يا إبراهيم، أيما أفضل في رمي الجمار ـ أي في مناسك الحج ـ أن يرميها ماشياً أو راكباً، قلت: راكباً، قال: أخطأت، قلت ماشياً قال: أخطأت، قلت: قل فيها، يرضى الله عنك.

قال: أما ما كان يوقف عنده للدعاء، فالأفضل أن يرميه ماشياً، وأما ماكان لا يوقف عنده فالأفضل أن يرميه راكباً. ثم قمت من عنده، فما بلغت باب داره حتى سمعت الصراخ عليه، وإذا هو قد مات رحمة الله عليه[٣].

---

(١) البداية والنهاية ١٣/١٦٦.
(٢) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٢.
(٣) سوانح وتأملات نقلاً عن الجواهر المضيئة لأبي محمد القرشي.

لقد بارك الله في أيامهم وأوقاتهم وأعمالهم لأنهم يرون أيامهم كما قال القائل:

إذا مر بي يومٌ ولم أقتبس هدى
ولم أستفد علماً فماذاك من عمري[١]

وأنظر أخي إلى يومك الذي تعيش فيه الآن ماذا قدمت فيه؟ وأنت تعلم أن الدنيا ثلاثة أيام.

ها هي الدنيا يقول عنها **الحسن**: «أنها ثلاثة أيام، أما أمس فقد ذهب بما فيه، وأما غداً فلعلك لا تدركه، فاليوم لك فاعمل فيه»[٢].

وقال **داود الطائي**: «يابن آدم فرحت ببلوغ أملك، وإنما بلغته بانقضاء مدة أجلك، سوَّفت بعملك كأن منفعته لغيرك»[٣].

وماهذا التحسر والندم على أيام ذهبت إلا كما ذكر **أبو سليمان الداراني**: لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على لذة مافاته من الطاعة فما مضى كان ينبغي له أن يبكيه حتى يموت[٤].

أخي الحبيب:

أسرع ما نؤديه الواجبات ولا نحسب لها حساب بل نؤديها كيفما اتفق.. وهي دقائق معدودة.. ثم ترانا نضيع ساعات طوال في مجالس بدون فائدة أو في لهو ولعب.. سبحان الله..

---

(١) إرشاد العباد ص ٣٧.
(٢) الزهد للبيهقي ص ١٩٦.
(٣) صفة الصفوة ٣/ ١٤٠.
(٤) حلية الأولياء ٩/ ٢٧٥.

إنـــا لنفـــرح بـــالأيـــام نقطعهـــا
وكـــل يـــوم مضـــى يـــدني مـــن الأجـــل
فـــاعمـــل لنفســـك قبـــل المـــوت مجتهـــدا
فـــإنمـــا الـــربـــح والخسران في العمـــل

مضى يومنا هذا بضوئه ورحل بعمله.. إن حملت صحائفه طاعة وعبادة فطوبى الغنيمة التي قال عنها **سعيد بن جبير**.. إن بقاء المسلم كل يوم غنيمة لأداء الفرائض والصلوات ومايرزقه الله من ذكره[١].

والمحافظة على الأوقات نرى أثرها في الدنيا قبل الآخرة وهل العايد مثل اللاهي.. والعاصي مثل المطيع!!

قال **إبراهيم بن شيبان**: من حفظ على نفسه أوقاته فلا يضيعها بما لا رضا لله فيه، حفظ الله عليه دينه ودنياه[٢].

فإن الليل والنهار كما وصف **داود الطائي** مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهي ذلك بهم إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدّم في كل مرحلة زاداً لما بين يديها فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب ماهو والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك واقض ما أنت قاض من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغتك[٣].

اذان المـــــرء حين الطفـــــل يـــــأتي
وتـــــأخير الصـــــلاة إلى الممـــــات

---

(١) شرح الصدور للسيوطي ص ٧.
(٢) الزهد للبيهقي ص ٢٩٨.
(٣) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٣.

دليـــــــل أن محيـــــــاه يسير كمـــــــا
بين الآذان إلى الصـــــــــــــــــــلاة

يا أخي.. يخيل لك أنك مقيم، بل أنت دائب السير، تساق سوقاً حثيثاً، الموت متوجه إليك والدنيا تطوى من ورائك ومامضى من عمرك فليس بعائد إليك.

فكيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره، كيف يفرح من يقود عمره إلى موته؟! إنها رحلة سفر.. إنها والله ظل زائر.

سبيلـــك في الـــدنيـــا سبيـــل مســـافـــر
ولابـــدّ مـــن زادٍ لكـــل مســـافـــر
ولابـــدّ لـــلإنســـان مـــن حمـــل عـــدة
ولا سيمـــا إن خـــاف صـــولـــة قـــاهـــر[1]

قال أبو ضمرة يتحدث عن **صفوان بن سليم**: رأيته ولو قيل الساعة غداً ماكان عنده مزيد عمل[2].

أخي الحبيب:

نندم على التفريط عندما نسمع مثل هذه الهمة وهذا التوفيق.. محافظة تامة واستجابة كاملة.. ونتحسر على أيامٍ أضعناها وأوقات تركناها.. ذهبت بما حملت..

---

(١) جامع العلوم ص ٤٦٣.
(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ١٣٥.

نتقرب من قول **أبي سليمان**. . لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة، لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله[١].

هذا **مالك بن دينار** المعروف بزهده وورعه وعبادته يحدثنا عنه سلام بن مطيع، يقول: دخلت على مالك بن دينار ليلاً وهو في بيت بغير سراج، وفي يده رغيف يكدمه، فقلت له: يا أبا يحيى ألا سراج؟ ألا شيء تضع عليه خبزك فقال: دعوني فوالله إني لنادم على مامضى[٢].

أراني في انتقـــــاص كـــــل يـــــوم
ولا يبقـــــى مـــــع النقصـــــان شيء
طـــــوى العصران مـــــا نشراه منـــــي
فـــــأخلـــــق جـــــدَّتي نشرٌ وطَـــــيٌّ[٣]

مواعظ تتسابق وأحداثٌ تتكرر. . وصورٌ من المحافظة على الوقت نراها بين السطور وعلى رسم الحروف ولعله يكون لنا نصيبٌ من قول **عمرو بن قيس الملائي**: إذا بلغك شيء من الخير فاعمل به ولو مرة تكن من أهله.[٤]

فإذا عزم العبد على السفر إلى الله ـ تعالى ـ وإرادته، عَرَضَت له الخوادع والقواطع، فينخدع أولاً بالشهوات والرياسات والملاذ والمناكح والملابس، فإن وقف معها انقطع، وإن رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه أُبتلي

---

(١) الإحياء ٤/ ١٣.
(٢) حلية الأولياء ٦/ ١٨٩.
(٣) السير ١٤/ ١٨٦.
(٤) صفة الصفوة ٣/ ١٢٤.

بوطء عقبه[١] وتقبيل يده والتوسعة له في المجلس والإشارة إليه بالدعاء ورجاء بركته، ونحو ذلك.

فإن وقف معه انقطع به عن الله وكان حظه منه، وإن قطعه ولم يقف معه ابتلي بالكرامات والكشوفات، فإن وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظَّه، وإن لم يقف معها ابتلي بالكرامات والكشوفات، فإن وقف معها انقطع بالتجريد والتخلي ولذه الجمعية وعزة الوحدة والفراغ من الدنيا، فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود، وإن لم يقف معه وسار ناظراً إلى مراد الله منه وما يحبه منه بحيث يكون عبده الموقوف على محابِّه ومراضيه أين كانت وكيف كانت، تعب بها أو استراح، تنعَّم أو تألم، أخرجته إلى الناس أو عزلته عنهم، لا يختار لنفسه غير ما يختاره له وليّه وسيّده، واقف مع أمره ينفذه بحسب الإمكان، ونفسه عنده أهون عليه أن يقدم راحتها ولذتها على مرضاة سيده وأمره، فهذا هو العبد الذي قد وصل ونفذ ولم يقطعه عن سيده شيء ألبتة[٢].

ولقد منَّ الله على الكثير بالمحافظة على الأوقات والاستفادة منها في القيام بالطاعات هذا سفيان يحدثنا عن **عمرو بن قيس** فيقول:

عمرو بن قيس هو الذي أدبني، علّمني قراءة القرآن وعلمني الفرائض وكنت أطلبه في سوقه فإن لم أجده في سوقه وجدته في بيته إما يصلي وإما يقرأ في المصحف، كأنه يبادر أموراً تفوته، فإن لم أجده في بيته وجدته في بعض مساجد الكوفة في زاوية من زوايا المسجد كأنه سارق قاعداً يبكي،

---

(١) أي بالسير خلفه.

(٢) الفوائد لابن القيم ص ٢٢٣.

فإن لم أجده وجدته في المقبرة قاعداً ينوح على نفسه . .[١] .

ولا أؤخـــر شغـــل اليـــوم عـــن كســـلٍ
إلى غـــدٍ إن يـــوم العـــاجـــزيـــن غـــدُ[٢]

كان **عمرو بن دينار** قد جزأ الليل ثلاثة أجزاء، ثلثاً ينام، وثلثاً يدرس الحديث، وثلثاً يصلي[٣] .

الحال اليوم تبدلت والأمور تغيرت . . هناك عزم وهمة ولكن وراء الدنيا . . خوفٌ على فواتها وسعي لإدراكها وهلع على نقصانها . . أما الآخرة فلا ينظر إليها بعين . . ولا يرمي لها بسهم .

كأن **محمد بن المبارك** يرى حالنا وهو يقول : تخاف أن يفوتك عند البقال من قطعتك، تبادر إليه وتبكر عليه، ولا تخاف أن يفوتك من الله ما تؤمل بكثير القعود عنه والتشاغل عن المبادرة إليه[٤] .

* قال **الجنيد** لرجل وهو يعظه : جماع الخير كله في ثلاثة أشياء . . إن لم تمضِ نهارك بما هو لك فلا تُمضه بما هو عليك، وإن لم تصحب الأخيار فلا تصحب الأشرار، وإن لم تنفق مالك فيما لله فيه رضا فلا تنفقه فيما لله فيه سخط[٥] .

وهذا أقل القليل وإلا باب العمل مفتوح وطالب الدار الآخرة لا يرضى

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٢٥ .
(٢) الوقت للقرضاوي ص ١٣ .
(٣) السير ٥/ ٣٠٢ .
(٤) حلية الأولياء ٩/ ٢٩٨ .
(٥) الزهد للبيهقي ص ٢٩٠ .

بالقليل فقد كان **وكيع بن الجراح** لا ينام حتى يقرأ حزبه في كل ليلة ثلث القرآن، ثم يقوم في آخر الليل فيقرأ المفصل، ثم يجلس فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر فيصلي ركعتين[١].

والخوف ملازم لهم والشفقة ملاحقة لهم فكانوا يخافون من رد العمل.. كان **الضحاك بن مزاحم** إذا أمسى بكى فيقال له، فيقول: لا أدري ما صعد اليوم من عملي[٢].

أخي الحبيب:

وصيةٌ صادقة ونصيحة غالية من **الفضيل بن عياض**: تفكروا واعملوا من قبل أن تندموا، ولا تغتروا بالدنيا، فإن صحيحها يسقم وجديدها يبلى ونعيمها يفنى وشبابها يهرم[٣].

ومن شدة محافظتهم على الوقت استفادوا حتى من اللحظات القليلة التي ربما تضيع في المشي والجري فقد أوصى بعض السلف أصحابه فقال: إذا خرجتم من عندي فتفرقوا لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه، ومتى اجتمعتم تحدثتم[٤].

والعجب تجد الشاب يجري ساعات طوال ولا يؤدي السنن الراتبة وربما أهمل في الفريضة.

أيـــــام عمـــــرك تـــــذهـــــب

وجميـــــع سعيـــــك يكتـــــب

---

(١) تاريخ بغداد ١٣/ ٥٠١.

(٢) السير ٤/ ٦٠٠.

(٣) الزهد للبيهقي ص ١٩٧.

(٤) صيد الخاطر ص ٦٢٠.

ثـــــم الشهيـــــــد عليـــــــك
منـــــك فـــــأيـــــن المهـــــرب[١]

أما أوقات العمل الضائعة فقد استعدوا لها واستفادوا منها. . فهذا **ابن الجوزي** يشرح تلك الحال ويحكي لنا كيف استفاد من الوقت في حضور البطالين [٢] فيقول: لما رأيت أن الزمان أشرف شيء، والواجب انتهازه بفعل الخير، كرهت ذلك وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف وإن تقبلته منهم ضاع الزمان، فصرت أُدافع اللقاء جهدي، فإذا غُلبت قصرت في الكلام لأتعجل الفراق، ثم أعددت أعمالاً لاتمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغاً. . فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد[٣] وبري الأقلام، وحزم الدفاتر فإن هذه الأشياء لابد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي[٤].

وكان **تقي الدين المقدسي** لا يضيع شيئاً من زمانه، كان يصلي الفجر ويلقن القرآن وربما لقن الحديث، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ثلاث مائة ركعة إلى قبيل الظهر، فينام نومة فيصلي الظهر، فينام نومة فيصلي العصر ويشتغل بالتسميع أو النسخ إلى المغرب فيفطر إن كان صائماً ويصلي إلى العشاء، ثم ينام إلى نصف الليل أو يعدم ثم يتوضأ ويصلي إلى قريب الفجر وربما توضأ سبع مرات أو أكثر ويقول: تطيب لي الصلاة مادامت أعضائي رطبة ثم ينام

---

(١) السير ١٨/١١٦.
(٢) فارغي النفوس والعقول
(٣) وهو الورق.
(٤) صيد الخاطر ص ٣٠٦.

نومة يسيرة قبل الفجر، وهذا دأبه[١].

وقال موسى بن إسماعيل: لو قلت لكم: إني ما رأيت حماد بن مسلمة ضاحكاً قط لصدقتكم، كان مشغولاً بنفسه إما أن يحدث وإما يقرأ وإما يسبح، وإما أن يصلي، كان يقسِّم النهار على هذه الأعمال[٢].

أخي الحبيب أين نحن من هؤلاء؟!

كلما ازداد إدراك المرء للغاية التي من أجلها خُلق، ازداد اغتناماً لزمنه، وبالتالي كان أقرب لتلك الغاية وأكثر تحققاً بها. . إن الزمن يساوي عطاء الإنسان وحصاد عمره، يساوي اليد التي ستحمل كتابه يُمنى تكون أو يُسرى.

أؤمل أن أحيا وفي كل ساعة
تمر بي الموتى يهز نعوشها
وهي أنا إلا مثلهم غير أن لي
بقايا ليالٍ في الزمان أعيشها[٣]

كان الشافعي قد جزأ الليل، فثلثه الأول يكتب، والثاني يصلي، والثالث ينام[٤].

أخي الحبيب:

هلم إلى الدخول على الله ومجاورته في دار السلام بلا نصب ولا تعب ولا

---

(١) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٧٦.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ٣٦٢ وحلية الأولياء ٦/ ٢٥٠.
(٣) البداية والنهاية ١١/ ٣٥٥.
(٤) السير ١٠/ ٣٥.

عناء، بل من أقرب الطرق وأسهلها، وذلك أنك في وقت بين وقتين وهو في الحقيقة عمرك، وهو وقتك الحاضر بين ما ضى وما يُستقبل، فالذي مضى تُصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لاتعب عليك فيه ولا نصب ولا معناة عمل شاق، إنما هو عمل قلب. وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب، وامتناعك ترك وراحة ليس هو عملاً بالجوارح يشق عليك معاناته، وإنما هو عزم ونية جازمة تريح بدنك وقلبك وسرك.

فيما مضى تصلحه بالتوبة، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية، وليس في هذين نصب ولاتعب، ولكن الشأن في عمرك وهو وقتك الذي بين الوقتين، فإن أضعته أضعت سعادتك ونجاتك، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذكر نجوت وفُزت بالراحة واللذة والنعيم، وحفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده، فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وأنفع لها وأعظم تحصيلاً لسعادتها.

وفي هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت، فهي والله أيامك الخالية التي تجمع فيها الزاد لمعادك، إما إلى الجنة وإما إلى النار، فإن اتخذت إليها سبيلاً إلى ربك بلغت السعادة العظمى والفوز الأكبر في هذه المدة اليسيرة التي لا نسبة لها إلى الأبد، وإن آثرت الشهوات والراحات واللهو واللعب إنقضت عنك بسرعة واعقبتك الألم العظيم الدائم الذي مُقاساته ومعاناته أشق وأصعب وأدوم من معاناة الصبر عن محارم الله والصبر على طاعته ومخالفة الهوى لأجله[1].

قال أحمد بن مسلمة النيسابوري: كان **هناد بن السري** كثير البكاء..

---

(١) الفوائد ص ١٥١.

فرغ يوماً من القراءة لنا فتوضأ وجاء إلى المسجد فصلى إلى الزوال وأنا معه في المسجد، ثم رجع إلى منزله فتوضأ وجاء فصلى الظهر بنا، ثم قام على رجليه يصلي إلى العصر ويرفع صوته بالقرآن ويبكي كثيراً، ثم صلى بنا العصر وأخذ يقرأ في المصحف حتى صليت المغرب، فقلت لبعض جيرانه: ماأصبره على العبادة فقال: هذه عبادته بالنهار منذ سبعين سنة، فكيف لو رأيت عبادته بالليل[١]

اغتنـــــــم ركعتين زُلفـــــــى إلى الله
إذا كنـــــت فـــــارغـــــاً مستريحـــــاً
وإذا مـــــا هممـــــت بـــــالقـــــول في البـــــا
طـــــل فـــــاجعـــــل مكـــــانـــــه تسبيحـــــاً[٢]

أخي الحبيب:

أول واجب على الإنسان المسلم نحو وقته أن يحافظ عليه كما يحافظ على ماله، بل أكثر منه، وأن يحرص على الاستفادة من وقته كله فيما ينفعه في دينه ودنياه، وما يعود على أمته بالخير والسعادة والنماء الروحي والمادي وقد كان السلف ـ رضي الله عنهم ـ أحرص ما يكونون على أوقاتهم لأنهم كانوا أعرف الناس بقيمتها[٣].

قال **السري بن المفلس**: إن اغتنمت بما ينقص مالك، ابك على ما ينقصن من عمرك[٤].

---

(١) تذكرة الحفاظ ٢/٥٠٨.
(٢) ديوان الإمام علي ص ٥٨.
(٣) الوقت القرضاوي ص ١٢.
(٤) صفة الصفوة٢/ ٣٧٦.

ومقارنة سريعة وصف لنا فيها **الحسن البصري** حال أولئك الأخيار فقال: أدركت أقواماً كان أحدهم أشح على عمره منه على درهمه..

وحين سئل نافع.. ماكان ابن عمر يصنع في منزله؟

قال: «الوضوء لكل صلاة والمصحف فيما بينهما».

أتـــاك حـــديـــث لا يُمـــل سمـــاعـــه
شهـــيٌ إلينـــا نشـــره ونظـــامـــه
إذا ذكـــرتـــه النفـــس زال عنـــاؤهـــا
وزال عـــن القلـــب المعنـــى ظـــلامـــه

إن صحبة الأخيار ومجالسة الصالحين وسماع أخبارهم تغرس في النفس حب الخير والرغبة في مجاراتهم والوصول إلى ما وصلوا إليه من الطاعة والعبادة.

فإن النفس تحتاج إلى تذكير وترغيب خاصة في زمن طول الأمل واللهث وراء الدنيا.. لنعتبر ونتأمل في قصة معروف الكرخي عندما أقام الصلاة فقال لرجل: تقدم فصل بنا، فقال الرجل: إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها.

فقال له معروف: وأنت تحدث نفسك أنك تصلي صلاة أخرى، نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع خير العمل[1].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟

إن الأمل باب التسويف ومدعاةٌ لضياع الوقت.

---

(١) جامع العلوم ص ٢٤٦، وحلية الأولياء ٨/ ٣٦٢.

والـــوقـــت أنفـــس مـــا عنيـــت بحفظـــه
وأراه أسهـــل مـــا عليـــك يضيـــعُ

ومن حسن التربية تعويد الأبناء على الاستفادة من الأوقات وعمارها بما هو مفيد حتى يتعودوا على ذلك من الصغر قال **عبدالله بن عبدالملك** رحمه الله: كنا مع أبينا في موكبه فقال: سبحوا حتى تلك الشجرة، فنُسبح حتى نأتيها، فإذا رفعت لنا شجرة أخرى قال: كبروا حتى تلك الشجرة، فكان يصنع بنا ذلك..

أما معشر الشباب وما يراد منهم فإن **الحسن** قد سأل ذات يوم جلساه: يا معشر الشيوخ ماذا ينتظر بالزرع إذا بلغ؟ قالوا: الحصاد.

قال: يا معشر الشباب إن الزرع قد تدركه العاهة قبل أن يبلغ.[١].

واجتهد **أبوموسى الأشعرى** قبل موته اجتهاداً شديداً فقيل له: لو أمسكت ورفقت بنفسك؟ قال: إن الخيل إذا أُرسلت فقاربت رأس مجراها، أخرجت جميع ما عندها، والذي بقي من أجلي أقل من ذلك.

ومـــا المـــرء إلا راكـــبٌ ظهـــر عمـــره
على سفـــرٍ يطـــويـــه بـــاليـــوم والشهـــر
يبيـــت ويضحـــى كـــل يـــوم وليلـــة
بعيـــداً عـــن الـــدنيـــا قـــريبـــاً مـــن القبر

عن **أنس بن عياض** قال: رأيت **صفوان بن سليم** ولو قيل له: غداً يوم القيامة.. ما كان عنده مزيد على ماهو عليه من العبادة.[٢].

---

(١) الزهد للبيهقي ص ٢٠١.
(٢) السير ٥/٣٦٦.

وقيل لحامد اللفاف: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت اشتهي عافية يوم إلى الليل، فقيل له: ألست في عافية في كل الأيام؟ فقال: العافية يومٌ لا أعصي الله تعالى فيه[١].

أخي المسلم:

إن وقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة معيشته الضنك في العذاب الأليم، وهو يمر مر السحاب، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوباً من حياته وإن عاش فيه عيش البهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة، وكان خير ماقطعه به النوم والبطالة، فموت هذا خير له من حياته[٢].

قال رجل من أهل داود الطائي: قلت له يوماً: يا أبا سليمان قد عرفت الرحم بيننا فأوصني؟ قال: فدمعت عيناه، ثم قال لي: يا أخي إنما الليل والنهار مراحل تنزل بالناس مرحلة مرحلة، حتي تنتهي بهم ذلك إلى آخر سفرهم فإن استطعت أن تقدم في كل ليل يوم مرحلة زاداً لما بين يديه فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب ماهو والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك وأقض ما أنت قاض من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغتك، إني لأقول ذلك وما أعلم أحداً أشد تضييعاً مني لذلك، ثم قام[٣].

هـــاذي منـــازل أقـــوام عهـــدتهـــم
في رغـــد عيـــش رغيـــب مـــالـــه خطـــر

---

(١) الإحياء ٢/ ٢٥١.
(٢) الجواب الكافي ص ١٨٤.
(٣) حلية الأولياء ٧/ ٣٤٥ ـ صفة الصفوة ٣/ ١٣٨.

صـــاحـــت بهـــم نـــائبـــات الـــدهـــر فـــانقلبـــوا
إلي القبـــــــور فـــــــلا عينٌ ولا أثـــــــر[١]

قال يحيى بن معاذ: لست أبكي على نفسي إن ماتت، إنما أبكي على حاجتي إن فاتت[٢].

وكيف لا تفوت حاجته والأيام والليالي مطايا تسير به وإن لم يسر وتطوى به مراحل العمر وإن لم يترك مكانه..

ومـــاهـــذه الأيـــام إلا مـــراحـــل
يحـــثّ بهـــا داع إلى المـــوت قـــاصـــد
وأعجـــب شيءٍ لـــو تـــأملـــت أنهـــا
منـــازل تطـــوى والمســـافـــر قـــاعـــد[٣]

قال بلال بن سعد: عباد الله، اعلموا أنكم تعملون في أيام قصار لأيام طوال وفي دار زوال لدار مُقام، وفي دار نصب وحزن لدار نعيم وخُلد[٤].

لعمـــــرك مـــــا الأيـــــام إلا مُعـــــارةٌ
فمـــا استطعـــت مـــن معـــروفهـــا فتـــزود[٥]

ولأن أيام التزود قليلة ورحلة الدنيا قصيرة فإن المغبون من أضحى يومه

---

(١) الزهد للبيهقي ص ٢٥٧.
(٢) السير ١٣/ ١٥.
(٣) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٤.
(٤) صفة الصفوة ٤/ ٢١٩.
(٥) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ص ١١.

في نقصان ومر عمره في خسران كما قال **أبو سليمان الداراني**: من كان يومه مثل أمسه فهو في نقصان[١].

لأن كل يوم يزول يدني من الموت.. فيجب أن يحرص المسلم على يومه ويسرع الخطى فيما بقي من أجله.

فيا أخي:

فقدنا من هم في أعمارنا منذ أعوام.. أُمهلنا هذه السنوات.. ماذا قدمنا فيها وماذا جمعنا فيها؟.. إنها أعمار تجري ولحظات تسير.. وسنتوقف لحظة عن الدنيا ونبدأ بمغادرتها والرحيل منها.. يبقى ماذا قدمنا لدارنا الآخرة؟ وكيف استفدنا من أيامنا؟ وهي أيام ثلاثة كما قال عنها **السري بن المفلس**: أمس أجل واليوم عمل وغداً أمل[٢] من كانت أيامه ثلاثة: أمس لا يدري ما رفع من عمله.. ما تقبل منه وما رُدّ.. ويومٌ هو سارحٌ فيه لا يعلم هل يتمه أم يوسده قبر في آخره.. أما غداً فأمل ربما لا يرى شعاع شمسه ولاضوء نهاره..

وكان **يزيد الرقاشي** يقول لنفسه: ويحك يا يزيد.. من ذا الذي يصلي عنك بعد الموت؟ من ذا الذي يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا الذي يُرضي ربك بعد الموت؟ ثم يقول: أيها الناس، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟. ويامن الموت موعده والقبر بيته، والثرى فراشه والدود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف تكون حاله؟[٣].

---

(١) صفة الصفوة ٤/ ٢٣٠.
(٢) صفة الصفوة ٢/ ٣٨٣.
(٣) العاقبة ص ٤٠.

أخي الحبيب..

نسير إلى الآجـــــال في كـــــل لحظـــــةٍ
وأيـــامنـــا تطـــوى وهـــنَّ مـــراحـــل
ولم أر مثـــل المـــوت حقّـــاً كـــأنـــه
إذا مـــا تخطتـــه الأمـــاني بـــاطـــل
ومـــا أقبـــح التفـــريـــط في زمـــن الصبـــا
فكيـــف بـــه والشيـــب للـــرأس شـــاعـــل

أخـي..

تـــرحـــل مـــن الـــدنيـــا بـــزاد مـــن التقـــى
فعمـــــرك أيـــــام وهـــــنَّ قـــــلائـــــل[1]

لنرى حال **عامر بن قيس** وهو ينادي: من أُقرىء، فيأتيه ناس، فيقرئهم القرآن، ثم يقوم فيصلي إلى الظهر، ثم يصلي إلى العصر، ثم يقرىء الناس إلى المغرب، ثم يصلي ما بين العشاء، ثم ينصرف إلى منزله، فيأكل رغيفاً وينام نومة خفيفة. ثم يقوم لصلاته ثم يتسحر رغيفاً ويخرج..[2].

أما أوقاتنا الضائعة وأيامنا التائهة التي تمر دون فائدة.. نتوانى عن العمل الصالح فيها ونقصر عن الاستفادة منها.. بل ولا نتأسف على ضياعها ولا نغتم بمضيها وزوالها.

بل ربما نفرح بانقضائها ونبحث عما نُقطِّع به أوقاتنا ونسلي به ساعاتنا.. **حالنا كحال من لا يعرف ثمن وقته ولا جوهر زمنه**.. أما من

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٤.
(٢) السير ٤/ ١٥.

سبقنا فقد وضعوا للأمر موازينه وللرحيل عدته . .

هذا **إبراهيم بن أدهم** يأخذنا إلى بعض إخوانه عندما عاده في مرضه . . فجعل يتنفس ويتأسف، فقال له إبراهيم بن أدهم: على ماذا تتنفس وتتأسف؟ فقال: ما تأسفي على البقاء في الدنيا، ولكن تأسفي على ليلةٍ نمتها، ويوم أفطرته، وساعةٌ غفلت فيها عن ذكر الله تعالى.

وقيل **لأبي مسلم الخولاني** حين كبر ورقَّ: لو قصرت عن بعض ما تصنع، فقال: أرأيتم لو أرسلتم الخيل في الحلبة، ألستم تقولون لفارسها: دعها وارفق بها حتى إذا رأيتم الغاية لم تستبقوا منها شيئاً؟ وغاية كل ساعة الموت فسابق ومسبوق[1].

ما أكثر الذين يأخذون من التسويف شعاراً لهم، يمكنونه من قلوبهم، حتى تقطعت آمال وانقطعت آجال. . فإن يوم العاجزين غَدٌ، وصاحب الهمة لا يعرف يوم العاجزين، لأن الحقوق مرتبطة بزمانها والواجبات أكثر من الأوقات، والتسويف تفويت لحق لزمه، وتضييع لواجب غده.

اعلم أن من له أخوان غائبان، وينتظر قدوم أحدهما في غدٍ، وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة، وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غداً، فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار، فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل بالمدة ونسي ما وراء المدة. ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها لا ينقص منها اليوم الذي مضى، وذلك

---

(١) صفة الصفوة ٤/٢٠٩.

يمنعه من مبادرة العمل أبداً فإنه أبداً يرى لنفسه متسعاً في تلك السنة فيؤخر العمل[١].

أخي الحبيب.. صوت ينادي..

هذا **أبو كريمة العبدي** يقول: «ابن آدم ليس لما بقي من عُمرك ثَمن»[٢].

وأي ثمن لعمر الإنسان.. لو أنفق جميع ما يملك من أموال الدنيا بثمن لحظة واحدة لما أُجيب إلى ذلك.. أكد على ذلك السري السقطي بقوله.. إذا فاتني جزء من وردي لا يمكنني أن أقضيه أبدا[٣].

وإضاعة الوقت كما يراها **الإمام ابن الجوزي** بقوله: «رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعاً عجيباً.. إن طال الليل فبحديث لا ينفع، أو بقراءة كتاب فيه غزاة وسمر، وإن طال النهار فبالنوم، وهم في أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق.. فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة.. وهي تجري بهم، وما عندهم خبر، ورأيت النادرين قد فهموا معنى الوجود، فهم في تعبئة الزاد والتأهب للرحيل.. إلا أنهم يتفاوتون، وسبب تفاوتهم قلة العلم بما ينفق في بلد الإقامة، فالمتيقظون منهم يتطلعون إلى الإخبار بالنافع هناك، فيستكثرون منه، فيزيد ربحهم.. والغافلون منهم يحملون ما اتفق.. وربما خرجوا لامع خفير..

فكم ممن قطعت عليه الطريق فبقي مفلساً، فالله العلم في مواسم العمل والبدار البدار قبل الفوات..

---

(١) سوانح وتأملات ص ٤٦.
(٢) صفة الصفوة ٤/ ٢٣٥.
(٣) صفة الصفوة ٢/ ٣٧٨.

واستشهدوا العلم، واستدلوا الحكمة، ونافسوا الزمان، وناقشوا النفوس، واستظهروا بالزاد، فكأن قد حدا الحادي فلم يفهم صوته من واقع الندم»[١].

ليكن شعارنا العمل وعدونا التسويف..

لنكن مثل قول القائل..

بقيـــة العُمـــر عنـــدي مـــالهـــا ثمـــنٌ
وإن غـــداً ليـــس محســـوبـــاً مـــن الـــزمـــن
يستـــدرك المـــرء فيهـــا كـــل فـــائتـــه
مـــن الـــزمـــان ويمحـــو الســـوء بـــالحســـن

ونحن قد توسدنا الغفلة والتحفنا التسويف.. لنَهُبَّ من تلك الغفوة ونستيقظ من ذلك السبات..

لنستمع لوصية **محمد بن يوسف** ونطبقها ولو ليوم واحد في حياتنا!! بل لساعات من أيامنا!!

أوصى بقوله: إن استطعت أن لا يكون شيء أهم إليك من ساعتك فاعمل..

أخي الحبيب..

لا تغرك الصحة والقوة والشباب.. ولا تسير في ركب الحياة لاهياً ساهياً..

وتنسى وقفة الموت!! كم من صحيح سليم معافى سمعنا نعيه.. وكم من مريض سقيم طال أجله.. كم في القبور من الشباب والأطفال والرضع..

---

(١) صيد الخاطر ص ١٩٨.

لا تغتر بشبـــاب نـــاعـــم خظـــل
فكـــم تقـــدم قبـــل الشيـــب شُبـــان[١]

نتشبث بهذه الدنيا ونتمسك بها.. لا نغادرها إلا مكلومين ولا نتركها إلا مُجبرين..

وقد دخل أناس على بعض الصالحين فقلبوا بصرهم في بيته فقالوا: إنا نرى بيتك بيت رجل مرتحل، فقال: لا أرتحل ولكن أطرد طرداً[٢].

ودخل رجل على أبي ذرّ فقال: يا أباذرٌ أين متاعكم؟ فقال: إن لنا بيتاً نتوجه إليه، فقال: إنه لابد لك من متاع مادمت هاهنا، فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا هاهنا[٣]..

في زمن تكالبت فيه المادة.. وتوسع الناس في الملهيات.. إضاعة للأوقات وتهاون عن الطاعات.. فرطنا في الكثير.. وما أبقينا إلا القليل..

كل امرىء يجري من عمره إلى غاية تنتهي إليها مدة أجله، وتنطوي عليها صحيفة عمله، فخذ من نفسك لنفسك، وقس يومك بأمسك، وكف عن سيئاتك، وزد في حسناتك قبل أن تستوي مدة الأجل وتقصر عن الزيادة في السعي والعمل[٤].

لنسمع **الثوري** وهو يحدثنا قال: رأيت شيخاً في مسجد الكوفة يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة انتظر الموت أن ينزل بي، ولو أتاني ما أمرته

---

(١) موارد الظمآن ٢/ ٢١.
(٢) جامع العلوم ص ٤٦٠.
(٣) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٠.
(٤) أدب الدنيا والدين ص ١٢٣.

بشيء ولا نهيته عن شيء، ولا لي على أحد شيء ولا لأحدٍ عليَّ شيء..

إذا كنـــت أعلـــم علمـــاً يقينـــا
بـــأن جميـــع حيـــاتي كســـاعـــة
فلـــم لا أكـــون ضنينـــاً بهـــا
واجعلهـــا في صـــلاحٍ وطـــاعـــة[1]

قال رجل لحاتم الأصم: ما تشتهي؟ قال: أشتهي عافية يوم إلى الليل، فقيل له: أليست الأيام كلها عافية؟

قال: إن عافية يومي أن لا أعصي الله فيه[2].

وهذا من صلاح قلوبهم فإن من عرف الله لقيه سالماً، والويل كل الويل لمن ذهب عمره في الدنيا باطلا.

أخي الحبيب: أين نحن من هؤلاء؟

لنتوقف لحظات معدودة ونقلب صحفة يوم أمس.. كيف أمضيناه؟ ماذا عملنا فيه؟

هذه أعمارنا.. وتلك أيامنا..

إن كانت الأوقات ضائعة والنفوس ضعيفة.. فالعودة من قريب..

وإن كانت الأيام مرصعة بتاج الطاعة والأعمال الصالحة.. فطوبى ثم طوبى.. رزقنا الله مما رزقك وأعاننا على طاعته..

تمـــر الليـــالي والحـــوادث تنقضي
كـــأضغـــاث أحـــلام ونحـــن رقـــود

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ١٣٢.
(٢) صفة الصفوة ٤/ ١٦٢.

وأعجب من ذا أنها كل ساعة
تجد بنا سيراً ونحن قعود[١]

عن ابن مسعود أنه كان يقول: إنكم في ممر من الليل والنهار، في آجال منقوصة وأعمالٍ محفوظة، والموت يأتي بغتة، فمن زرع خيراً فيوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شراً فيوشك أن يزرع ندامة، ولكل ذراعٍ مازرع[٢].

أخي الحبيب:

ماذا تزرع اليوم.. فهنا بذرك وغداً حصادك!! فانظر ما تزرع وما تحصد!!

قيل **للحسن**: هاهنا رجل لم نره جالساً إلى أحد، إنما هو أبداً خلف سارية وحده، فقال الحسن: إذا رأيتموه فأخبروني به، قال فمر به ذات يوم ومعهم الحسن، فأشاروا إليه فقالوا: ذاك الرجل الذي أخبرناك، فقال: امضوا حتى آتيه، فلما جاءوه، قال: يا عبدالله: أراك قد حُببت إليك العزلة. فما يمنعك من مخالطة الناس؟

قال: ما أشغلني عن الناس، قال: فيأتي هذا الرجل الذي يقال له الحسن فتجلس إليه، قال: ماأشغلني عن الحسن وعن الناس، قال له الحسن: فما الذي شغلك يرحمك الله عن الناس وعن الحسن؟ قال: إني أمسي وأصبح بين ذنب ونعمة، فرأيت أن أشغل نفسي عن الناس بالاستغفار للذنب والشكر لله على النعمة، فقال له الحسن: أنت يا عبدالله أفقه عندي من الحسن، الزم ما أنت عليه[٣].

---

(١) شذرات الذهب ٨/ ١٣٧.
(٢) صفة الصفوة ١/ ٤٠٩، والفوائد ص ٤٠٩.
(٣) صفة الصفوة ٤/ ١٤.

وندم **يحيى بن معاذ** فقال. . لست أبكي على نفسي إن ماتت إنما أبكي على حاجتي إن فاتت[١].

وماهي حاجته؟. . صلاة وصيام. . طاعة وعبادة. . ونحن نبكي على أنفسنا وعلى حاجتنا. . ولا نزال.

نـــروح ونغـــدو لحـــاجـــاتنـــا
وحـــاجـــة مـــن عـــاش لا تنقضي
تمـــوت مـــع المـــرء حـــاجـــاتـــه
وتبقـــى لـــه حـــاجـــة مـــا بقـــي[٢]

تمر بنا ساعات طويلة لا نذكر الله فيها ولا نسبحه ولا نكبره ولا نستغفره. . لننظر إلى العابد **معروف الكرخي**. . فقد قص إنسانٌ شارب **معروف الكرخي**. . فلم يفتر من الذكر فقال: كيف أقص؟ قال: أنت تعمل وأنا أعمل[٣].

من أعظم الأشياء ضرراً على العبد بطالته وفراغه، فإن النفس لا تقعد فارغة، بل إن لم يُشغلها بما ينفعها، شغلته بما يضره ولابد[٤].

لقـــد هـــاج الفـــراغ عليـــك شغـــلاً
وأسبـــاب البـــلاء مـــن الفـــراغ

قال **أبو بكر الكتاني**: كان رجل يحاسب نفسه، فحسب يوماً سنيه فوجدها ستين سنة، فحسب أيامها فوجدها واحداً وعشرين ألف يوم

---

(١) السير ١٣/ ١٥.
(٢) أدب الدنيا والدين ص ٥٣.
(٣) السير ٩/ ١٤١.
(٤) طريق الهجرتين ص ٢٧٠.

وخمسمائة يوم، فصرخ صرخة وخر مغشياً عليه، فلما أفاق، قال: ياويلتاه، أنا آتي ربي بواحد وعشرين ألف وخمسمائة ذنب؟!

يقول: هذا لو كان ذنب واحد في كل يوم؟ فكيف بذنوب كثيرة لا تحصى.

ثم قال: آه عليَّ عمرتُ دنياي وخربت أخراي، وعصيت مولاي، ثم لا أشتهي النقلة من العمران إلى الخراب؟ وكيف أشتهي النقلة إلى دار الكتاب والحساب والعتاب والعذاب بلا عمل ولا ثواب.. وأنشد:

منـــــازل دنيـــــاك شيـــــدتهـــــا
وخـــــربـــــت دارك في الآخـــــرة
أصبحـــــت تكـــــرههـــــا للخـــــراب
وتـــــرغـــــب في دارك العـــــامـــــرة[1]

أخي.. أين نحن من هؤلاء..؟!

قال **ابن السماك**: أوصاني أخي داود الطائي بوصية: انظر لا يراك الله حيث نهاك وأن لا يفقدك من حيث أمرك، واستحيه في قربه وقدرته عليك[2].

---

(١) العاقبة ص ٣١.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ١٤٢.

خصائص الوقت

للوقت خصائص يتميز بها، يجب علينا أن ندركها حق إدراكها، وأن نتعامل معه على ضوئها منها:

١ ـ سرعة انقضائه..

فهو يمر مر السحاب، ويجري جري الريح، سواء كان زمن مسرة وفرح، أم كان زمن اكتئاب وترح، وإن كانت أيام السرور تمر أسرع، وأيام الهموم تسير ببطء وتثاقل، لا في الحقيقة ولكن في شعور صاحبها.

ومهما طال عمر الإنسان في هذه الدنيا فهو قصير، مادام الموت هو نهاية كل حي.

إذا كان آخر العمر موتاً
فسواء قصيرة والطويل

وعند الموت تنكمش الأعوام والعقود التي عاشها الإنسان، حتى لكأنها لحظات مرت كالبرق الخاطف.

٢ ـ إن ما مضى منه لا يعود ولا يُعوض..

وهذه خصيصة أخرى من خصائص الوقت، فكل يوم يمضي، وكل ساعة تنقضي، وكل لحظة تمر، ليس في الإمكان استعادتها، وبالتالي لا يمكن تعويضها، وهذا ما عبر عنه الحسن البصري بقوله البليغ: مامن يوم ينشق فجرَه إلا وينادي: ياابن آدم.. أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني، فإني إذا مضيت لا أعود إلى يوم القيامة.

٣ ـ إنه أنفس ما يملك الإنسان.

لما كان الوقت سريع الانقضاء، وكان مامضى منه لا يرجع، ولا يعوض بشيء كان الوقت أنفس وأثمن ما يملك الإنسان، وترجع نفاسة الوقت إلى أنه وعاءٌ لكل عملٍ وكل نتاج، فهو في الواقع رأس المال الحقيقي للإنسان فرداً أو مجتمعاً.

إن الوقت ليس من ذهب فقط كما يقول المثل الشائع، بل هو أغلى في حقيقة الأمر من الذهب واللؤلؤ والماس، ومن كل جوهر نفيس، وحجر كريم[١].

مامضى من الأعمار ماقيمته وأهميته لننظر في ذلك بعين المحاسب والناقد لنفسه..

قال **الحجاج بن أبي عيينة**: كان جابر بن زيد يأتينا في مصلانا، فأتانا ذات يوم عليه نعلان خلقان، فقال: مضى من عمري ستون سنة، نعلاي هاتان أحب إليَّ مما مضى. إلا يك خيراً قدمته[٢].

يـــانفـــس كفـــي عـــن العصيـــان واكتسبـــي
فعـــلاً جميـــلاً لعـــل الله يـــرحمنـــي[٣]

أخي الحبيب:

لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمرٌ، وله عليه فيه نهيٌ، وله فيه

---

(١) الوقت للقرضاوي باختصار ص١٠ ـ ١١.
(٢) حلية الأولياء ٣٠/ ٨٨.
(٣) موارد الظمآن ٣/ ٤٩٣.

نعمة، وله به منفعة ولذة، فإن قدم لله في ذلك العضو بأمره واجتنب فيه نهيه فقد أدى شكر نعمته عليه فيه وسعى في تكميل انتفاعه ولذته به، وإن عطل أمر الله ونهيه فيه عطله الله من انتفاعه بذلك العضو وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته.

وله عليه في كل وقت من أوقاته عبودية تقدمه إليه وتقربه منه، فإن شغل وقته بعبودية الوقت تقدم إلى ربه، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة تأخر، فالعبد لا يزال في تقدم أو تأخر ولا وقوف في الطريق ألبتة، قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾ [المدثر: ٣٧][1].

كان **عبدالله بن وهب** قد قسم دهره أثلاثاً، ثلثاً في الرباط، وثلثاً يعلم الناس وثلثاً في الحج[2].

هذا **حماد بن سلمة** يحدثنا عمن حفظ وقته واستثمار ساعته في طاعة الله.. قال عن **سليمان التيمي**: ما أتيناه في ساعة يطاع الله عز وجل فيها إلا وجدناه مطيعاً، فإن كان في ساعة صلاة وجدناه مصلياً، فإن لم تكن ساعة صلاة وجدناه إما متوضئاً أو عائداً مريضاً أو مشيعاً لجنازة أو قاعداً يسبح في المسجد، فكنا نرى أنه لا يحسن أن يعصي الله[3].

أخي الكريم:

إن إضاعة الوقت أشد من الموت لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله

---

(١) الفوائد ص ٢٤٩.
(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٠٥.
(٣) صفة الصفوة ٣/ ٢٩٧.

والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها[١].

ولذا يجب على المسلم أن يحاسب نفسه في كل دقيقة ويأخذ بنصيب من قول مسروق: إن المرء لحقيق أن يكون له مجالس يخلو فيها فيذكر فيها ذنوبه فيستغفر منها[٢].

أخي الحبيب:

حالنا اليوم حال من اشتكى أمره إلى الحسن فقال: سبقنا القوم على خيلٍ دهم ونحن على حمر معقرة فقال: إن كنت على طريقهم فما أسرع اللحاق بهم[٣].

قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا﴾ [فاطر: ٣٧] لم يجدوا للسؤال جوابا..

فقد قطع الله الأعذار، حيث أعطى كل مكلف من العمر ما يتسع لعمل ما كلف به، ويذكره إذا غفل عنه، وبخاصة من عاش من العمر سنوات طويلة ففي هذا القدر من السنين ما يكفي لأن ينتبه الغافل، ويؤوب الشارد، ويتوب العاصي..

مامضى من الدنيا أحلام.. كنائم رأى مسيرة حياته في لمح بصر ثم استيقظ.. ذهبت الأيام بآلامها وآمالها وأحلامها.. بشدتها وقسوتها.. ولكن بقي الحساب.

قال بلال بن سعد رحمه الله: يقال لأحدنا: تريد أن تموت؟ فيقول: لا،

---

(١) الفوائد ص ٤٥.
(٢) الزهد للإمام أحمد ص ٤٨٥.
(٣) الفوائد ص ٥٧.

فيقال له: لِـمَ؟ فيقول: حتى أتوب وأعمل صالحاً، فيقال: اعمل فيقول سوف أعمل، فلا يُحب أن يموت ولا يحب أن يعمل، فيؤخر عمل الله تعالى ولا يؤخر عمل الدنيا[١].

أخي الحبيب:

دعوة إلى العودة وإلى التوبة.. ولنسمع عن هذه الغنيمة قال **أحمد بن عاصم الأنطاكي**: هذه غنيمة باردة، أصلح ما بقي من عمرك يُغفر لك ما مضى..[٢].

إذا كنـــــت أعلـــــم يقينـــــاً
بـــأن جميـــع حيـــاتي كســـاعـــة
فلـــم لا أكـــون ضنينـــاً بهـــا
وأجعلهـــا في صـــلاح وطـــاعـــة[٣]

أخي المسلم..

رأس مالك في هذه الدنيا دقائق وأيام.. ماذا قدمت في هذه الأوقات وماذا سجلت في تلك الصحائف.. هل تسرُك إذا نظرت فيها يوم القيامة أم تسؤوك.

لا تلهك الأماني فإن لحظات مرت لن تعود.. وساعات مضت لن ترجع..

---

(١) العاقبة ص ٩١.
(٢) الزهد للبيهقي ص ١٩٩.
(٣) تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٨٢.

جعلني الله وإياك ممن طال عمره وحسن عمله. . قد أعد للسؤال جواباً وللجواب صواباً. . وختم لنا بجنات عرضها السموات والأرض. . ممن ينادون في ذلك اليوم العظيم ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: ٤٩].

المصادر

١ ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ـ دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٦هـ.
٢ ـ أدب الدنيا والدين للماوردي، دار الكتب العلمية.
٣ ـ إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد، عبدالعزيز السلمان، ط١، ١٤٠٦هـ.
٤ ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير مطبعة المتوسط.
٥ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية.
٦ ـ تذكرة الحفاظ، للذهبي، دار إحياء التراث.
٧ ـ جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط٥، ١٤٠٠هـ.
٨ ـ الجواب الكافي، ابن قيم الجوزية ـ تحقيق أبي حذيفة دار الكتاب العربي ط، ١٤٠٧هـ.
٩ ـ حاشية ثلاثة الأصول، للشيخ عبدالرحمن بن محمد بن قاسم.
١٠ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.
١١ ـ ديوان الإمام علي، جمعه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ.
١٢ ـ ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت ١٤٠٠هـ.
١٣ ـ ديوان الشافعي ـ دار الجيل ـ بيروت ط٣، ١٣٩٢هـ.
١٤ ـ كتاب الزهد الكبير للإمام المحدث أحمد بن حسين البيهقي تحقيق د. تقي الدين الندوي، دار العلوم ط١٤٠٣هـ.

١٥ ـ الزهد للحسن البصري تحقيق د. محمد عبدالرحيم محمد، دار الحديث.

١٦ ـ كتاب الزهد للإمام أبي عبدالله أحمد بن حنبل، دراسة وتحقيق محمد السعيد بسيوني، دار الكتاب العربي ط١، ١٤٠٦هـ.

١٧ ـ سوانح وتأملات في قيمة الزمن، خلدون الأحدب، دار الوفاء ط٣ ١٤١٠هـ.

١٨ ـ سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي تحقيق شعيب الأرناؤوط ـ حسين الأسد، مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ.

١٩ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

٢٠ ـ شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور للحافظ جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية ط ١٤٠٤هـ.

٢١ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس، دار المعرفة ١٤٠٥هـ.

٢٢ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي، دار الكتاب العربي ط٢، ١٤٠٧هـ.

٢٣ ـ طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية ودار المعرفة، بيروت.

٢٤ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين للإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب، دار الكتاب العربي.

٢٥ ـ العاقبة في ذكر الموت والآخرة، الإمام أبي محمد عبدالحق الأشبيلي، تحقيق الشيخ خضر محمد خضر مكتبة دار الأقصى ط١، ١٤٠٦هـ.

٢٦ـ الفوائد لابن قيم الجوزية، دار النفائس.

٢٧ ـ في ظلال القرآن سيد قطب ط١٤٠٠هـ دار الشروق.

٢٨ ـ مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا، حققه ونشره جميرا. بلمي، مكتبة ابن تيمية.
٢٩ ـ مكاشفة القلوب لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط١، ١٤٠٣هـ.
٣٠ ـ موارد الظمآن لدروس الزمان، عبدالعزيز السلمان، ط١٣، ١٤٠٣هـ.
٣١ ـ الوقت في حياة المسلم، د يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط٣١، ١٤٠٥هـ.

* * *

أحصاه الله ونسوه

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، **وبعد:**

أقدم للقاريء الكريم الجزء السادس من سلسلة «أين نحن من هؤلاء:!» تحت عنوان: «أحصاه الله ونسوه» الذي يتحدث عن آفات اللسان ومزالقه.

وقد بدأت بمداخل عن اللسان وعظم أمره، ثم آفة الغيبة وأتبعتها النميمة والكذب والاستهزاء.

وهي أمراض خبيثةٌ تسري في جسد الأمة فتحصد الحسنات وتجلب السيئات وتضيع الأوقات.. بزلة واحدة تهدم الأسر وتفرق الأحبة وتقطع الأرحام، وبكلمة واحدة ربما يهوى بها صاحبها في النار سبعين خريفاً.

وقد ساعد على تفشي هذه الآفات في المجتمع قلة الوازع الديني وتيسير أسباب المعيشة وكثرة أوقات الفراغ، كما أن لسهولة الاتصالات الهاتفية سهمٌ في ذلك.

حفظ الله ألسنتنا ونزَّه أسماعنا عن كل ما يعيب.

وجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

مدخل

إن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جرمه، عظيم طاعته وجُرمه، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان[١].

فهذا المخلوق الصغير يُعبر الإنسان عن بُغيته ويفصح عن مشاعره، به يطلب حاجته ويدافع عن نفسه ويعبر عن مكنون فؤاده، يحادث جليسه ويآنس رفيقه.. به السقطة والدنو وبه تظهر الهمة والعلو.

واللسان: رحب الميدان ليس له مرد، ولا لمجاله منتهى وحدّ، له في الخير مجال رحب وله في الشر ذيل سحب، فمن أطلقه عذبه اللسان وأهمله مُرخى العنان سلك به الشيطان في كل ميدان وساقه إلى شفاء جرف هار إلى أن يضطره إلى دار البوار، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله.

وعِلمُ ما يحمد فيه إطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان، فإنه لا تعب في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصائده وحبائله، وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان[٢].

---

(١) الإحياء ٣/ ١١٧.

(٢) الإحياء ٣/ ١١٧.

إذا تُرك له العنان يصول ويجول.. يتحدث عن فلان ويغتاب فلان.. يستهزىء بهذا ويشتم هذا.

وقلةٌ هم الذين أمسكوا بعنان ألسنتهم ووقفوا به عن مالا يعنيهم.

فحد الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكلام لو سَكَتَّ عنه لم تأثم ولم تستضر به في حال ولا مال.

وينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام: إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة، فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد يَنجرُّ الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، وذلك كثير في العادة، والسلامة لا يَعْدِلُها شيء[١].

وفي اللسان آفتان عظيمتان: إن خلص من أحدهما لم يخلص من الأخرى: **آفة الكلام وآفة السكوت**.

وقد يكون كل منهما أعظم من الأخرى في وقتها، **فالساكت** عن الحق شيطان أخرس، عاص لله، مراء مداهن إذا لم يخف على نفسه، **والمتكلم** بالباطل شيطان ناطق عاص لله، وأكثر الخلق مُنحرف في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين، وأهل الوسط ـ وهم أهل الصراط المستقيم ـ كفوا ألسنتهم عن الباطل وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة، فلا ترى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعه، فضلاً عن أن تضره في آخرته، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به[٢].

---

(١) رياض الصالحين ص ٤١٤.

(٢) الجواب الكافي ص ١٧٣.

وكثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان، وإيذاء الخلق وهتك العورات، فهذه آفات وهي سياقة إلى اللسان لا تثقل عليه ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان. والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ويكفه عما لا يحب. ففي الخوض خطر وفي الصمت سلامة فذلك عظمت فضيلته. هذا مع مافيه من جمع الهمم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة[١].

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية موضحاً حال الكثيرين: ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يُلقي لها بالاً، ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول[٢].

---

(١) الإحياء ٣/ ١٢١.

(٢) الجواب الكافي ص ١٧١.

آفات اللسان

آفات اللسان كثيرة متنوعة، ولها في القلب حلاوة ولها بواعث من الطبع، ولا نجاة من خطرها إلا بالصمت أو التحرز في الكلام.

ومن آفات اللسان ما يلي:

الآفة الأولى:

الكلام فيما لا يعني.. اعلم أن من عرف قدر زمانه، وأنه رأس ماله، لم ينفقه إلا في فائدة، وهذه المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعني، لأن من ترك ذكر الله واشتغل فيما لا يعني كان كمن قدر على أخذ جوهرة، فأخذ عوضها بدرة. وهذا خسران العمر.

الآفة الثانية:

الخوض في الباطل.. وهو الكلام في المعاصي، كذكر مجالس الخمر، ومقامات الفساق، وقريب من ذلك الجدال والمراء، وهو كثرة الملاحاة للشخص لبيان غلطه وإفحامه. والباعث على ذلك الترفع، فينبغي للإنسان أن ينكر المنكر من القول. ويبين الصواب، فإن قُبل منه وإلا ترك المماراة، هذا إذا كان معلقاً بالدين، فإما إن كان في أمور الدنيا فلا وجه للمجادلة فيه.

الآفة الثالثة:

التقعر في الكلام.. وذلك يكون بالتشدق، وتكلف السجع.

الآفة الرابعة:

الفحش والسب والبذاء.

الآفة الخامسة:

المزاح.. أما اليسير فلا ينهى عنه إذا كان صدقاً.

الآفة السادسة:

السخرية والاستهزاء.. ومعنى السخرية الاحتقار والاستهانة، والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه.

الآفة السابعة:

إفشاء السر وإخلاف الوعد والكذب في القول واليمين، وكل ذلك منهي عنه، إلا ما رُخص فيه من الكذب لزوجته وفي الحرب فإن ذلك يباح.

وضابطه: أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا بالكذب، فهو فيه مباح إن كان ذلك المقصود مباحاً، وإن كان المقصود واجباً فهو واجب، فينبغي أن يتحرز عن الكذب مهما أمكن.

الآفة الثامنة:

الغيبة.. وهي ذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه، سواءً كان نقصاً في بدنه أو في نسبه أو في ثوبه[1].

الآفة التاسعة:

النميمة.. وهي إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه..

* وهناك آفات أخرى كثيرة لا يتسع المقام لذكرها.. وقد حذر الله ـ جل وعلا ـ من تلك الآفات وأخبر أنها من الأعمال التي تُحصى على ابن آدم ويحاسب عليها.

قال ـ تعالى ـ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ١٦٥ ومابعدها باختصار.

وقال ـ جلّ وعلا ـ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

ومن الأحاديث ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**» [رواه البخاري ومسلم].

وعنه ﷺ أنه قال: «**من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه**» [رواه الترمذي وابن ماجه].

وحين سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخل النار؟ قال: «**الفم والفرج**» [رواه الترمذي وابن ماجة].

وعندما سأل معاذ بن جبل رسول الله ﷺ عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعده من النار، أخبره النبي ﷺ برأسه وعموده وذروة سنامه، ثم قال: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**» قال: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: «**كف عليك هذا**»، فقال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا معاذ وهل يُكب الناس على وجوههم ـ أو على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم**» [رواه الترمذي].

وأنظر أخي الكريم إلى عظم الأمر وخطورة الكلمة فقد قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يَزِلُّ بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب**» [متفق عليه].

وهذا **أبو بكر** ـ رضي الله عنه ـ آخذاً بطرف لسانه ويقول: «هذا الذي أوردني الموارد»[1] *.

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٢٥٣.

* رواه مالك وقال الشيخ الألباني: إسناده صحيح.

والكلام أسيرك فإذا خرج من فيك صرت أنت أسيره. والله عند لسان كل قائل: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾[١].

وحين سُئل **الحسن** يوماً: كيف أصبحت يا أبا سعيد؟ قال: والله مامن انكسرت به سفينة في لجج البحر بأعظم مني مصيبة.

قيل: ولم ذاك؟ لأني من ذنوبٍ على يقين. ومن طاعتي وقبول عملي على وجل، لا أدري أُقبلت مني أم ضرب بها وجهي.

فقيل له: وأنت تقول ذلك يا أبا سعيد؟ فقال: ولم لا أقول ذلك، ما الذي يؤمنني من أن يكون الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد نظر إليَّ وأنا على بعض هناتي نظرة مقتني بها، فأغلق عني باب التوبة، وحال بيني وبين المغفرة، فأنا أعمل في غير معتمل[٢].

وعن **ابن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ قال: مامن شيء يتكلم به ابن آدم إلا كتب عليه حتى أنينه في مرضه، فلما مرض الإمام أحمد فقيل له: إن طاووساً كان يكره أنين المرض، فتركه[٣].

والكثير الآن لا يُعد الكلام من العمل وما علم أنه يحصى عليه كل لفظ وقول وأنه غداً محاسب على كل كلمة وحديث.

قال **عمر بن عبدالعزيز**: من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه وينفعه[٤].

---

(١) الجواب الكافي ص ١٧٣.
(٢) الحسن البصري لابن الجوزي ص ١٢.
(٣) البداية والنهاية ٩/ ٢٧٢.
(٤) البداوية والنهاية ٩/ ٢٢٥.

وأكد ذلك الإمام **الأوزاعي** بقوله: من أكثر ذكر الموت كفاه اليسير، ومن عرف أن منطقه من عمله قلَّ كلامه[١].

ولكثرة آفات اللسان والتهاون فيها وإطلاق الألسن في كل مكان وحديث.. قال **الحسن بن صالح**: فتشنا الورع فلم نجده في شيء أقل منه في اللسان[٢].

وغالب آفة اللسان أذى للمسلم ونقص في قدره ورمي له بالتحقير والتصغير..

والفضيل بن عياض يقول في ذلك: والله ما يحل لك أن تؤذي كلباً أو خنزيراً بغير حق، فكيف تؤذي مسلماً[٣].

وفي حديث صادق ونصائح غالية هذا **ابن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ يقول: خمسٌ لهن أحب إليّ من الدهم الموقوفة.. لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعنت، ولا تمار حليماً ولا سفيهاً فإن الحليم يقلبك والسفيه يؤذيك، واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تُحب أن يذكرك به، واعفه بما تُحب أن يعفيك منه، وعامل أخاك بما تُحب أن يعاملك به، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالاجترام[٤].

---

(١) السير ٧/ ١١٧.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ١٥٤، وحلية الأولياء ٧/ ٣٢.
(٣) السير ٨/ ٤٢٧.
(٤) الإحياء ٣/ ١٢٢، وأمراض النفوس ص ٣٠.

لعمـــرك مـــا للمـــرء كـــالـــربِّ حـــافـــظٌ
ولا مثـــل عَقْـــلِ المـــرء للمـــرءِ واعـــظٌ
لســـانُـــك لا يُلقيـــكَ في الغَـــيِّ لفظُـــهُ
فـــإنَّـــك مـــأخـــوذ بمـــا أنـــتَ لافـــظٌ[١]

قال **عطاء بن رباح**: إن من كان قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله، أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك التي لابد منها، أتنكرون أنَّ عليكم حافظين، كراماً كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحي أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملى صدر نهاره، وليس فيها شيء من أمر آخرته؟![٢]

* هذه حالهم في ذلك الزمن وهم أهل الطاعة والذكر، مجالسهم خالية من الغيبة والنميمة والكذب والاستهزاء بل كانوا يطرزون مجالسهم بالبكاء والخشوع وإظهار الجزع.. وكان عامة كلامهم مثل كلام أحدهم وهو ابن سيرين.. سبحان الله العظيم. سبحان الله وبحمده.

هذا نموذج لمجالسهم العامرة بالخير،. وزيادة في الحرص كان **عبدالله بن الخيار** يقول في مجلسه: اللهم سلمنا، وسلم المؤمنين منّا[٣].

وكان **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ يقول: من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به[٤].

---

(١) الصمت ص ٣٠٥.
(٢) السير ٥/ ٨٦، والإحياء: ٣/ ١٢٣.
(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ١٣٩.
(٤) جامع العلوم والحكم ص ١٦١.

وللخوف من السقوط في النار . . ومن خوف شدة الحساب غداً .

أخي:

تعهد نفسك في ثلاثة مواضع : إذا عملت فاذكر نظر الله تعالى عليك . وإذا تكلمت فانظر سمع الله إليك ، وإذا سكت فانظر علم الله فيك[١] .

قال **سلمة بن دينار** : ينبغي للمؤمن أن يكون أشد حفظاً للسانه منه لموضع قدمه[٢] .

ولا يكون هذا الحفظ سهلاً إلا بمراقبة الله ـ جل وعلا ـ في كل كلمة تخرج وفي كل حركة تظهر . . والاقتصاد في الكلام من علامات التيقظ والتنبه .

قال **ابن مسعود** : إياكم وفضول الكلام حسب امريء ما بلغ حاجته[٣] .

وحتى فضول الكلام الذي هو دون الضرر فإنه حسرات يوم القيامة لأن أزمنةً تضيع في ما لافائدة فيه حسرة وندامة . .

قال **بعض السلف** . . يُعرض على ابن آدم يوم القيامة ساعات عمره ، فكل ساعة لم يذكر الله فيها تتقطع نفسه عليها حسرات . .

من هنا يُعلم أن ماليس بخير من الكلام فالسكوت عنه أفضل من التكلم به ، اللهم إلا ما تدعو إليه الحاجة مما لابُد منه[٤] .

ومـــــا أدري وإن أملـــــتُ عمـــــراً
لعلي حين أصبـــــح لســـــت أُمسي

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٧٥ .
(٢) صفة الصفوة ٢/ ٥٧ .
(٣) جامع العلوم والحكم ص ١٦١ .
(٤) جامع العلوم والحكم ص ١٦١ .

ألم تـــــر أن كـــــل صبـــــاح يـــــوم
وعمـــــرك فيـــــه أقصر منـــــه أمـــــس[١]

قال **ابن عباس**ـ رضي الله عنهما ـ: يالسان قل خيراً تغنم، أو اسكت عن شرٍّ تسلم[٢].

فإن العبد لا يبلغ حقيقة الإيمان حتى يحل بذروته، ولا يحل بذروته حتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى، والتواضع أحب إليه من الشرف، وحتى يكون حامده وذامه عنده سواء، وإن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه فيرجع وما معه من شيء، يأتي الرجل ولا يملك له ولا لنفسه ضرًّا ولا نفعاً، فيقسم له بالله إنك لذيت ولذيت، فيرجع وما جُنيَ من حاجته بشيء ويسخط الله عليه[٣].

فهذا الرجل عاد وقد أسخط الله جل وعلا بسبب لسانه الذي لم يتحفظ منه بل أطلقه بالأيمان الكاذبة.. هذا موقف واحد.. أما من تربع في مجلس ساعات طوال لم يسلم المسلمون من لسانه غيبة ونميمة وإفشاء سر وإشاعة فاحشة فإنَّ ذلك محاسبٌ عليه.. لا يرى عيباً إلا أشاعه ولا يسمع حديثاً إلا تكلم به.

قال **عبدالله بن مسعود**: كفى بالمرء إثماً، أن يحدث بكل ماسمع[٤]*.

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٦.
(٢) كتاب الصمت ص ٦٦.
(٣) الفوائد ص ١٩٣.
(٤) تذكرة الحفاظ ص ٣.

* روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «**كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع**».

أخي الكريم:

ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال لتكون من المحسنين:

أحدهما: إنك إن لم تنفعه فلا تضره.

والثانية: إنك إن لم تسره، فلا تغمه.

والثالثة: إن لم تمدحه، فلا تذمه[١].

فإن أكثر الناس خطايا أفرغهم لذكر خطايا الناس كما قال ذلك محمد بن سيرين[٢].

فإن عبت قوماً بالذي فيك مِثلُهُ
فكيف يعيبُ النَّاسَ مَنْ هو أعورُ
وإن عبت قوماً بالذي ليس فيهم
فذلك عند الله والناس أكبرُ[٣]

إن اتباع الهوى وطول الأمل مادة كل فساد، فإن اتباع الهوى يُعمي عن الحق معرفةً وقصداً، وطول الأمل يُنسي الآخرة، ويصد عن الاستعداد لها[٤].

فمن طال أمله قَلَّ عمله ومن نسي الآخرة لم يُحاسب نفسه..

مجالسنا الطويلة بماذا نعمرها وبأي أمر نُجمِّلها وهي مجالس طويلة بعضها يمتد لساعات طوال..

قال **الزهري**: إذا طال المجلس كان للشيطان فيه نصيب[٥]. وإذا لم تكن

---

(١) تنبيهح الغافلين ١/ ١٧٨.
(٢) كتاب الصمت ص ١٠٤.
(٣) منهاج القاصدين ص ١٨٧.
(٤) الفوائد ص ١٣٠.
(٥) الإحياء ٣/ ٣٦٦.

مجالس خير وذكر فإن الشيطان يحرك الألسن ويشفي الصدور.. وقد ينزل إلى شهوات البطن والفرج، وقد قال **الأحنف بن قيس** يحكي صفات الرجولة الحقة: جنبوا مجالسنا ذكر النساء والطعام، إني أُبغض الرجل يكون وصافاً لفرجه وبطنه[١].

ولو خطر في بال أحدنا أن يُسجل ما يتحدث به في مجلس واحد.. لرأى كم من الأوراق يحتاج.. ولو حاسب نفسه لوجد الكثير من الزلات والسقطات.

وقد حدد **الربيع بن خيثم** الكلام بأنه لا خير فيه إلا في تسع: تهليل وتكبير، وتسبيح وتحميد، وسؤالك من الخير. وتعوذك من الشر، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر، وقراءتك القرآن[٢].

أخي الكريم:

هل وقفنا بألسنتنا عند هذه الأمور التسعة، فأضحى التهليل والتكبير ملازماً لنا.. وأصبحنا والقرآن ربيع قلوبنا؟!

أم أن نصيب الدنيا في ألسنتنا هو الغالب وذكر الله وقراءة القرآن هو النادر.. ونحن في منحدر من الدنيا وإقبال على الآخرة..

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي
درج الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدما
منها إلى الدنيا بذنبٍ واحدٍ[٣]

---

(١) السير ٤/ ٩٤.
(٢) كتاب الصمت ص ٨٤.
(٣) عقود اللؤلؤ ص ٣٦.

عن **سفيان** قال: طول الصمت مفتاح العبادة[١].

فإن في طول الصمت تفكُّراً وكفًّا عما لا ينبغي.. واستفادةً من الأوقات.. ومحاسبةً للزلات..

قال **الفضيل بن عياض**: ما حجٌّ ولا رباطٌ ولا جهادٌ أشد من حبس اللسان، ولو أصبحت يُهمك لسانك، أصبحت في همٍّ شديد[٢].

همٌّ وهو يتعاهد لسانه ويحافظ على كلماته!!.

فإن اللفظات ـ حفظها بأن لا يُخرج لفظة ضائعة، بأن لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر.. هل فيها ربح وفائدة أم لا؟

فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر.. هل تفوت بها كلمة هي أربح منها..؟ فلا يضيعها بهذه، وإذا أردت أن تستدل على مافي القلب، فاستدل عليه بحركة اللسان، فإنه يطلعك على مافي القلب، شاء صاحبه أم أبى!!

قال **يحيى بن معاذ**: القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها.. فانظر إلى الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه، حلوٌ وحامض، وعذبٌ وأجاج، وغير ذلك. ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه.. أي كما تطعم بلسانك طعم مافي القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقته، كذلك تطعم مافي قلب الرجل من لسانه، فتذوق مافي قلبه من لسانه كما تذوق ما في تلك القدور بلسانك[٣].

---

(١) كتاب الصمت ص ٢٢٢.
(٢) جامع العلوم والحكم ص ١٦٢.
(٣) الجواب الكافي ص ١٧٠.

والكلام إذا كان دفاعاً عن خير ودعوة إلى علم وقراءة للقرآن وذكر لله فذلك. فأكثر منه فقد سلكت الجادة.. فإنه يسرُّك يوم القيامة إذا نظرت في صحيفتك.. وأخذت كتابك بيمينك.

قيل **لإياس بن معاوية**: إنك تكثر الكلام؟ قال: أفبصواب أتكلم أم بخطأ؟

قالوا: بصواب، قال: فالإكثار من الصواب أفضل[١].

أخي الحبيب:

اعلم أن الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر، ويخبر بمكنونات السرائر، لا يمكن استرجاع بوادره، ولا يُقدر على رد شوارده، فَحُقٌّ على العاقل أن يحترز من زلله، بالإمساك عنه أو بالإقلال منه[٢].

هنا موقفٌ أبان فيه اللسان عن حقيقة الرجل ولو سكت لَجُهِلَ أمره.. فقد حُكي عن **أبي يوسف الفقيه** أن رجلاً كان يجلس إليه، فيطيل الصمت، فقال له أبو يوسف: ألا تسأل؟

قال: بلى، متى يفطر الصائم؟ قال: إذا غربت الشمس، قال: فإن لم تغرب إلى نصف الليل؟! فتبسم أبو يوسف ـ رحمه الله ـ وتمثل ببيتين من الشعر:

عجبتُ لإزراء العيِّ بنفسه
وصمت الذي قد كان بالقول أعلما

---

(١) كتاب الصمت ص ٣٠٣.
(٢) أدب الدنيا والدين ص ٢٦٥.

وفي الصمـــــت سترٌ للعـــــي وإنمـــــا
صحيفـــةُ لُـــبِّ المـــرء أن يتكلمـــا[١]

* أقام المنصور بن المعتز: لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة، وقيل: ما تكلم الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة، وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاساً وقلما فكل ما تكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء[٢].

أخي الحبيب أين نحن من هؤلاء؟!

قيل للقمان الحكيم: ما حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيت ولا أتكلف ما لا يعنيني[٣].

وحُكي أن بعض الحكماء رأى رجلاً يُكثر الكلام ويُقل السكوت، فقال: إن الله ـ تعالى ـ إنما خلق لك أذنين ولساناً واحداً، ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به[٤].

والكثير الآن تجاوز هذا الضعف.. يهذر بما يعلم وما لا يعلم.. لا يُتحدث في علم إلا له فيه قول.. ولا يمر اسم فلان من الناس إلا لمزه وغمزه.

وقد حذر الجنيد من ذلك بقوله: أقل مافي الكلام سقوط هيبة الرب ـ جل جلاله ـ من القلب. والقلب إذا عَرى من الهيبة عَرى من الإيمان[٥].

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٢٦٦.
(٢) الإحياء ٣/ ١٢١.
(٣) الإحياء ٣/ ١٢١.
(٤) أدب الدنيا والدين ص ٢٦٨.
(٥) السير ١٤/ ٦٨.

ولكي يسلم المُتحدث من الزلل في حديثه والنقص في مقاله فإن عليه أن يراعي **شروطاً أربعة:**

الشرط الأول: أن يكون الكلام لداع يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع، أو دفع ضرر.

الشرط الثاني: أن يأتي به في موضعه، ويتوخى به إصابة فرصته.

الشرط الثالث: أن يقتصر منه على قدر حاجته.

الشرط الرابع: أن يتخير اللفظ الذي يتكلم به[١].

إذا توافرت هذه الشروط فعليك بالحديث وإلا فإن الصمت يجمع للرجل خصلتين: السلامة في دينه، والفهم عن صاحبه[٢].

ومن يَقْدِرُ الآن على الصمت ونحن في زمن يُخيل للسامع أن الإنسان خلق بلسان دون أذن.. فالكل يتحدث.. ترتفع الأصوات في المجالس ويكثر اللغط ولا تعلم من يُحدث منْ؟! ومن يستمع لمنْ؟!.

ترى اثنين يتحدثان بصوت مرتفع.. وتبحث عن المستمع فلا ترى أحداً.

الكل يتحدث.. ولكن أين المستمع؟!

هذا **عبدالله بن أبي زكريا** يقول: عالجت الصمت ثنتي عشرة سنة، فما بلغت منه ماكنت أرجو[٣]..

وقال **مورق العجلي**: أمرٌ أنا أطلبه منذ عشر سنين لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه، قالوا: وما هو يا أبا المعتمر؟ قال: الصمت عما لا يعنيني[٤].

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٢٦٦.

(٢) كتاب الصمت ٦٩، الإحياء: ٣/ ١٢٠.

(٣) كتاب الصمت ٣٠٣.

(٤) كتاب الصمت ص ٩٧، وجامع العلوم والحكم ص ١٣٨، والإحياء: ٣/ ١٢٢.

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟

قومٌ جاهدوا أنفسهم وحاولوا سنوات طويلة.. أفلا نفكر ولو أيام معدودة في الصمت عما لا يعنينا..؟! ولو لساعات فقط؟!

ولكن الأمر كما قال **محمد بن واسع** لمالك ين دينار: يا أبا يحيى حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم[١].

مع أنه مامن أحد من الناس يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله[٢].

يصاب الفتى من عثرة بلسانه
وليس يصاب المرء من عثرة الرِجلِ
فعثرته بالقول تُذهب رأسه
وعثرة بالرِجل تبرى على مهل[٣]

انظر ـ أخي ـ إلى قول **الأوزاعي**: من أكثر من ذكر الموت كفاه اليسير ومن علم أن منطقه من عمله قل كلامه..

ومن قل كلامه فيما لا فائدة فيه.. استكثر مما ينفع في الآخرة.. وحدد **محمد بن عجلان** الكلام بأربعة: أن تذكر الله، وتقرأ القرآن، وتسأل عن علم فتخبر به، أو تكلم فيما يعنيك من أمر دنياك[٤].

---

(١) الإحياء ٣/ ١٢٠.
(٢) الإحياء ٣/ ١٢٠.
(٣) شذرات الذهب ٢/ ١٠٦.
(٤) جامع العلوم والحكم ص ١٦٢.

فإنه حق على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه حافظاً للسانه، مقبلاً على شأنه[١].

فالأمر كما قال **الحسن**: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه[٢].

فإن من المحافظة على دين المرء المحافظة على اللسان.. قال رجل **لحامد اللفاف**: أوصيني، قال: اجعل لدينك غلافاً كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات، قال: وما غلاف الدين؟ قال: ترك طلب الدنيا إلا مما لابد منه وترك كثرة الكلام إلا فيما لابد منه؟ وترك مخالطة الناس إلا فيما لابد منه[٣].

وسبقه **عمر بن عبدالعزيز** برسالة بعث بها: أما بعد: فإن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن عدّ كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه[٤].

أخي الحبيب:

من منا الآن يعد كلامه.. ويقف دون زلاته.. لنعد لحظات نسعد فيها بسماع حديث السلف.. نتربى في مدارسهم ونسير على أثرهم..

قال **الفضيل**: أعرف من يعدَّ كلامه من الجمعة إلى الجمعة[٥][٦].

---

(١) الإحياء ٣/ ١٢٠.
(٢) الإحياء ٣/ ١٢٠.
(٣) الإحياء ٤/ ٥٨.
(٤) الإحياء ٣/ ١٢٠.
(٥) أعرف الآن من يُعدَّ كلامه من الجمعة إلى الجمعة، وقد توفي رحمه الله قريبًا.
(٦) صيد الخاطر ص ٦١٩.

وربما نحاول في مجلس أن نعد كلامنا.. فلا نستطيع.. ما بالك إذا كانت أعواماً وشهوراً!!

صحب بعضهم الربيع بن خيثم عشرين عاماً.. فقال: ما سمعت منه كلمة تعاب[١].

استر العي ما استطعت بصمت
إن في الصمت راحةً للصموت
واجعل الصمت إن عييت جواباً
رب قول جوابه في السكوت[٢]

وحتى في السكوت ربما يلحقك مذمة.. ويتبعك ملامة ولكن عليك ـ أخي الحبيب ـ بقول أبي الدرداء: أدركت الناس ورقاً ولا شوك فيه، فأصبحوا شوكاً لا ورق فيه، إن نقدتهم نقدوك، وإن تركتهم لا يتركوك، قالوا: فكيف نصنع؟ قال: تقرضهم من عرضك ليوم فقرك[٣].

فأقرض ياأخي من عرضك ليوم فقرك.. واعلم أنها حسنات تُجمع لك تراها يوم القيامة مثل الجبال.. يَسُرُّكَ مقَدَمُها في ذلك اليوم العصيب.

قال رباح القيس: قال لي عتبة (الغلام): يا رباح: إن كنت كلما دعتني نفسي إلى الكلام تكلمت، فبئس الناظر لها أنا، يا رباح.. إن لي موقفاً تغتبط فيه بطول الصمت عن الفضول[٤].

---

(١) السير ٤/٢٥٩.
(٢) كتاب الصمت ص ٣٠٠.
(٣) صفة الصفوة ١/٦٣٨، حلية الأولياء: ١/٢١٨.
(٤) صفة الصفوة ٣/٣٧٢.

وهو موقف يوم يشيب فيه الولدان.. حسابٌ ومنصرفان.. إما إلى الجنة أو إلى النار ولهذا الموقف قال **أبو حازم**: أنظر الذي تحب أن يكون معك في الآخرة، فقدمه اليوم، وانظر الذي تكره أن يكون معك ثم، فاتركه اليوم[١].

أخي: يكفي من طول بعض المجالس قليلٌ من الوقت.. فإن طال المجلس.. انتهى حديث السلام والسؤال.. وبدأت آفات اللسان.. فاحفظ أمرك وحاسب نفسك.

لقاء الناس لي يفيد شيئاً
سوى الهذيان من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس إلا
لأخذ العلم أو إصلاح حال[٢]

قال ابن **الحسن بن بشار**: منذ ثلاثين سنة ما تكلمت بكلمة أحتاج أن أعتذر منها.

* لهم باع في الحديث وفي تسيُّد المجالس لو أرادوا ولكنهم عفّوا وحفظوا ألسنتهم. يخافون يوماً يرجعون فيه إلى الله.

قال **عمر بن عبدالعزيز**: إنه ليمنعني من كثير من الكلام، مخافة المباهاة[٣].

والإنسان لا يخلو من محادثة الكثير ممن تتفاوت عقولهم وتختلف

---

(١) شرح الصدور ص ٢١.
(٢) وفيات الأعيان ٤/ ٢٨٣.
(٣) كتاب الصمت ص ٨٨.

مداركهم، وتتلون طباعهم ووجه **وهب بن منبه** لهذا الأمر بقوله: دع المراء والجدل، فإنه لن يعجز أحد رجلين، رجل هو أعلم منك، فكيف تُعادي وتُجادل من هو أعلم منك؟.

ورجلٌ أنت أعلم منه، فكيف تُعادي وتجادل من أنت أعلم منه، ولا يطيعك[١].

وخيرٌ للمرء إن أراد المحافظة على دينه من النقص وعلى كرامته من الخدش أن يلزم الصمت أو يقول خيراً.

ولا خير في الحياة كما قال **سعيد بن عبدالعزيز**: إلا لأحد رجلين: صموت واع، وناطق عارف[٢].

أخي: ألا ترى معي أن:

الصمت أزين بالفتى
من منطقٍ في غير حينه
والصدق أجمل بالفتى
في القول عندي من يمينه
وعلى الفتى بوقاره
سمت تلوح على جبينه

جعلني الله وإياك ممن إذا تكلم نفع وكان حديثاً في موازين أعماله، وإن سكت كان خيراً له.

---

(١) السير ٤/٥٤٩.
(٢) السير ٨/٣٦.

قال **بشر بن منصور** كنا عند أيوب السختياني فغلطنا وتكلمنا، فقال لنا: كفوا.. لو أردت أن أخبركم بكل شيءٍ تكلمت به اليوم لفعلت[١].

وحديثهم إن تحدثوا فهي كلمات خير.. موزونة معلومة.. لا لغط فيهاولا مُنكر.

حدث **أبو حيان التيمي** عن أبيه قال: رأيت ابنة الربيع بن خثيم أتته فقالت: يا أبتاه، أذهب ألعب؟ قال: يا بنيتي، اذهبي قولي خيراً[٢].

وكل ذلك خوفاً من أن تسجل كلمةٌ عليه ألا وهي.. الأمر باللعب.. وهو يعلم أنها ما خلقت لهذا..

ووالله إن حفظ اللسان من المجاهدة والمكابرة.. قال **محمد بن واسع** لمالك بن دينار: يا أبا يحيى حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم[٣].

وانظر - يا أخي - إلى أحوال الناس في البيع والشراء والأخذ والعطاء.. ربما يجادل الواحد منهم وقتاً طويلاً في سبيل دُريهمات، إن لم يكن فيها شيء من ضياع الوقت وارتفاع الأصوات فإن فيها من رداءة الخُلق وشح الأنفس الشيء الكثير.

قال **شداد بن أوس** يوماً: هاتوا السفرة نعبث بها، فأخذوها عليه، فقال: أي بني أخي: إني ما تكلمت بكلمة منذ بايعت رسول الله ﷺ إلا كلمة مزمومة مخطومة قبل هذه[٤].

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ٨.

(٢) كتاب الصمت ص ٢١٨.

(٣) الإحياء ٣/ ١٢٠.

(٤) حلية الأولياء ١/ ٢٦٥، الإحياء: ٣/ ٣٣٦.

وأكثر ألسُن الناس اليوم ليس لها زمام ولا خطام.. ولو أن هذه الألسن تسير في الشوارع والطرقات لضاقت بها الأرض ولما وجدنا موطىء قدم من كثرتها.

رأى **إبراهيم بن أدهم** رجلاً يُحدث من كلام الدنيا، فوقف عليه وقال له: كلامك هذا ترجو فيه؟ قال: لا، قال: فتأمن عليه؟ قال: لا، قال: فما تصنع بشيء لا ترجو فيه ولا تأمن عليه[١].

تعاهد لسانك إن اللسان
سريع إلى المرء في قتله
وهذا اللسان بريد الفؤاد
يدل الرجال على عقله

قال **أبو الدرداء** ـ رضي الله عنه ـ: أنصف أُذنيك من فيك. فإنما جعل للإنسان أذنان، وفم واحد، لتسمع أكثر مما تقول..

فالزم الصمت، فإنه يكسبك صنوف المحبة، ويؤمنك سوء المغبة ويلبسك ثواب الوقار ويكفيك مؤنة الاعتذار[٢].

قال رجل من بني تيم: جالست **الربيع بن خثيم**: عشر سنوات فما سمعته يسأل عن شيء من أمور الدنيا إلا مرتين، قال مرةً: والدتك حية؟ وقال مرة: كم لكم مسجداً[٣]؟

وواقعنا اليوم مثل رجلٍ قال **لسلمان الفارسي**: أوصني، قال: لا

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ١٦.
(٢) أدب الدنيا والدين ص ٢٦٥.
(٣) حلية الأولياء ٢/ ١١٠.

تتكلم!! قال: ما يستطيع من عاش في الناس أن لا يتكلم، قال: فإن تكلمت فتكلم بحق أو اسكت[١].

وهذه النصيحة تصلح لكل زمان ولزماننا خاصة ولكن يبقى فقط أن نطبقها في واقع حياتنا وفي مجالسنا.. ومكالماتنا الهاتفية!!

عن **عبدالله بن مسعود** قال: والله الذي لا إله إلا هو ما على وجه الأرض شيءٌ أحوجُ إلى سجن من لسان[٢].

فإن لم يُسجن وأُطلق له العنان فإنه كما وصف **طاووس**: لساني سبعٌ إن أرسلته أكلني[٣].

وهو والله أشد.. يأكل الحسنات ويجلب السيئات.. تفاجأ يوم القيامة بذنوب كالجبال.. من آفات وسقطات اللسان.. يتعلق بك من بهته ويُمسك بك من اغتبته.. ويقبض على رقبتك من استهزأت به.. قال تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] حديثك تنساه بمجرد إطلاق الكلمة وانتهاء المجلس.. ولكنه مُحصى عليك.. موقوفٌ أنت حتى يُقتص منك.. يؤخذ من حسناتك لهم فإن فنيت حسناتك أُخذ من سيئاتهم فحطت عليك..!؟.

مصيبةٌ أن تُفجع في ذلك اليوم بمثل هذا وأنت أحوج ما تكون للحسنة الواحدة..

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ١٦٢.
(٢) صفة الصفوة ١/ ٤٥٠.
(٣) الإحياء ٣/ ١٢٠.

لنرى تحفظ من سبقنا.. وكيف كانوا يملئون صحائفهم.. قيل **للمعافى بن عمران**: ما ترى في الرجل يُقرض الشعر ويقوله؟ قال: هو عمرك فأفنه بما شئت!!

وسُئل **مسروق** عن بيت من شعر فكرهه، فقيل له؟ فقال: إني أكره أن يوجد في صحيفتي شعر[١].

هذاالشعر ضربٌ من ضروب الكلام حسنه حسنٌ ورديئه رديء.. ولكن أصحاب الهمم ومن يرى أن تسبيحه وتحميده خيرٌ له، حَفِظَ سطور صحائفه إلا في رفع درجة وحط خطيئة..

وقد قال رجل **للربيع بن خثيم**: ما يمنعك أن تمثل بيتاً من الشعر فإن أصحابك قد كانوا يفعلون ذلك؟ قال: إنه ليس أحد يتكلم بكلام إلا كُتب، ثم يعرض عليه يوم القيامة، فإني أكره أن أقرأ في كتابي يوم القيامة بيت شعر[٢].

ويا أخي الكريم.. هو لسانك.. وهذه صحيفتك.. فَأَمْلِ ما شئت.. وقل ما شئت..

* اجتمع **قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي**، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تُحصى، والذي أحصيته ثمانية آلاف عيب، ووجدت خصلة إن استعملها سترت العيوب كلها، قال: وماهي؟ قال: حفظ اللسان[٣].

---

(١) كتاب الصمت ص ٢٨٢.
(٢) كتاب الصمت ص ٣٠٨، حلية الأولياء ٢/ ١١٣.
(٣) الأذكار النووية ص ٢٨٧.

أخي الحبيب:

للسان آفات كثيرة. ومزالق خطيرة وسأقتصر على أربع آفات فقط:

الآفة الأولى: الغيبة.

الآفة الثانية: النميمة.

الآفة الثالثة: الكذب.

الآفة الرابعة: الاستهزاء.

الآفة الأولى: الغيبة

اعلم ـ أخي الكريم ـ أن الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه، حتى في ثوبه وداره ودابته.

أما البدن: فكذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكره كيفما كان.

وأما النسب: فبأن تقول أبوه قبطي أو هندي أو فاسق أو خسيس أو إسكافي أو زبال، أو شيء مما يكره كيفما كان.

أما الخلق: فبأن تقول هو سيء الخلق، بخيل، متكبر، مراء، شديد الغضب، جبان، عاجز، ضعيف القلب، متهور، وما يجري مجراه.

وأما في أفعاله المتعلقة بالدين: فكقولك هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يتحرز من النجاسات أو ليس باراً بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمها، أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس.

وأما فعله المتعلق بالدنيا. . فكقولك إنه قليل الأدب متهاون بالناس، أو لا يرى لأحد على نفسه حقًّا أو يرى لنفسه الحق على الناس، أو أنه كثير الكلام نئوم ينام في غير وقت النوم، ويجلس في غير موضعه.

وأما في ثوبه: فكقولك إنه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب[١].

وهذه أمثلة قليلة وإلا ففي أحاديث المجالس كثير من أنواع الغيبة.

والغيبة محرمة بالإجماع ولا يُستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والنصيحة[٢].

قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

قال ثعلب في تفسير هذه الآية: أي لا يتناول بعضكم بعضاً بظهر الغيب بما يسوءه.

وفي الآية إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه، وكما أنه يحرم أكل لحمه، يحرم الاستطالة في عرضه، وفي هذا من التنفير عن الغيبة والتوبيخ لها والتوبيخ لفاعلها والتشنيع عليه مالا يخفى، فإن لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية وتستكرهه الجبلة الإنسانية. فضلاً عن كونه محرماً شرعاً[٣].

وقد أبان ﷺ الغيبة فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما يقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»[رواه مسلم].

وبهذا يبين ﷺ الفرق بين الغيبة والبهتان وأن الكذب عليه بهتٌ له.

---

(١) الإحياء ٣/ ١٥٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢٢.

(٣) فتح القدير ٥/ ٦٥.

فالكذب على الشخص حرام كله سواء كان الرجل مسلماً أو كافراً، برًّا أو فاجراً، لكن الافتراء على المؤمن أشد. بل الكذب كله حرام[١].

والغيبة تعدٍ على أعراض المسلمين والنبي ﷺ قال في خطبته يوم النحر بمنى في حجة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم، وأعراضكم، حرامٌ عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت**» [متفق عليه]. وفي الحديث الآخر قال ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله وعرضه**»[رواه مسلم]..

والغيبة تتناول العرض وقد جمع الله بينه وبين المال والدم[٢].

قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: خطبنا رسول الله ﷺ فذكر الربا وعظَّم شأنه فقال: «**إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل، وأربى الربا عرض المسلم**»[٣] [رواه أحمد وأبو داود].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فقال رجل من القوم: يا رسول الله ما أعجز فلاناً؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أكلتم لحم أخيكم، واغتبتموه**»[٤].

ويقول الإمام القرطبي: «والإجماع على أنها من الكبائر، وأنه يجب التوبة منها إلى الله».

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٢٣.

(٢) الإحياء ٣/ ١٥٢.

(٣) روى أحمد من حديث سعيد بن زيد مرفوعًا: «إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق».

(٤) كتاب الصمت ص ١٣٦.

بواعث الغيبة

لا شك أن هناك بواعث للغيبة منها:

١ ـ من يغتاب موافقة لجلسائه وأصحابه وعشائره، مع علمه أن المغتاب بريءٌ مما يقولون أو فيه بعض ما يقولون، لكن يرى أنه لو أنكر عليهم لقطع المجلس واستثقله أهل المجلس، ونفروا منه.

٢ ـ ومنهم من يخرج الغيبة في مواكب شتى تارة في قالب ديانة وصلاح، ويقول ليس لي عادةٌ أن أذكر أحداً، إلا بخير، ولا أحب الغيبة والكذب، وإنما أخبركم بأحواله ويقول: والله إنه مسكين ورجل جيد، ولكن فيه كيت وكيت، وربما يقول: دعونا منه الله يغفر لنا وله، وقصده من ذلك استنقاصه.

٣ ـ ومنهم من يحمله الحسد على الغيبة فيجمع بين أمرين قبيحين: الغيبة والحسد.

٤ ـ ومنهم من يخرج الغيبة في قالب تسخر ولعب، ليُضحك غيره باستهزائه ومحاكاته واستصغار المستهزأ به.

٥ ـ ومنهم من يخرج الغيبة في قالب التعجب، فيقول: تعجبت من فلان، كيف لا يفعل كيت وكيت، ومن فلان كيف وقع منه كيت وكيت.

٦ ـ ومنهم من يخرج الغيبة في قالب الاغتمام فيقول مسكين فلان، غمني ما جرى له، وما تم له، فيظن من يسمعه أنه يغتم له ويتأسف، وقلبه منطو على التشفي به، ولو قدر لزاد على ما به وربما يذكره عند أعدائه ليتشفوا به.

٧ ـ ومنهم من يظهر الغيبة في قالب غضب وإنكار منكر، وقصده غير ما أظهر[١].

أخي الكريم:

هذه بواعث للنفوس الضعيفة والقلوب المريضة وإلا فالمؤمن لا يترك لنفسه هواها بل يراعي في ذلك حدود الله وما نهى عنه.

ذكر عن **إبراهيم بن أدهم** ـ رحمه الله ـ أنه أضاف أناساً، فلما قعدوا على الطعام، جعلوا يتناولون رجلاً، قال إبراهيم: إن الذين كانوا قبلنا، كانوا يأكلون الخبز قبل اللحم وأنتم بدأتم باللحم قبل الخبز[٢].

وفي ذلك إشارة إلى أنهم يأكلون لحم أخيهم المسلم.. وانظر إلى أثر ذلك في دين الرجل.

قال **الحسن**: والله للغيبة أسرع في دين المؤمن من الأكلة في جسده[٣].

وقال **سفيان بن عيينه**: الغيبة أشد من الدين، الدين يُقضى والغيبة لا تقضى[٤].

ولكي لا يكون عليك دين لا يقضى إلا يوم القيامة.. ليكن **حظ المؤمن منك ثلاثاً**: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تفرحه فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى باختصار يسير ٢٨/ ٢٣٧.
(٢) تنبيه الغافلين ص ١٧٧.
(٣) كتاب الصمت ص ١٢٩، الإحياء: ٣/ ١٥٢.
(٤) حلية الأولياء ٧/ ٢٧٥.
(٥) صفة الصفوة ٤/ ٩١.

* قال **سفيان بن الحصين**: كنت جالساً عند إياس بن معاوية فمر رجل، فنلت منه، فقال: اسكت، ثم قال لي سفيان: هل غزوت الروم؟ قلت: لا، قال: غزوت الترك؟ قلت: لا، قال: سلم منك الروم وسلم منك الترك، ولم يسلم منك أخوك المسلم، قال: فما عدت إلى ذلك بعد[١].

ولعلنا نكون مثله فيسلم المسلمون منا ونسلم منهم وكفى المرء نبلاً أن تُعد معايبه.. يقول **شيخ الإسلام ابن تيمية**:

إن بعض الناس لا تراه إلا منتقداً داءً ينسى حسنات الطوائف والأجناس ويذكر مثالبهم، فهو مثل الذباب يترك موضع البرء والسلامة ويقع على الجرح والأذى، وهذا من رداءة النفوس وفساد المزاج.

أخي الحبيب:

هل تقبل أن تكون كذلك؟! أم تقبل أن تكون مستمعاً لما حرم الله من الغيبة وأنت تعلم أن المغتاب لو لم يجد أذناً صاغية لما اغتاب واسترسل في الحديث.. فأنت باستماعك تكون مشجعاً وعوناً له على المعصية فلا تكن شريكاً في الإثم.

قال **الإمام الشافعي**: قبول السعاية أضر من السعاية، لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس من دلَّ على شيء كمن قبل وأجاز، والساعي ممقوت إذا كان صادقاً لهتكه العورة، وإضاعته الحرمة، ومعاتب إن كان كاذباً لمبارزته الله بقول البهتان وشهادة الزور[٢].

---

(١) تنبيه الغافلين ١/١٧٨.

(٢) حلية الأولياء ٩/١٢٣، وصفة الصفوة ٢/٢٥٣.

واعلم أخي: أن مجالس الغيبة ليست بمجالس خير وهي مجالسٌ تؤكل فيها لحوم المسلمين.

روي عن **حاتم الزاهد** ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال: ثلاثة إذا كن في مجلس فالرحمة عنهم مصروفة: ذكر الدنيا، والضحك، والوقيعة في الناس[١].

وقال **أبو بكر بن عبدالله**: إذا رأيتم الرجل موكَّلاً بعيوب الناس، ناسياً لعيبه، فاعلموا أنه قد مُكر به[٢].

أخي:

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات، وتتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلاً. إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة لك إليه فإنك تضيع به زمانك، وتحاسب على عمل لسانك وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.. ولو هللت الله ـ سبحانه ـ وسبحته لكان خيراً لك، فكم من كلمة يُبنى بها قصراً في الجنة، ومن قدر على أن يأخذ كنزاً من الكنوز، فأخذ مكانه قذرة لا ينتفع بها كان خاسراً خسراناً مبيناً، وهذا مثال من ترك ذكر الله ـ تعالى ـ واشتغل بمباح لا يعنيه، فإنه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى، فإن المؤمن لا يكون صمته إلا فكراً ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكراً، بل رأس مال العبد أوقاته، ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثواباً في الآخرة فقد ضيع رأس ماله[٣].

---

(١) تنبيه الغافلين ١/ ١٧٨.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ٢٤٩.
(٣) الإحياء ٣/ ١٢١.

وذكر ذلك **عون بن عبدالله** في قوله: ما أحسب أحداً تفرغ لعيب الناس إلا من غفلة غفلها عن نفسه[١].

وهل هناك أكثر من غفلة عن جلب الحسنات واستبدالها بسيئات.. والمغتاب إذا أطلق لسانه قد لا يسلم منه حتى من قد رحلوا إلى الدار الآخرة.. بل للأحياء نصيب وللأموات..

قال **يحيى بن معين**: إنا لنطعن على أقوامٍ لعلهم قد حطوا رحالهم في الجنة من أكثر من مائتي سنة[٢].

دع عنك ذكر فلانةٍ وفلان
واجنب لما يُلهي عن الرحمن
واعلم بأن الموت يأتي بغتةً
وجميع ما فوق البسيطة فانٍ
فإلى متى تلهو وقلبُك غافلٌ
عن ذكر يوم الحشر والميزان[٣]

ذُكر عن إبراهيم بن أدهم.. إنه دُعي إلى طعام فلما جلس قالوا: إن فلاناً لم يجيء، فقال رجل منهم: إن فلاناً رجل ثقيل، فقال إبراهيم: إنما فعل هذا بي بطني حيث شهدت طعاماً، اغتبت فيه مسلماً، فخرج ولم يأكل ثلاثة أيام[٤].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٠١.
(٢) السير ١١/ ٩٤، وتذكرة الحفاظ ٣/ ٨٣١.
(٣) شذرات الذهب ٥/ ٢٨١.
(٤) تنبيه الغافلين ١/ ١٧٩.

قال **مالك بن دينار**: لو كُلِّف الناس الصحف لأقلوا من المنطق[١].

ووالله لاحتاج البعض إلى من يحمل معه تلك الصحف..

وأذكر أن إحدى قريباتي ذهبت لزيارة امرأة بها صمم فلا تسمع وكانت طريقة التفاهم معها هي الكتابة وذلك لعدم إجادتها لغة الإشارات فحملت قلماً وأوراقاً وعندما عادت بدأت تُقلب ماذا كتبت فإذا الأمر مهول.. ولو قامت بإحصاء حديث الغيبة لطال الحساب وهي زيارة لم تدم سوى فترة زمنية قصيرة.. أما الحديث الذي لا فائدة فيه فهو كثير.

فكيف إذا أُحصي حديث اللسان وهو أسرع من الكتابة خاصة أن انتظار الجواب كتابةً أيضاً!! وهذا يعني ضياع جزء من الوقت في نفس الكتابة فحسب!!

فكيف لو كان اللسان منطلقاً والأذن تسمع.. فكم من حديث يُحاسب عليه الإنسان وهو لا يدري من سرعة مروره وتهاونه فيه ولكن الأمر كما قال **أبوبكر بن عبدالرحمن**: لا يلهينك الناس عن ذات النفس، فإن الأمر يخلص إليك دونهم، ولا تقطع نهارك بكيت وكيت، فإنه محفوظ عليك ما قلت[٢].

ومحاسبٌ على ما قلت.. في يومٍ أنت أحوج فيه إلى جلب حسنة وإلى دفع سيئة.

مر **الحسن** بشاب وهو مستغرق في ضحكه وهو جالس مع قوم في مجلس، فقال له الحسن: يا فتى هل مررت بالصراط؟ قال: لا، قال:

---

(١) كتاب الصمت ص ٤٨٤.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ١٣٠.

فهل تدري إلى الجنة تصير أم إلى النار، قال: لا، قال: فما هذا الضحك؟ فما رؤي ذلك الفتى بعدها ضاحكاً[١].

وكان **الربيع بن خثيم** إذا قيل له كيف أصبحتم؟ قال: ضعفاء مذنبين نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا[٢].

أخي: والحال هذه.. أعمارنا تجري.. وألسنتنا تنطق وصحائفنا تُسجل.. كيف الخلاص من تلك الآفة التي تفتك بالحسنات وتأتي بالحسرات. هذا أحد من حرص على مجاهدة لسانه ومحاسبته.. يروي لنا كيف تخلص من هذه الآفة.

قال **ابن وهب**: نذرت أني كلما اغتبت إنساناً أن أصوم يوماً، فأجهدني فكنت أغتاب وأصوم، فنويت إني كلما اغتبت إنساناً أن أتصدق بدرهم، فمن حُبِّ الدَّراهم، تركتُ الغيبة[٣].

أخي المسلم:

لو هللت ـ الله ـ وذكرته وسبحته لكان خيراً لك فكم من كلمة يبنى بها قصراً في الجنة، ومن قدر أن يأخذ كنزاً من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسراً خسراناً مبيناً، وهذا مثال من ترك ذكر الله ـ تعالى ـ واشتغل بمباح لا يعنيه، فإنه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى، فإن المؤمن لا يكون صمته إلا فكراً ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكراً[٤].

---

(١) الإحياء ٤/ ١٩٤.
(٢) السير ٤/ ٢٥٩.
(٣) السير ٩/ ٢٢٨.
(٤) الإحياء ٣/ ١٢١.

وعن الأحنف قال: قال لي **عمر بن الخطاب**: يا أحنف من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلَّ حياؤه، ومن قلَّ حياؤه قل ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه[١].

ولو تأمل القارىء كيف تدرج الأمر حتى وصل إلى موت القلب وتساوي الأشياء لنزه نفسه عن هذا وحرص على منطقه.. وحفظ جوارحه.

* اغتاب رجل عند **معروف الكرخي** فقال: اذكر القطن إذا وضع على عينيك[٢].

فمن تذكر تلك اللحظات.. ومصيره بعدها لتراجع عن غيبته وأعاد لسانه قبل أن يتحدث..

هذا **عبدالله بن أبي زكريا** يقول: مكثت اثنتي عشرة سنة أتحفظ من لساني[٣].

* فمثِّل نفسك يا مغرور وقد حلت بك السكرات، ونزل بك الأنين والغمرات، فمن قائل يقول: إن فلاناً ثقل لسانه، فلا يعرف جيرانه، ولا يكلم إخوانه، فكأني أنظر إليك تسمع الخطاب ولا تقدر على رد الجواب، ثم تبكي ابنتك وهي كالأسيرة، وتتضرع وتقول: حبيبي أبي، من ليُتمي بعدك؟ ومن لحاجتي؟ وأنت والله تسمع الكلام ولا تقدر على رد الجواب.

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٨٧.
(٢) السير ٩/ ١٤١.
(٣) الزهد لأبي عاصم ص ٣٩.

وأقبلت الصغرى تمرِّغُ خدها
على وجنتي حيناً وحيناً على صدري
وتمسك خَدَّيها وتبكي بحرقةٍ
تنادي: أبي إني غُلبتُ على الصبر
حبيبي أبي من لليتامى تركتهم
كأفراخ زغب في بعيد من الوكر[١]

ورُحل بك من هذه الدنيا إلى الدار الآخرة.. حملت أوزارك معك.. ورحلت وحيداً حيث الحساب والجزاء.. فرحم الله من حفظ لسانه ليوم فقره.. ورحم الله من استبدل مكان الشر خيراً فسرته صحيفته إذا رآها غداً.

قال سفيان الثوري: أقل من معرفة الناس تقل غيبتك[٢].

لقاء النَّاس ليس يفيد شيئاً
سوى الهذيان من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس إلاَّ
لأخذ علمٍ أو إصلاح حالِ[٣]

قال رجلٌ للفضيل بن عياض: إنَّ فلاناً يغتابني قال: قد جلب لك الخير جلباً[٤].

---

(١) التذكرة ص ٢٤.
(٢) حلية الأولياء ٧/ ٨، والسير ٧/ ٢٧٦.
(٣) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٢٢.
(٤) حلية الأولياء ٨/ ١٠٨.

ويحمـــل وزراً عنـــك ضَـــن بحملـــه
عـــن النجـــب مـــن أبنـــائـــه وبنـــاتـــه
فـــلا تعجبـــوا مـــن جـــاهـــلٍ ضر نفســـه
بـــإمعـــانـــه فينفـــع بعـــض عُـــداتـــه
ويحمـــل مـــن أوزاره وذنـــوبـــه
ويهلـــك في تخليصـــه ونجـــاتـــه[١]

من تريد تحقيره في هذه الدنيا . . هاهو الفوز اليوم . . أخذ من حسناتك . فهلا ضننت بحسناتك لنفسك .

قال **ابن مسعود**: أنذرتكم فضول كلامكم، حسب امريء من الكلام ما بلغ به حاجته[٢] .

وقال **الحسن**: ياابن آدم بسُطت لك صحيفة ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثر أو أقل[٣] .

* دُخل على **أبي دجانه**: وهو مريض وكان وجهه يتهلل، فقيل: ما لوجهك يتهلل؟ فقال: ما من عملي شيء أوثق عندي من اثنين: أما أحدهما فكنت لا أتكلم فيما لا يعنيني وأما الأخرى فكان قلبي للمسلمين سليماً .

والمؤمن كما قال **إبراهيم التيمي**: إذا أراد أن يتكلم نظر فإن كان له تكلم وإلا أمسك، والفاجر إنما لسانه رسلاً رسلاً[٤] .

---

(١) إرشاد العباد ص ٢٦ .
(٢) الإحياء ٣/ ١٢٤ .
(٣) الإحياء ٣/ ١٢٤ .
(٤) الإحياء ٣/ ١٢٤ .

ويحمـــل وزراً عنـــك ضَـــن بحملـــه
عـــن النجـــب مـــن أبنـــائـــه وبنـــاتـــه
فـــلا تعجبـــوا مـــن جـــاهـــلٍ ضر نفســـه
بـــإمعـــانـــه فينفـــع بعـــض عُـــداتـــه
ويحمـــل مـــن أوزاره وذنـــوبـــه
ويهلـــك في تخليصـــه ونجـــاتـــه[١]

من تريد تحقيره في هذه الدنيا . . هاهو الفوز اليوم . . أخذ من حسناتك . فهلا ضننت بحسناتك لنفسك .

قال **ابن مسعود**: أنذرتكم فضول كلامكم، حسب امريء من الكلام ما بلغ به حاجته[٢] .

وقال **الحسن**: ياابن آدم بسُطت لك صحيفة ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثر أو أقل[٣] .

* دُخل على **أبي دجانه**: وهو مريض وكان وجهه يتهلل، فقيل: ما لوجهك يتهلل؟ فقال: ما من عملي شيء أوثق عندي من اثنين: أما أحدهما فكنت لا أتكلم فيما لا يعنيني وأما الأخرى فكان قلبي للمسلمين سليماً .

والمؤمن كما قال **إبراهيم التيمي**: إذا أراد أن يتكلم نظر فإن كان له تكلم وإلا أمسك، والفاجر إنما لسانه رسلاً رسلاً[٤] .

---

(١) إرشاد العباد ص ٢٦ .
(٢) الإحياء ٣/ ١٢٤ .
(٣) الإحياء ٣/ ١٢٤ .
(٤) الإحياء ٣/ ١٢٤ .

وفي حال الدنيا يتحرز بعض الناس في المجالس.. والسؤال ما دافع هذا التحرز؟

لم يكن هذا الدافع هو الخوف من الله!!

بل إنه حضور شخص له مكانته وهيبته.. فلا تسمع في المجلس إلا خيراً.. فأين هم من حساب الله يوم القيامة.؟! وهم الذين يتحرزون عند حضور هذا الرجل ولا يخافون من الله وهو مطلع على السرائر؟!

عن **حاتم الأصم** قال: لو أن صاحب خير جلس إليك لكنت تتحرز منه، وكلامك يُعرض على الله فلا تتحرز منه[١].

أخي الحبيب:

لا يكن الله أهون الناظرين إليك..

وإياك والغيبة فإنها كما قال عنها **علي بن الحسين**: إدام كلاب الناس[٢].

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالماً
وللناس قال بالظنون وقيل[٣]

قال **جبير بن عبدالله**: شهدت وهب بن منبه وجاءه رجل فقال: إن فلاناً يقع منك فقال وهب: أما وجد الشيطان أحداً يستخف به غيرك؟ فما كان بأسرع من أن جاء الرجل، فرفع مجلسه وأكرمه[٤].

---

(١) السير: ١١/ ٤٨٧.
(٢) منهاج القاصدين ص ١٨٥.
(٣) ديوان أبي العتاهية ص ١٢١.
(٤) الورع لعبدالله بن حنبل ص ١٨٦.

وفي حال الدنيا يتحرز بعض الناس في المجالس.. والسؤال ما دافع هذا التحرز؟

لم يكن هذا الدافع هو الخوف من الله!!

بل إنه حضور شخص له مكانته وهيبته.. فلا تسمع في المجلس إلا خيراً.. فأين هم من حساب الله يوم القيامة.؟! وهم الذين يتحرزون عند حضور هذا الرجل ولا يخافون من الله وهو مطلع على السرائر؟!

عن **حاتم الأصم** قال: لو أن صاحب خير جلس إليك لكنت تتحرز منه، وكلامك يُعرض على الله فلا تتحرز منه[١].

أخي الحبيب:

لا يكن الله أهون الناظرين إليك..

وإياك والغيبة فإنها كما قال عنها **علي بن الحسين**: إدام كلاب الناس[٢].

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالماً
وللناس قال بالظنون وقيل[٣]

قال **جبير بن عبدالله**: شهدت وهب بن منبه وجاءه رجل فقال: إن فلاناً يقع منك فقال وهب: أما وجد الشيطان أحداً يستخف به غيرك؟ فما كان بأسرع من أن جاء الرجل، فرفع مجلسه وأكرمه[٤].

---

(١) السير: ١١/ ٤٨٧.
(٢) منهاج القاصدين ص ١٨٥.
(٣) ديوان أبي العتاهية ص ١٢١.
(٤) الورع لعبدالله بن حنبل ص ١٨٦.

* قال **محمد بن سيرين**: يُحدِّث رجلاً: ما رأيت الرجل الأسود، ثم قال: استغفر الله، ما أراني إلا أغتبت الرجل[١].

والإمام البخاري صاحب الكتاب المعروف الذي جاب الآفاق يجمع حديث الرسول ﷺ يقول: أرجو أن ألقى الله، ولا يحاسبني باغتياب أحد[٢].

وعقب على هذا الأمر **أبو عبدالله الحافظ** بقوله: يشهد لهذه المقالة كلامه في الجرح والتعديل فإن أبلغ ما يقول في الرجل المتروك أو الساقط، فيه نظر، سكتوا عنه ولا يكاد يقول فلان كذاب، وفلان يضع الحديث وهذا من شدة ورعه[٣].

أخي الحبيب أين نحن من هؤلاء؟

رأى **عمر بن عتبة** مولاه مع رجل وهو يقع في آخر. فقال له: ويلك نزه سمعك عن استماع الخنا، كما تنزه نفسك عن القول به، فالمستمع شريك القائل، وإنما نظر إلى شر مافي وعائه فافرغه في وعائك، ولو رددت كلمة سفيه في فيه لسعد بها رادها كما شقي بها قائلها.

تزوَّد من الدنيا فإنك ميت
وإنك مسئول فما أنت قائله[٤]

ووالله إن الزاد هو زاد الآخرة.. فبماذا تزودنا وكيف تجهزنا؟ عن أبي

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ٢٤٢.
(٢) طبقات الشافعية ٢/ ٢٢٣.
(٣) طبقات الشافعية ٢/ ٢٢٤، والسير ١٢/ ٤٣٩.
(٤) البداية والنهاية ١٠/ ١٧٩.

ذر قال: مالي وللناس وقد تركت لهم بيضاءهم وصفراءهم[١].

لقد ترك الناس وسلم منه المسلمون.. ترك أعراضهم فلم يتناولها وهجر ذهبهم وفضتهم.. ماله وللناس ـ رحمه الله ـ استعد لنزل دائم وظل لا يزول.. في جناتٍ عرضها السموات والأرض.

قال **أبو عاصم النبيل** رحمه الله: ما اغتبت منذ علمت أن الله حرم الغيبة[٢].

أدبت نفسي فما وجدتُ لها
من بعد تقوى الإله من أدبِ
في كلِّ حالاتها وإن قصرت
أفضل من صمتها عن الكذب
إن كان من فضةٍ كلامك يا
نفس فإن السكوت من ذهبِ[٣]

والغيبة محرمة بنص كلام الله ـ جل وعلا ـ وعلى لسان نبيه ﷺ فما هذا التجرؤ على محارم الله وحدوده.. ألا نكون وقافين عندها، طائعين لما فيها؟!.

قال عبدالله بن محمد بن زياد: كنت عند **أحمد بن حنبل** فقال له رجل: ياأبا عبدالله قد اغتبتك، فاجعلني في حلٍّ، قال: أنت في حل إن لم تعد، فقلت له: أتجعله في حل ياأبا عبدالله وقد اغتابك؟ قال: ألم ترني اشترطت عليه[٤].

---

(١) الزهد لأبي عاصم ٤٢.
(٢) كتاب الصمت ص ٣٠٠.
(٣) كتاب الصمت ص ٣١٢.
(٤) حلية الأولياء ٩/ ١٧٤.

وجاء ابن سيرين أُناسٌ فقالوا: إنا نلنا منك فاجعلنا في حل، قال: لا أحل لكم شيئاً حرمه الله[١].

أخي الحبيب:

إذا شئـــت أن تحيـــا ودينـــك ســـالم
وحظـــك مـــوفـــورٌ وعـــرضـــك صينٌ
لســـانـــك لا تـــذكـــر بـــه عـــورة امـــريء
فكلـــك عـــوراتٌ وللنـــاس ألســـنُ
وعينيـــك إن أبـــدت إليـــك معـــايبـــاً
لقـــوم فقـــل يـــا عين للنـــاس أعينٌ[٢]

قال ابن منبه: دخلت على محمد بن سيرين فقال: كأني أراك شاكياً؟ قلت: أجل، قال: أذهب إلى فلان الطبيب فاستوصفه ثم قال: اذهب إلى فلان فإنه أطب منه، ثم قال: أستغفر الله أراني قد اغتبته[٣].

وأنظر ـ أخي ـ إلى العاقبة الدنيوية لزلات اللسان.

قال ابن سيرين عيرت رجلاً وقلت: يا مفلس، فأفلست بعد أربعين سنة[٤].

يمنعنـــي مـــن عيـــب غيري الـــذي
أعـــرفـــه عنـــدي فـــوق العيـــب

---

(١) السير ٤/ ٦٢٠.
(٢) شذرات الذهب ٣/ ٣٥٠.
(٣) صفة الصفوة ٣/ ٢٤٢.
(٤) صيد الخاطر ص ٤٤.

عيبي لهم بالظن مني لهم
ولست من عيبي في ريب
إن كان عيبي غاب عنهم فقد
أحصى عيوبي عالم الغيب[١]

قال بعضهم: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكفِّ عن أعراض الناس[٢].

أخي الحبيب:

هذه نصيحة من الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء، وإياكم وذكر الناس فإنه داء[٣].

وبما أن ذكر الناس داءً فإن له دواء.. أفلا نبحث عنه لنعالج نفوسنا ونُبرِأ جراح ألسنتنا.. ونرفع في الآخرة درجاتنا.

---

(١) طبقات الحنابلة ١/ ١٩٠.
(٢) الإحياء ٣/ ١٥٢.
(٣) الإحياد ٣/ ١٥٢.

بيان العلاج الذي يمنع اللسان عن الغيبة

أولاً: أن يعلم أنه بغيبته تعرَّض لسخط الله ـ تعالى ـ ومقته وشديد عقابه.

ثانياً: لابد أن يدرك أن عمله هذا محبط لحسناته يوم القيامة.

ثالثاً: أن يتدبر في نفسه ويصلح عيوبه ويتدارك نفسه.

رابعاً: إن كان ما اغتاب في المسلم من عيب غير موجود فيه فليحمد الله وليشكره على نعمته.

خامساً: من اغتابه على سبيل التنقيص والاحتقار، فاز بحسنات يوم القيامة فهو يأخذ الحسنات والمغتاب يكسب السيئات والأوزار.

سادساً: أن يتصور حين يغتاب أخاه المسلم أنه كمن يأكل لحمه وهو ميت.

سابعاً: أن يتذكر وهو يغتاب أنه يأكل وينهش في لحم أخيه المسلم.

ثامناً: أن يتذكر موقفه يوم القيامة عند الحساب ذليلاً كبلته الذنوب وأحاطت به الأوزار..

بيان العلاج الذي يمنع اللسان عن الغيبة

أولاً: أن يعلم أنه بغيبته تعرَّض لسخط الله ـ تعالى ـ ومقته وشديد عقابه.

ثانياً: لابد أن يدرك أن عمله هذا محبط لحسناته يوم القيامة.

ثالثاً: أن يتدبر في نفسه ويصلح عيوبه ويتدارك نفسه.

رابعاً: إن كان ما اغتاب في المسلم من عيب غير موجود فيه فليحمد الله وليشكره على نعمته.

خامساً: من اغتابه على سبيل التنقيص والاحتقار، فاز بحسنات يوم القيامة فهو يأخذ الحسنات والمغتاب يكسب السيئات والأوزار.

سادساً: أن يتصور حين يغتاب أخاه المسلم أنه كمن يأكل لحمه وهو ميت.

سابعاً: أن يتذكر وهو يغتاب أنه يأكل وينهش في لحم أخيه المسلم.

ثامناً: أن يتذكر موقفه يوم القيامة عند الحساب ذليلاً كبلته الذنوب وأحاطت به الأوزار..

الخامس: أن يكون مجاهراً بفسقه، أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر وتولي الأمور الباطلة فيجوز ذكره بما يُجاهر به، ويحرم ذكره بغيره من العيوب إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذُكر.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفاً بلقب، كالأعمش والأعرج، والأصم، والأعمى، والأحول، جاز تعريفهم بذلك، ويحرم إطلاقه على جهة التنقص، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى.

أخي الحبيب:

إن ضعفت عن ثلاث، فعليك بثلاث، إن ضعفت عن الخير فأمسك عن الشر، وإن كنت لا تستطيع أن تنفع الناس، فأمسك عنهم ضرك، وإن كنت لا تستطيع أن تصوم فلا تأكل لحوم الناس[١].

روي عن **الحسن** أن رجلاً قال: إن فلاناً قد اغتابك، فبعث إليه طبقاً من الرطب، وقال: بلغني أنك أهديت إليّ حسناتك، فأردت أن أكافئك عليها، فاعذرني، فإني لا أقدر أن أكافئك بها على التمام[٢].

وذكر عن **أبي أمامة الباهلي** ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: إن العبد ليُعطى كتابه يوم القيامة فيرى فيه حسنات لم يكن عملها، فيقول يارب: من أين لي هذا؟

فيقول: هذا بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر[٣].

فيا عجباً ندري بنارٍ وجنةٍ
وليس لذي نشتاق أو تلك نحذرُ

---

(١) تنبيه الغافلين ص ١٧٩.
(٢) تنبيه الغافلين ص ١٧٦، الإحياء ٣/ ١٦٤.
(٣) تنبيه الغافلين ص ١٧٧.

إذا لم يكـــن خـــوفٌ ولا شـــوقٌ ولا حيـــا
فمـــاذا بقـــي فينـــا مـــن الخير يـــذكـــرُ
ولسنـــــا صـــــابـــــريـــــن ولا بلى
فكيـــــف على النيران يـــــا قـــــوم نصبر
وفـــوت جنـــاتِ الخلـــد أعظـــم حسرة
على تلـــــــك فليتحسر المتحسِّـــــــرُ

روى خالد الربعي قال: كنت في المسجد الجامع، فتناولوا رجلاً، فنهيتهم عن ذلك، فكفوا وأخذوا في غيره، ثم عادوا إليه، فدخلت معهم في شيء من أمره، فرأيت تلك الليلة في المنام كأني أتاني رجل أسود طويل، ومعه طبق عليه قطعة من لحم خنزير، فقال لي: كُل، فقلت: آكل لحم خنزير؟ والله لا آكله، فانتهرني انتهاراً شديداً، وقال: قد أكلت ماهو شرٌّ منه، فجعل يدسه في فمي، حتى استيقظت من منامي، فوالله لقد مكثت ثلاثين يوماً أو أربعين يوماً، ما أكلت طعاماً، إلا وجدت طعم ذلك اللحم ونتنه في فمي[1].

وذكر عن إبراهيم بن أدهم، أنه قال: يا مُكذب.. بخلت بدنياك على أصدقائك، وسخوت بآخرتك على أعدائك، فلا أنت فيما بخلت به معذور، ولا أنت فيما سخوت به محمود[2].

أخي الحبيب:

خـــــلِّ جنبيـــــك لـــــرام
وامـــــض عنـــــه بســـــلام

---

(١) تنبيه الغافلين ص ١٧٧.
(٢) المرجع السابق.

مُـــتْ بـــداءِ الصَّمـــتِ خيـــرٌ
لـــكَ مِـــنْ داءِ الكـــلام[١]

والكثير ـ بحمد الله ـ تتحرك الكلمة على لسانه وتضطرم في صدره ولكنه يمنعها مخافة من الله ـ عزّ وجل ـ ورغبة فيما عنده، أولئك ـ الأحبة ـ الذين قدموا الباقية على العاجلة . . جعلنا الله منهم، ورزقنا نصيباً من صمتهم وسكوتهم عما حرم الله .

* ذُكر عن **عيسى بن مريم** ـ عليه السلام ـ: أنه قال لأصحابه: أرأيتم لو أتيتم على رجل قائم، قد كشف الريح عند بعض عورته كنتم تسترون عليه؟

قالوا: نعم، قال: بل كنتم تكشفون البقية، قالوا: سبحان الله!! كيف نشكف اليقية؟

قال: أليس يذكر عندكم الرجل، فتذكرونه بأسوأ ما فيه، فأنتم تكشفون بقية الثوب عن عورته .

حمانا الله وإياكم كشف عورات المسلمين وهتك أعراضهم والخوض فيها . . باللسان وغيره .

اعلم ـ أخي ـ أن الذكر باللسان إنما حُرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه، فالتعريض به كالتصريح، والفعل فيه كالقول، والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة، وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام .

فمن ذلك قول **عائشة** ـ رضي الله عنها ـ دخلت علينا امرأة فلما ولت، أومأت بيدي أنها قصيرة، فقال ـ عليه السلام ـ «**اغتبتيها**» ومن ذلك المحاكاة

---

(١) تاريخ بغداد ١٤/ ١٩٣ .

يمشي متعارجاً أو كما يمشي فهو غيبة، بل هو أشد من الغيبة، لأنه أعظم في التصوير والتفهيم. . وكذلك الغيبة بالكتابة فإن القلم أحد اللسانين[١].

روى عن **جابر بن عبدالله** ـ رضي الله عنهما ـ قال: هاجت ريح منتنة على عهد رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «**إن أناساً من المنافقين، قد اغتابوا أناساً من المسلمين فلذلك هاجت هذه الريح النتنة**»[٢].

وقيل لبعض الحكماء: ما الحكمة في أن ريح الغيبة ونتنها كانت تتبين على عهد رسول الله ﷺ ولا تتبين في يومنا هذا؟ قال: لأن الغيبة قد كثرت في يومنا، فامتلأت الأنوف منها، فلم تتبين الرائحة، وهي النتن، ويكون مثال هذا، مثال رجل دخل دار الدباغين، لا يقدر على القرار فيها من الشدة الرائحة، وأهل تلك الدار، يأكلون فيها الطعام، ويشربون الشراب ولا تتبين لهم الرائحة، لأنه قد امتلأت أنوفهم منها. كذلك أمر الغيبة في يومنا هذا[٣].

ولننظر إلى صفاء النفوس. . ورفعة النفس وقبل ذلك طاعة الله ـ عزّ وجل ـ ورسوله ﷺ.

ذكر عن **وهب المكي** أنه قال: لأن أدع الغيبة، أحب إليّ من أن تكون لي الدنيا ومافيها، منذ خُلقتُ إلى أن تفنى، فأجعلها في سبيل الله ـ تعالى ـ ولأن أغض بصري عما حرم الله ـ تعالى ـ، أحب إليَّ من أن تكون لي الدنيا وما فيها فأجعلها في سبيل الله ثم تلا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢] وتلا قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠][٤].

---

(١) الإحياء ٣/ ١٥٤.
(٢) رواه أحمد وأبو عوانة والبخاري في الأدب المفرد.
(٣) تنبيه الغافلين ص ١٧٥.
(٤) المصدر السابق ص ١٧٩.

ومع الأسف انتشر في مجالس بعض القوم من جعل الغيبة مصدر رزق له فيُسأل عن فلان.. فيتحدث حديثاً بين الجد والهزل تتبعه ضحكات القوم.. ويسترسل في الغيبة ونهش أعراض المسلمين على سبيل الإضحاك.. فلا يبقى لحماً لمسلم لم يأكله، ولا يبقي عظماً لآخر لم ينهشه.. ويُكافأ على ما حرم الله بمليء بطنه أو بمليء كُمه.. يُستظرف حديثه.. ويُستخف دمه.. ليعيث غيبة في أعراض المسلمين.

وكان جزاؤه في ما سبق إسكاته أو إخراجه من المجالس لكي لا يفسدها بمعصية الله ـ جل وعلا ـ وفي بعض المجالس الآن يسأل عن غيابه ولماذا لم يأت ـ فسبحان الله ـ.

ولربما رأيته في مجلس آخر ينهش أعراض من تعشى معهم مساء البارحة.

فانظروا إلى العدل في المعاملة.

أما في مجتمع بعض النساء.. فالحديث لا يُمل.. والإنصات مستمر.. ولو تأملت المتحدثة لرأيتها تجول وتصول في الأعراض.

عن **يحيى بن معاذ** قال: ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال لتكون من المحسنين.

إحداها: إنك إن لم تنفعه، فلا تضره.

والثانية: إن لم تسره، فلا تغمه.

والثالثة: إن لم تمدحه، فلا تذمه[1].

أخي الحبيب:

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما عُرج بي مررت**

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٨.

بقوم لهم أظفارٌ من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم». [رواه أبو داود].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت**»-[متفق عليه].

وهذا الحديث صريحٌ في أنه ينبغي أن لا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيراً، وهو الذي ظهرت مصلحته، ومتى شك في ظهور المصلحة فلا يتكلم[(١)].

أخي الحبيب:

هذا اللسان الكريه، العاصي لربه.. هل نتركه يُلوِّث مجالسنا ويُحبط أعمالنا..

انظر لِعظم أجر إسكات المغتاب والرد عليه والدفاع عن أعراض المسلمين وعرضك من أعراضهم ولسان المغتاب ربما افترى عليك في مجلس أنت غائب عنه.

عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**من رد عن عرض أخيه، رد الله عن وجهه النار يوم القيامة**» [رواه الترمذي وقال: حديث حسن].

وعن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «**من حمى مؤمنا من منافق يغتابه، بعث الله ـ تعالى ـ إليه ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مؤمناً بشيء يريد شينه حبسه الله ـ تعالى ـ على جسر جهنم حتى يخرج مما قال**» [رواه أحمد وأبو داود].

وعن النبي ﷺ أنه قال: «**مامن امريء يخذل امرءاً مسلماً في موضع**

---

(١) رياض الصالحين ص ٤١٨.

تُنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله تعالى في مواطن يحب فيها نصرته، ومامن امريء ينصر امرءاً مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله ـ عز وجل ـ في موطن يحب فيها نصرته» [تفرد به أبوداود].

قال **كعب الأحبار**: قرأت في كتب الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أن من مات تائباً من الغيبة، كان آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصراً عليها، كان أول من يدخل النار[١].

وروي أن رجلاً أتى **ابن سيرين** فقال: إني اغتبتك فاجعلني في حل فقال: وكيف أحلُّ ما حرم الله؟

فكأنه أشار إليه بالاستغفار، والتوبة إلى الله تعالى مع استحلاله منه[٢].

وقال عبدالله بن المبارك: **قلت لسفيان الثوري**: ياأبا عبدالله ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة، ماسمعته يغتاب عدوًّا له قط، فقال: هو أعقل من أن يسلط على حسناته ما يُذهبها.

أخي:

هذه أعراض المسلمين فكما أنك لا تقبل أن يكون عرضك حديث المجالس فكيف تقبل هذا لمسلم مثلك.. فربما إذا استمعت للمغتاب اليوم استمع لغيبتك غداً، ولكن رُدَّ عن أعراض المسلمين ليَرُدَّ الله عنك.. ولا تقبل أن يكون مجلسك مجلس سوءٍ وشر.

---

(١) تنبيه الغافلين ص ١٧٧.

(٢) المصدر السابق ص ١٧٩.

كفارة الغيبة

تؤرقنا تلك الهنات.. وتزل ألسنتنا.. فكيف الطريق إلى محو السيئات وإقالة العثرات.

تنازع العلماء في كفارة المغتاب ولكنهم اتفقوا جميعاً على توبته كخطوة أولى.

وقال **العلماء**: إن التوبة واجبة من كل ذنب.

وشروط توبة المغتاب أربعة:

أولاً: أن يقلع عن الغيبة.

ثانياً: أن يندم على فعلها.

ثالثاً: أن يعزم على أن لا يعود إليها أبداً.

رابعاً: استحلال من وقع في غيبته، فإن لم تبلغ إلى صاحبه تلك الغيبة أو خشي أن يصيبه ضرر من إخباره، فتوبته أن يستغفر الله ـ تعالى ـ له.

أخي الكريم:

هذه شروط التوبة.. وهذا طريق الطاعة.. وإذا كان من الصعوبة استحلال من نغتابهم فإن الأمر الأسهل حفظ ألسنتنا وجوارحنا.

هيا نبادر وخيرنا من إذا سمع وعى وإذا ذُكِّر ذكر.. وإذا عُوتب أناب وعاد..

فاللهم سلم المسلمين منا وسلمنا من المسلمين ياأرحم الراحمين.

النميمة

حرم الله على المؤمنين ما يوقع بينهم العداوة والبغضاء كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة: ١٩].

وامتنَّ على عباده بالتأليف بين قلوبهم كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ٣][1].

وكل أمرٍ يقطع وشائج المحبة وينقض عُرى الأخوة فهو مما حذر الله منه فإن المؤمنين أخوة يجمعهم الخير والتآزر والتآلف.

ولهذا المعنى حُرم المشي بالنميمة لما فيها إيقاع العداوة والبغضاء وإحلال التدابر والتفرق مكان المحبة والاجتماع.

والنميمة: من آفات اللسان وتطلق في الغالب على نقل قول إنسان في إنسان.

مثل أن يقول: قال فيك فلان كذا وكذا، وليست مخصوصة بهذا.

بل حدها: كشف ما يُكره كشفه سواءً كان من الأقوال أو الأعمال حتى لو رآه يدفن مالاً لنفسه فذكره.. فهو نمام[2].

وحقيقة النميمة: إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه، بل كل مارآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره، فينبغي أن يسكت عنه إلا في حكايته

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٣٢٨.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ١٧٤.

فائدة لمسلم أو دفعٌ لمعصية، كما إذا رأى من يتناول مال غيره، فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له، فأما إذا رآه يخفي مالاً لنفسه فذكره فهو نميمة وإفشاء للسر.

فإن كان ما ينم به نقصاً وعيباً في المحكي عنه، كان قد جمع بين الغيبة والنميمة[١].

والباعث على النميمة قلة الخوف من الله جل وعلا وعدم مراقبته.

وكذلك إما إرادة السوء للمحكي عنه أو إظهار الحب والتقرب للمحكي له.

أو لتفرج بالحديث والخوض في الفضول والباطل.

كما أن التشفي والحسد والغيظ من أهم دوافع النميمة.

والنميمة خصلةٌ ذميمة قال الله ـ تعالى ـ: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم: ١١]، ثم قال: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [القلم: ٦٨].

قال **عبدالله بن المبارك**: الزنيم، ولد الزنا الذي لا يكتم الحديث وأشار به إلى من لم يكتم الحديث ومشى بالنميمة دل على أنه ولد زنا استنباطاً من الآية الكريمة[٢].

وقال ﷺ: «**لا يدخل الجنة قتات**» [رواه البخاري ومسلم] وهو النمام.

فإذا لم يدخل الجنة لم يكن مأواه إلا النار لأنه ليس هناك إلا الجنة أو النار فإذا ثبت أنه لا يدخل الجنة ثبت أن مأواه النار[٣].

وعن **ابن عباس** ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال: مر النبي ﷺ بقبرين

---

(١) الإحياء ٣/ ١٦٥.

(٢) مكاشفة القلوب ص ٤٥٣.

(٣) تنبيه الغافلين ص ٨٩.

جديدين فقال: : «**إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة، ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين وغرز في كل قبر واحدة، فقالوا: يا رسول الله لم صنعت هذا؟ فقال: لعله أن يخفف عنهما مالم ييبسا**» [رواه البخاري].

ومعنى قوله: «**وما يعذبان في كبير**» يعني ليس بكبيرة عندكم ولكنه كبيرة عند الله»[(١)].

وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾ [المسد: ٤] قال أكثر المفسرين: إن الحطب أراد به النميمة وإنما سميت النميمة حطبا، لأنها سبب للعداوة والقتال فصار بمنزلة إيقاد النار[(٢)].

والنميمة حرام لما فيها من السعي بالوشاية بين الناس وإفساد قلوبهم وتغيير أخلاقهم وطبائعهم..

كان **بكر بن عبدالله** يقول: عليكم بأمر إن أصبتم أُجرتم، وإن أخطأتم لم تأثموا، وإياكم وكل أمر إن أصبتم لم تؤجروا وإن أخطأتم أثمتم، قيل: وما هو؟ قال: سوء الظن بالناس، فإنكم لو أصبتم لم تؤجروا، وإن أخطأتم أثمتم[(٣)].

وكان **سليمان بن عبدالملك** جالساً وعنده الزهري، فجاءه رجل فقال له سليمان: بلغني أنك وقعت فيّ وقلت كذا وكذا، فقال الرجل: ما فعلت ولا قلت: فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق، فقال له الزهري: لا

---

(١) تنبيه الغافلين ص ٨٩.
(٢) المرجع السابق.
(٣) حلية الأولياء ٢/ ٢٢٦.

جديدين فقال: : «**إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة، ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين وغرز في كل قبر واحدة، فقالوا: يا رسول الله لم صنعت هذا؟ فقال: لعله أن يخفف عنهما مالم ييبسا**» [رواه البخاري].

ومعنى قوله: «**وما يعذبان في كبير**» يعني ليس بكبيرة عندكم ولكنه كبيرة عند الله»[(١)].

وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾ [المسد: ٤] قال أكثر المفسرين: إن الحطب أراد به النميمة وإنما سميت النميمة حطبا، لأنها سبب للعداوة والقتال فصار بمنزلة إيقاد النار[(٢)].

والنميمة حرام لما فيها من السعي بالوشاية بين الناس وإفساد قلوبهم وتغيير أخلاقهم وطبائعهم..

كان **بكر بن عبدالله** يقول: عليكم بأمر إن أصبتم أُجرتم، وإن أخطأتم لم تأثموا، وإياكم وكل أمر إن أصبتم لم تؤجروا وإن أخطأتم أثمتم، قيل: وما هو؟ قال: سوء الظن بالناس، فإنكم لو أصبتم لم تؤجروا، وإن أخطأتم أثمتم[(٣)].

وكان **سليمان بن عبدالملك** جالساً وعنده الزهري، فجاءه رجل فقال له سليمان: بلغني أنك وقعت فيّ وقلت كذا وكذا، فقال الرجل: ما فعلت ولا قلت: فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق، فقال له الزهري: لا

---

(١) تنبيه الغافلين ص ٨٩.
(٢) المرجع السابق.
(٣) حلية الأولياء ٢/ ٢٢٦.

مثِّـــل لقلبـــك أيهـــا المغـــرور
يـــوم القيـــامـــة والسمـــاء تمـــور
قـــد كـــورت شمـــس النهـــار وصغفـــت
حـــرًّا على رأس العبـــاد تفـــورُ
وإذا الجبـــال تقلعـــت بـــأصـــولهـــا
فـــرأيتهـــا مثـــل السحـــاب تسير
وإذا العشـــار تعطلـــت عـــن أهلهـــا
خلـــت الـــديـــار فمـــا بهـــا مغـــرورُ
وإذا الجنين بـــأمـــه متعلـــقٌ
خـــوف الحســـاب وقلبـــه مـــذعـــور
هـــذا بـــلا ذنـــبٍ يخـــاف لهـــولـــه
كيـــف المقيـــم على الـــذنـــوب دهـــور[1]

رفع بعض السعاة إلى الصاحب بن عباد رقعةً نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته، فوقع على ظهرها: السعاية قبيحة، وإن كانت صحيحة، فإن كنت أجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها أفضل من الربح، ومعاذ الله أن نقبل مهتوكاً في مستور، ولو لا أنك في خفارة شيتك، لقابلناك بما يقتضيه فعلك في مثلك، فتوق العيب، فإن الله أعلم بالغيب، الميت ـ رحمه الله ـ، واليتيم جبره الله، والمال ثمرة الله، والساعي لعنه الله[2].

هذه النميمة لو لقيت باباً مفتوحاً لتعدت على مال يتيم والله ـ تعالى ـ

---

(١) عقود اللؤلؤ ص ٣٥٢.
(٢) الإحياء ٣/ ١٦٧.

يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

فانظر إلى أين يصير وأين مستقره؟ والعياذ بالله ولكن رحم الله من رده مثل الصاحب ذليلاً فهذا أقل ما يقابل به.

قال **أكثم بن صيفي**: الأذلاء أربعة: النمام والكذاب والمديون واليتيم[(١)].

فالواجبِ على النمام أن يتوب إلى الله ـ تعالى ـ فإن النمام ذليل في الدنيا وهو في عذاب القبر بعد موته، وهو في النار يوم القيامة، آيس من رحمة الله ـ تعالى ـ، فإن تاب قبل موته تاب الله عليه[(٢)].

قال **يحيى بن أكثم**: النمام شرٌّ من الساحر، ويعمل النمام في ساعة مالا يعمل الساحر في شهر[(٣)].

بكلمةٍ واحدةٍ يفرَّق بين زوج وزوجته وبأخرى يُقطِّعُ الأرحام ويسبب العداوات وهو في كل ذلك ينمُّ لك اليوم وينم عليك غدا.

قال **الشافعي**: من نَمَّ لك نم عليك[(٤)].

وهذه إشارة إلى أن النمَّام ينبغي أن يُبغض ولا يُوثق بقوله ولا بصداقته.. لأنه لا يخاف من الله ـ عزّ وجل ـ فهذا ديدنه وتلك مهنته.. يُحب الفُرقة ويزرع الشتات، لا يهنأ بعيش وهو يرى الاجتماع والائتلاف.

---

(١) تنبيه الغافلين ص ٨٩.
(٢) تنبيه الغافلين ص ٨٩.
(٣) المرجع السابق.
(٤) السير ١٠/ ٩٩.

مِـــل عـــن النمـــام وازجُـــرهُ فمـــا
بلـــغ المكـــروه إلا مـــن ثقـــلِ

رُوي عن علي ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً سعى إليه برجل فقال له: ياهذا نحن نسأل عما قلت، فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك، فقال: أقلني يا أمير المؤمنين[١].

ويقال: عمل النمام أضر من عمل الشيطان لأن عمل الشيطان بالخيال والوسوسة، وعمل النمام بالمواجهة والمعاينة[٢].

أخي الحبيب:

مـــن نـــمّ في النـــاس لم تـــؤمـــن عقـــاربـــه
على الصـــديـــق ولم تـــؤمـــن أفـــاعيـــه
كـــالسيـــل بـــالليـــل لا يـــدري بـــه أحـــدُ
مـــن أيـــن جـــاء ولا مـــن أيـــن يـــأتيـــه
الـــويـــل للعهـــد منـــه كيـــف ينقضـــه
والـــويـــل للـــودِّ منـــه كيـــف ينعيـــه[٣]

قال رجل لعبد الله بن عمر ـ وكان أميراً ـ بلغني أن فلاناً أعلم الأمير أني ذكرته بسوء قال: قد كان ذلك، قال: فأخبرني بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك؟ قال: ما أحب أن أشتم نفسي بلساني، وحسبي إني لم أصدقه فيما قال، ولا أقطع عنك الوصال[٤].

---

(١) الإحياء ٣/١٦٦.
(٢) تنبيه الغافلين ص ٨٩.
(٣) مكاشفة القلوب ص ٣٥٤.
(٤) الإحياء ٣/١٦٦.

مِـــل عـــن النمـــام وازجُـــرهُ فمـــا
بلـــغ المكـــروه إلا مـــن ثقـــلِ

رُوي عن علي ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً سعى إليه برجل فقال له: ياهذا نحن نسأل عما قلت، فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك، فقال: أقلني يا أمير المؤمنين[١].

ويقال: عمل النمام أضر من عمل الشيطان لأن عمل الشيطان بالخيال والوسوسة، وعمل النمام بالمواجهة والمعاينة[٢].

أخي الحبيب:

مـــن نـــمّ في النـــاس لم تـــؤمـــن عقـــاربـــه
على الصـــديـــق ولم تـــؤمـــن أفـــاعيـــه
كـــالسيـــل بـــالليـــل لا يـــدري بـــه أحـــدُ
مـــن أيـــن جـــاء ولا مـــن أيـــن يـــأتيـــه
الـــويـــل للعهـــد منـــه كيـــف ينقضـــه
والـــويـــل للـــودِّ منـــه كيـــف ينعيـــه[٣]

قال رجل لعبد الله بن عمر ـ وكان أميراً ـ بلغني أن فلاناً أعلم الأمير أني ذكرته بسوء قال: قد كان ذلك، قال: فأخبرني بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك؟ قال: ما أحب أن أشتم نفسي بلساني، وحسبي إني لم أصدقه فيما قال، ولا أقطع عنك الوصال[٤].

---

(١) الإحياء ٣/١٦٦.
(٢) تنبيه الغافلين ص ٨٩.
(٣) مكاشفة القلوب ص ٣٥٤.
(٤) الإحياء ٣/١٦٦.

روي عن **حماد بن سلمة** أنه قال: باع رجلٌ غلاماً، فقال للمشتري: ليس فيه عيب إلا أنه نمَّام، فاستخفه المشتري فاشتراه على ذلك العيب، فمكث الغلام عنده أياماً، ثم قال لزوجة مولاه: إن زوجك لا يُحبك وهو يريد أن يتسرى عليك، أفتريدين أن يعطف عليك؟ قالت: نعم، قال لها: خذي الموسى واحلقي شعرات من باطن لحيته إذا نام، ثم جاء إلى الزوج وقال: إن امرأتك تخادنت (يعني اتخذت خليلاً) وهي قاتلتك، أتريد أن يتبين لك ذلك؟

قال: نعم، قال: فتناوم لها، فتناوم الرجل، فجاءت امرأته بموسى لتحلق الشعرات فظن الزوج أنها تريد قتله. فأخذ منها الموسى فقتلها، فجاء أولياؤها فقتلوه، فجاء أولياء الرجل ووقع القتال بين الطرفين[1].

أخي المسلم:

يجب على كل من حملت إليه النميمة وقيل له: إن فلاناً قال فيك كذا وكذا، أو فعل في حقك كذا، أو هو يدبر في إفساد أمرك، أو في ممالأة عدوّك أو تقبيح حالك أو ما يجري مجراه، فعليه ستة أمور:

الأول: أن لا يُصدقه لأن النمَّام فاسق وهو مردود الشهادة.

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله.

الثالث: أن يبغضه في الله ـ تعالى ـ فإنه بغيضٌ عند الله ـ تعالى ـ ويجب بغض من يبغض الله ـ تعالى ـ.

الرابع: أن لا تظن بأخيك الغائب السوء.

---

(١) تنبيه الغافلين ص ٨٩.

الخامس: أن لا يحملك ما حكي لك على التجسس والبحث للتحقق.

السادس: أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه، ولا تحكي نميمته فتقول: فلان قد حكي لي كذا وكذا، فتكون به نماماً ومغتاباً وقد تكون أتيت ما عنه نهيت[1].

(١) الإحياء ٣/ ١٦٥.

أعظم من الغيبة والنميمة

وأعظم ـ أخي الكريم ـ من الغيبة والنميمة هذا الذي يتردد بين المتعاديين، ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه.

قال ﷺ: «**من كان له وجهان في الدنيا كان له لساناً من نار يوم القيامة**»[١].

وقال ﷺ: «**تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث**» [أخرج الشيخان نحوه وهو عند ابن أبي الدنيا بهذا اللفظ].

فإن قلت: بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حّد ذلك؟ فأقول: إذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقاً فيه لم يكن منافقاً ولا ذا لسانين، فإن الواحد قد يصادق متعاديين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهي إلى حد الأخوة، إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء، نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شرٌ من النميمة[٢].

ومن ذي الوجهين: من يمدح الإنسان في وجهه ويبالغ في ذلك لقصد دنيوي ثم في غيبته يذمه عند الناس ويعيبه وهكذا يفعل مع أغلب من لا يناسبه.

فلا تكن أخي المسلم عوناً للشيطان بتفريق وتمزيق المحبة والألفة بينهم

---

(١) رواه أبو داود وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٨٨٩.

(٢) الإحياء ٣/١٦٨.

أعظم من الغيبة والنميمة

وأعظم ـ أخي الكريم ـ من الغيبة والنميمة هذا الذي يتردد بين المتعاديين، ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه.

قال ﷺ: «**من كان له وجهان في الدنيا كان له لساناً من نار يوم القيامة**»[١].

وقال ﷺ: «**تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث**» [أخرج الشيخان نحوه وهو عند ابن أبي الدنيا بهذا اللفظ].

فإن قلت: بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حّد ذلك؟ فأقول: إذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقاً فيه لم يكن منافقاً ولا ذا لسانين، فإن الواحد قد يصادق متعاديين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهي إلى حد الأخوة، إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء، نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شرٌ من النميمة[٢].

ومن ذي الوجهين: من يمدح الإنسان في وجهه ويبالغ في ذلك لقصد دنيوي ثم في غيبته يذمه عند الناس ويعيبه وهكذا يفعل مع أغلب من لا يناسبه.

فلا تكن أخي المسلم عوناً للشيطان بتفريق وتمزيق المحبة والألفة بينهم

---

(١) رواه أبو داود وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٨٨٩.

(٢) الإحياء ٣/١٦٨.

الكذب

الكذب من قبائح الذنوب وفواحش العيوب.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**»[متفق عليه].

وقال ﷺ: «**أربع من كن فيه، كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلةٌ من نفاقٍ حتى يدعها: إذا أئتمنَ خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**» [متفق عليه].

وقال ﷺ: «**لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**»..

فالكذب على الشخص حرامٌ سواءً كان الرجل مسلماً أو كافراً، برًّا أو فاجراً، لكن الافتراء على المؤمن أشد، بل الكذب كله حرام[١].

أخي الحبيب:

إياك والكذب فإنه يُفسد عليك تصور المعلومات على ماهي عليه، ويُفسد عليك تصويرها وتعليمها للناس، فإن الكاذب يُصوِّر المعدوم موجوداً، والموجود معدوماً، والحق باطلاً، والباطل حقاً، والخير شرًّا والشر خيراً، فيفسد عليه تصوره وعلمه عقوبة له، ونفس الكاذب معرضة

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٢٣.

عن الحقيقة الموجودة نزاعة إلى العدم مؤثرة للباطل[١].

والكذب أساس الفجور كما قال ﷺ: «**إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار**».

وأول ما يسرى الكذب من النفس إلى اللسان فيفسده ثم يسري إلى الجوارح فيفسد عليها أعمالها كما أفسد اللسان أقواله، فيعم الكذب أقواله وأعماله وأحواله، فيستحكم عليه الفساد ويترامى داؤه إلى الهلكة إن لم يتداركه الله بدواء الصدق يَقْلَعُ تلك المادة من أصلها[٢].

قال **مالك بن دينار**: الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يُخرج أحدهما صاحبه[٣].

وقال **الحسن**: تكلم قومٌ عند معاوية ـ رحمه الله ـ والأحنف ابن قيس ساكت، فقال له: مالك يا أبا بحر لا تتكلم؟ فقال له: أخشى الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت[٤].

وقد قال **عمر بن عبدالعزيز** ـ رضي الله عنه ـ: ما كذبت منذ علمت أن الكذب يضر أهله[٥].

فالكذب ـ ياأخي ـ يسقي باب كل شر، كما يسقي الماء أصول الشجر[٦].

---

(١) الفوائد ص ١٧٨.
(٢) الفوائد ص ١٧٨.
(٣) الإحياء ٣/ ١٤٦.
(٤) الإحياء ٣/ ١٢٠.
(٥) السير ٥/ ١٢١.
(٦) كتاب الصمت ص ٢٥٠.

ولأنه باب كل شر قال الإمام **الشافعي** ـ رحمه الله تعالى ـ: ما حلفت بالله صادقاً ولا كاذباً[١].

وافترى رجل على **زين العابدين بن الحسين** فقال له: إن كنت كما قلت فأستغفر الله، وإن لم أكن كما قلت، فالله يغفر لك، فقبل رأسه وقال: جعلت فداك لست كما قلت، فاغفر، قال: غفر الله لك[٢].

وقال رجل **للشعبي** كلاماً أقذع فيه. فقال له: إن كنت صادقاً غفر الله لي وإن كنت كاذباً غفر الله لك[٣].

وأصل أعمال القلوب كلها الصدق، وأضدادها من الرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والبطر والأشر والعجز والجبن والمهانة وغيرها أصلها الكذب، فكل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق، وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب، والله تعالى يعاقب الكذاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته، فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق، ولا مفاسدهما ومضارهما بمثل الكذب[٤].

لا يكذب المرء إلا في مهانته
أو مفعلة السوء أو من قلة الأدب

ولقد استرسل بعض الناس في الكذب وعدوه ممدحة وذكاء، والكذب هو الكذب لأي سبب كان، قال عبدالله بن عامر: جاء رسول الله ﷺ إلى

---

(١) السير ١٠/ ٣٦.
(٢) شذرات الذهب ١/ ١٠٥.
(٣) وفيات الأعيان ٣/ ١٤.
(٤) الفوائد ص ١٧٨.

بيتنا وأنا صغير، فذهبت لألعب فقالت أمي: يا عبدالله تعال حتى أعطيك، فقال رسول الله ﷺ: «**وما أردت أن تعطيه**» قالت: تمراً، فقال: «**أما إنك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة**» [رواه أبو داود وأحمد وحسنه الألباني].

روي عن **أبي عبدالرحمن الخريبي** قال: ما كذبت إلا مرة واحدة، قال لي أبي قرأت على المعلم؟ قلت: نعم، ولم أكن قرأت[١].

وسمع **طلحة بن أبي مصرف** رجلاً يعتذر إلى رجل فقال: لا تكثر الاعتذار إلى أخيك أخاف أن يبلغ بك الكذب[٢].

وقال **علي بن أبي طالب** ـ رضي الله عنه ـ: أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب وشر الندامة ندامة يوم القيامة[٣].

لعمرك ما للمرء كالرب حافظٌ
ولا مثل عقل المرء للمرء حافظٌ
لسانك لا يُلقيك في الغيِّ لفظُه
فإنك مأخوذٌ بما أنت لافظٌ[٤]

أخي الحبيب: لنرى مدى الوفاء بوعودهم وصدق حديثهم.. لما حضرت **عبدالله بن عمرو** الوفاة قال: إنه كان خطب إليَّ ابنتي رجل من قريش، وقد كان مني إليه شبيه الوعد، فوالله لا ألقى الله ـ عزّ وجل ـ بثلث النفاق، اشهدوا أني قد زوجتها إياه[٥].

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/٣٣٨.
(٢) حلية الأولياء ٥/١٧.
(٣) الإحياء ٣/١٤٦.
(٤) كتاب الصمت ص ٣٠٥.
(٥) صفة الصفوة ١/٦٥٩.

أدبـــت نفسي فمـــا وجـــدت لهـــا
مـــن بعـــد تقـــوى الله مـــن أدب
في كـــل حـــالاتهـــا وإن قصرت
أفضـــل مـــن صمتهـــا عـــن الكـــذب
وغيبـــة النـــاس إن غبتهـــم
حـــرمهـــا ذو الجـــلال في الكتـــب
إن كـــان مـــن فضـــة كـــلامـــك يـــا
نفـــس فـــإن السكـــوت مـــن ذهـــب[١]

* جاءت أخت **الربيع بن خيثم** عائدة إلى بني له، فانكبت عليه، فقالت: كيف أنت يابنيّ؟ فقال الربيع: أرضعتيه؟ قالت: لا، قال: ما عليكِ لو قلت يابن أخي، فصدقتِ[٢].

وهذا **عمر بن عبدالعزيز** ـ رحمه الله تعالى يقول: ماكذبت كذبة منذ شددت على إزاري[٣].

وحين **سُئل خالد بن صبيح**: أيُسمَّى الرجل كاذباً بكذبة واحدة؟ قال: نعم[٤].

وكانوا من شدة حرصهم على توخي الصدق يعدون زلات لسانهم فهذا **الأحنف بن قيس** يقول: ما كذبت منذ أسلمت إلا مرةً واحدةً، فإن عمر

---

(١) كتاب الصمت ص ٣١٢.
(٢) كتاب الصمت ص ٢٥٥.
(٣) كتاب الصمت ص ٢٤١.
(٤) الإحياء ٣/١٤٦.

سألني عن ثوب: بكم أخذته؟ فأسقطت ثلثي الثمن[١].

لنرى بعضاً من خلق الإمام **أبي حنيفة** ـ رحمه الله تعالى ـ كان أبو حنيفة قد جعل على نفسه أن لا يحلف بالله في عرض كلامه إلا تصدق بدرهم، فحلف فتصدق به، ثم جعل أن يتصدق بدينار، فكان إذا حلف صادقاً في عرض الكلام تصدق به، وكان إذا أنفق على عياله نفقة تصدق بمثلها، وكان إذا اكتسى ثوباً جديداً كسى بقدر ثمنه الشيوخ العلماء، وكان إذا وضع بين يديه الطعام أخذ منه فوضعه على الخبز حتى يأخذ منه بقدر ضعف ما كان يأكل، فيضعه على الخبز ثم يعطيه إنساناً فقيراً، فإذا كان في الدار من عياله إنسان يحتاج إليه دفعه إليه، وإلا أعطاه مسكيناً[٢].

أخي الحبيب:

هل نعجز أن نستفيد من بعض أفعالهم فنطبقها على أنفسنا شيئاً فشيئاً فالنفس إذا كان لديها الرغبة في الخير أعانها الله ووفقها. فلماذا لا نبادر ونعوِّد النفس على الخير والمعروف؟!.

عن أبي بردة بن عبدالله قال كان يقال: إن **ربعي بن حراش** ـ رضي الله عنه ـ لم يكذب كذباً قط، فأقبل ابناه من خرسان قد تأجلا فجاء العريف إلى الحجاج فقال: أيها الأمير: إن الناس يزعمون أن ربعي بن حراش لم يكذب قط، وقد قدم ابناه من خرسان وهما عاصيان، فقال الحجاج عليّ به، فلما جاء قال: أيها الشيخ، قال: ما تشاء؟ قال: مافعل ابناك؟ قال: الله المستعان خلفتهما في البيت، قال: لا جرم والله لا أسوؤك فيهما. هما لك[٣].

---

(١) كتاب الصمت ص ٢٥٣.
(٢) تاريخ بغداد ٣/ ٣٥٨.
(٣) كتاب الصمت ص ٢٢٩.

وما شيء إذا فكرت فيه
بأذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذي لا خير فيه
وأبعد بالبهاء من الرجال[١]

وقد نقل عن السلف أن في المعاريض مندوحة عن الكذب قال ـ رضي الله عنه ـ: أما في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب؟

وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب فأما إذا لم تكن له حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعاً، ولكن التعريض أهون.

وكان **إبراهيم النخعي** إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار قال للجارية: قولي له اطلبه في المسجد ولا تقولي له ليس هاهنا كيلا يكون كذباً.

وكان الشعبي إذا طلب في المنزل وهو يكرهه خط دائرة وقال للجارية: ضعي الأصبع فيها وقولي ليس هاهنا.

وهذا كله في موضع الحاجة فأما في غير موضع الحاجة فلا، لأن هذا تفهيم الكذب وإن لم يكن اللفظ كذباً فهو مكروه على الجملة[٢].

أخي الحبيب:

عود لسانك قول الخير تحظ به
إن اللسان لما عودت معتادُ
موكلُ بتقاضي ما سننت له
فاختر لنفسك وانظر كيف ترتادُ

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٢٥٣.
(٢) الإحياء ٣/ ١٤٩.

الاستهزاء*[١]

مما شاع بين الناس وفي بعض المجالس السخرية والاستهزاء وهو محرم قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ﴾ [الحجرات: ١١].

ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء[٢].

وأشد أنوع الأستهزاء: الاستهزاء بالدين وأهله، ولخطورته وعظم أمره فقد أجمع العلماء على أن الاستهزاء بالله وبدينه وبرسوله كفر بواح، يخرج من الملة بالكلية.

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: إن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفرٌ يكفر صاحبه بعد إيمانه[٣].

ولقد تُفنن في أنواع السخرية والاستهزاء فهناك من يهزأ بالحجاب وآخر بتنفيذ الأحكام الشرعية ولرجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نصيب من ذلك.. كما أن السنة أيضاً لها نصيب فهذا الاستهزاء باللحية وقصر الثوب وغيره.

ولنعلم خطورة الاستهزاء على دين الرجل.. ما نسمعه يُتلى في سورة التوبة: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ

---

(١) * هذا الموضوع لم يكن في أصل الكتاب ولأهميته أضفته على مافيه من قصور.

(٢) الإحياء ٣/ ١٤٠.

(٣) مجموع الفتاوى ٧/ ٢٧٣.

وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

وقد ورد في سبب نزولها أن رجلاً من المنافقين قال: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء فرفع ذلك إلى الرسول ﷺ فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته فقال يا رسول الله: إنما كنا نخوض ونلعب فقال: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة: ٦٥] إلى قوله ﴿مجرمين﴾ وإن رجليه لتسفعان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بسيف رسول الله ﷺ[1].

وثابت من سيرة رسول الله ﷺ أنه أرحم الناس بالناس، وأقبل الناس عذراً للناس، ومع ذلك كله لم يقبل عذراً لمستهزيء، ولم يلتفت لحجة ساخر ضاحك[2].

ولعلك ـ أخي ـ لحظت في الآية الكريمة أن الله شهد لهم بالإيمان قبل الاستهزاء فقال: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦].

ولقد فضح الله تعالى موقف المستهزئين بالمؤمنين فقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة: ٢١٢].

والبعض إذا قيل له هذا من باب الاستهزاء بالدين، قال: نحن لم نقصد الدين، ولم نقصد الرجل بذاته، بل نمزح ونمرح.. وما علم إلى أين يؤدي به هذا المرح وذاك المزاح؟

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١١١.
(٢) الاستهزاء بالدين وأهله ص ١١.

خزيٌ في الدنيا وعذاب في الآخرة.

هلاكٌ ودمارٌ في العاجلة.

وعذاب مقيم في الآجلة[١].

قال الله تعالى: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون: ٨ ـ ١١٠].

وقال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٨].

قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها جلساءه يهوي بها من أبعد من الثريا**» [رواه أحمد].

وعندما رأى **أبو الدرداء امرأة سليطة اللسان قال: لو كانت هذه خرساء لكان خيراً لها**[٢].

وقال عبدالله بن مسعود: لو سخِرتُ من كلب، لخشيتُ أن أكون كلباً، وإني أكره أن أرى الرجل فارغاً ليس في عمل آخرة ولا دنيا[٣].

وهذا **مالك بن دينار** يقول: كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة، وكفى المرء شرًّا أن لا يكون صالحاً ويقع في الصالحين[٤].

وكان **علي بن الحسين** يقول: لا يقول رجلٌ من الخير مالا يعلم، إلا

---

(١) الاستهزاء بالدين وأهله ص ٧١، يرجع للكتاب ففيه مباحث هامة واستشهادات جيدة.

(٢) كتاب الصمت ص ٨٩.

(٣) السير ١/ ٤٩٦.

(٤) صفة الصفوة ٣/ ٢٨٦.

أوشك أن يقول من الشر مالا يعلم[١].

فأحذر زلة لسان تزل بها الأقدام إلى نارٍ تلظى.. حمانا الله وإياكم من زلات اللسان ومن غضب الرحمن.

أخي الحبيب:

قال الرسول ﷺ لأصحابه: «**أتدرون من المفلس؟**» قالوا: يارسول الله المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

قال ﷺ: «**إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيام وزكاةٍ، ويأتي قد شتم هذا وسفك دم هذا وأكل مال هذا ونال من عرض هذاً وضرب هذا، فيؤخذ لهذا من حسناته ولهذا من حسناته فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم طرح في النار**» [رواه مسلم].

ولقد تحققت كثير من العقوبات على من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ أو بعباده الصالحين وأوليائه المتقين.

حكى ابن خلكان قال: بلغنا أن رجلاً يدعى أبا سلامة من ناحية بصرى كان فيه مجون واستهتار، فذكر عنده السواك وما فيه من الفضيلة فقال: والله لا أستاك إلا في المخرج (يعني دبره) فأخذ سواكاً فوضعه في مخرجه ثم أخرجه، فمكث بعده تسعة أشهر وهو يشكو من ألم البطن والمخرج، فوضع ولداً على صفة الجرذان له أربعة قوائم ورأسه كرأس السمكة وله أربعة أنياب بارزة وذنب طويل وأربعة أصابع وله دبر كدبر الأرنب، ولما وضعه صاح ذلك الحيوان ثلاث صيحات فقامت ابنة ذلك الرجل فرضحت رأس الحيوان الغريب وعاش ذلك الرجل بعد وضعه له يومين

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ١٢١.

ومات في الثالث، وكان يقول: هذا الحيوان قتلني وقطع أمعائي. قال ابن كثير: وقد شاهد ذلك جماعة من أهل تلك الناحية وخطباء ذلك المكان ومنهم من رأى ذلك الحيوان حيًّا، ومنهم من رآه بعد موته[1].

هذه قصة واحدة جرت في زمن مضى.. وهناك الكثير لو تتبعنا كُتب السير والتاريخ.

ونعود لعصرنا الحاضر يحدثنا العلامة أحمد محمد شاكر ـ رحمه الله ـ فيقول: (الشيخ طه حسين) طالباً في الجامعة المصرية القديمة، وتقرر إرساله في بعثه إلى أوربه فأراد حضرة السلطان حسين ـ رحمه الله ـ أن يُكرمه بعطفه ورعايته، فاستقبله في قصره استقبالاً كريماً، وحباه هدية قيمة المغزى والمعنى.

وكان من خطباء المساجد التابعين لوزارة الأوقاف. خطيب فصيح متكلم مقتدر، هو الشيخ محمد المهدي خطيب مسجد عزبان، وكان السلطان حسين ـ رحمه الله ـ مواظباً على صلاة الجمعة.

فصلّى الجمعة يوماً ما، بمسجد المبدولي القريب من قصر عابدين العامر، وندبت وزارة الأوقاف ذلك الخطيب لذلك اليوم، وأراد الخطيب أن يمدح عظمة السلطان، وأن ينوه بما أكرم (الشيخ طه حسين) وحُقَّ له أن يفعل، ولكن خانته فصاحته، وغلبه حبّ التعالي في المدح، فزلّ زلّةً لم تقم له قائمة من بعدها.

إذ قال أثناء خطبته «جاءه الأعمى، فما عبس في وجهه وما تولى»! وكان من شهود هذه الصلاة والدي الشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر سابقاً ـ رحمه

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٦٣، بستان العارفين ص ٥١.

الله ـ فقام بعد الصلاة يعلن الناس في المسجد أن صلاتهم باطلة، وأمرهم أن يعيدوا صلاة الظهر فأعادوها، ذلك بأن الخطيب كفر بما شتم رسول الله ﷺ تعريضاً لا تصريحاً، لأن الله سبحانه عتب على رسوله ﷺ حين جاءه ابن أم مكتوم الأعمى، وهو يحدث بعض صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام، فأعرض عن الأعمى قليلاً حتى يفرغ من حديثه، فأنزل الله عتاب رسوله في هذه السورة الكريمة ثم جاء هذا الخطيب الأحمق الجاهل، يريد أن يتملق عظمة السلطان ـ رحمه الله ـ وهو عن تملقه غني والحمد لله، فمدحه بما يوهم السامع أنه يريد إظهار منقبة لعظمته، بالقياس إلى ما عاتب الله عليه رسوله، واستغفر الله من حكاية هذا فكان صنع الخطيب المسكين تعريضاً برسول الله ﷺ لا يرضى به مسلم، وفي مقدمة من ينكره السلطان نفسه.

ولكن الله لم يدع لهذا المجرم جرمه في الدنيا قبل أن يجزيه جزاءه في الأخرى، **فأُقسم بالله**: لقد رأيته بعيني رأسي بعد بضع سنين وبعد أن كان متعالياً منتفخاً مستعزاً بمن لاذ بهم من العظماء والكبراء، رأيته مهيناً ذليلاً خادماً على باب مسجد من مساجد القاهرة، يتلقى نعال المصلين يحفظها في ذلة وصغار حتى لقد خجلت أن يراني، وأنا أعرفه وهو يعرفني، لا شفقة عليه فما كان موضعاً للشفقة، ولا شماتةً فيه، فالرجل النبيل يسمو على الشماتة، ولكن لما رأيت من عبرةً وموعظة[1].

---

(١) كلمة الحق ص ١٧٣.

كيف كان لسانه ﷺ

كان النبي ﷺ يمتاز بفصاحة اللسان، وبلاغة القول، وكان من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يُجهل، سلاسة لفظ وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب[١].

كان ﷺ أعدل الناس وأعفهم، وأصدقهم لهجة، وأعظمهم أمانة، اعترف له أعداؤه، وكان يسمى قبل نبوته الأمين، ويتحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام.

روى الترمذي عن علي: أن أبا جهل قال له: إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله فيهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣] وسأل هرقل أبا سفيان: هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا[٢].

ومما رواه البحتري قال: ما شتم رسول الله ﷺ أحداً من المؤمنين بشتيمة إلا جعل لها كفارة ورحمة وما لعن امرأة قط ولا خادماً بلعنة، وقيل له وهو في القتال: لو لعنتهم يا رسول الله فقال: «**إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعاناً**»[٣].

كان ﷺ نزر الكلام سمح المقالة إذا نطق ليس بمهزار وكان كلامه

---

(١) الرحيق المختوم للمباركفوري ص ٤٦٥.
(٢) الرحيق المختوم ص ٤٦١.
(٣) الإحياء ٢/ ٣٩٤.

كخرزان نظمن، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كان لا يسرد الكلام كسردكم هذا، وكان كلامه نزراً وأنتم تنثرون الكلام نثراً[١].

وكان ﷺ يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير كأنه يتبع بعضه بعضاً بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه[٢].

يحدثنا أنس خادم رسول الله ﷺ وهو الذي خدم رسول الله ﷺ عشر سنوات يقول: ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي قط: أف، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا مُتفحشاً ولا صخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح.

وكان جل ضحكه ﷺ التبسم وإذا غضب أعرض وأشاح وإذا فرح غض بصره[٣].

وكان رسول الله ﷺ لا يقوم ولا يجلس إلاَّ على ذكر.

ولنترك هند بن أبي هالة يصف لنا رسول الله ﷺ: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، وكان يخزن لسانه إلا عما يعنيه، يؤلف أصحابه ولا يفرقهم[٤].

---

(١) الإحياء ٢/ ٣٩٧.
(٢) المرجع السابق.
(٣) مختصر الشمائل المحمدية للألباني ص ٢١.
(٤) الرحيق المختوم للمباركفوري ص ٤٦٧.

وقد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحق متقاربين، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة لا تُرفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحرم ـ لا تخشى فلتاته ـ يتعاطفون بالتقوى، يوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويرفدون ذا الحاجة ويؤنسون الغريب.

كان دائم البشر سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ، ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش، ولا عتاب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يقنط منه، قد ترك نفسه من ثلاث: لا يذم أحداً، ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير. حديثهم حديث أولهم يضحك مما يضحكون منه، ويعجب مما يعجبون منه، ويصبر على الغريب على الجفوة في المنطق، ويقول: إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يطلب الثناء إلا من مكافيء[1].

. أكمل له جل وعلا الصفات وأحسن له الأدب وأثنى عليه بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤] بأبي هو وأمي ﷺ اللهم اجمعنا معه في دار كرامتك.. فإن كانت بَعُدَت بيننا الأيام.. فاللهم لا تحرمنا شفاعته يوم القيامة يا أرحم الراحمين.

---

(١) الرحيق باختصار ص ٤٦٨.

المصادر

١ ـ الاستهزاء بالدين وأهله، د/ محمد بن سعيد القحطاني، دار الوطن ط١، ١٤١٢هـ.

٢ ـ الأذكار النووية للإمام محي الدين يحيى بن شرف النووي/ دار الملاح للطباعة ١٣٩١هـ.

٣ ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ـ دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٦هـ.

٤ ـ أدب الدنيا والدين للماوردي ـ دار الكتب العلمية.

٥ ـ إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد/ عبدالعزيز السلمان ط١، ١٤٠٦هـ.

٦ ـ أمراض النفوس، إبراهيم محمد الجمل، دار الكتاب العربي ط٢، ١٤٠٨هـ.

٧ ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ـ مطبعة المتوسط.

٨ ـ بستان العارفين للإمام أبي يحيى زكريا بن شرف النووي، تحقيق محمد الحجار.

٩ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ـ دار الكتب العلمية.

١٠ ـ تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث.

١١ ـ التذكرة في الاستعداد لليوم الآخر، علي صالح الهزاع ط٢، ١٤٠٧هـ.

١٢ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، للقاضي عياض، مكتبة الحياة.

١٣ ـ تفسير ابن كثير للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٠١هـ.

١٤ ـ تنبيه الغافلين، الفقيه نصر السمرقندي، تحقيق عبدالعزيز الوكيل، دار الشروق ١٤١٠هـ.

١٥ ـ جامع العلوم والحكم ـ ابن رجب الحنبلي، ط٥ـ١٤٠٠هـ.
١٦ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن قيم الجوزية، تحقيق أبي حذيفة ـ دار الكتاب العربي ط١ ـ ١٤٠٧هـ.
١٧ ـ الحسن البصري لابن الجوزي.
١٨ ـ حصائد الألسن، حسين العوايشه، دار عمار، ط٢ ـ ١٤٠٩هـ.
١٩ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم ـ دار الكتاب العربي.
٢٠ ـ ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت ١٤٠٠هـ.
٢١ ـ الرحيق المختوم للمباركفوري، دار العلم بيروت ط٢ ـ ١٤٠٨هـ.
٢٢ ـ رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، للإمام النووي ـ دار الجيل بيروت.
٢٣ ـ كتاب الزهد، أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم، الدار السلفية بالهند، ط٢ ـ ١٤٠٨هـ.
٢٤ ـ سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة السالة ١٤٠١هـ.
٢٥ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي ـ دار إحياء التراث العربي.
٢٦ ـ شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور للحافظ جلال الدين السيوطي ـ دار الكتب العلمية.
٢٧ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي ـ تحقيق محمود فاخوري ـ محمد رواس ـ دار المعرفة ١٤٠٥هـ.
٢٨ ـ كتاب الصمت وآداب اللسان لابن أبي الدنيا تحقيق أبي إسحاق الحويني الأثري، دار الكتاب العربي ط١ ـ ١٤١٠هـ.
٢٩ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي ـ دار الكتاب العربي، ط٢ ـ ١٤٠٧هـ.

٣٠ ـ طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية ودار المعرفة بيروت.

٣١ ـ طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين أبي نصر عبدالوهاب بن علي السبكي، دار إحياء الكتب العربية.

٣٢ ـ عقود اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان، إبراهيم بن عبيد.

٣٣ ـ مجموع فتاوى ابن تيمية جمع عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد تصوير ط١، ١٣٩٨هـ.

٣٤ ـ فتح القدير للإمام محمد بن علي الشوكاني ـ دار المعرفة.

٣٥ ـ الفوائد لابن القيم ـ دار النفائس.

٣٦ ـ كلمة الحق ـ أحمد محمد شاكر ط١ ـ ١٤٠٧هـ دار الكتب السلفية.

٣٧ ـ مختصر الشمائل المحمدية للإمام الترمذي، اختصره وحققه محمد ناصر الدين الألباني المكتبة الإسلامية ـ عمان ـ الأردن ط١ ـ ١٤٠٥هـ.

٣٨ ـ مختصر منهاج القاصدين، الإمام أحمد بن محمد المقدسي ـ تحقيق زهير الشاويش المكتب الإسلامي ط٧ ـ ١٤٠٦هـ.

٣٩ ـ منهاج القاصدين. ابن الجوزي.

٤٠ ـ مكاشفة القلوب لأبي حامد الغزالي دار إحياء العلوم، ط١ ـ ١٤٠٣هـ.

٤١ ـ كتاب الورع للإمام أبي عبدالله أحمد بن حنبل، تحقيق د/ زينب القاروط، دار الكتب العلمية.

٤٢ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، دار صادر بيروت ١٣٩٧هـ.

***

الدنيا ظل زائل

المقدمة

الحمد لله الذي جعل الدنيا دار ممر والآخرة دار مقروالصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

وبعد:

فإن من رأى تهافت الناس على الدنيا والفرح بها والجري وراء حطامها ليأخذه العجب.. فهل هذا منتهى الآمال ومبتغى الآجال؟! كأنهم ما خلقوا إلا لتحصيل المادة وجمعها واللهث ورائها. ونسوا يوماً يرجعون فيه إلى الله.

وهذا هو الجزء السابع من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟!**» تحت عنوان «الدنيا ظلٌ زائل» جمعت فيه نظر من كان قبلنا إلى هذه الحياة الدنيا وهم الذين أيقنوا وعلموا أنها دار ممر ومحطة توقف ثم بعدها الرحيل الأكيد والحساب والجزاء.

والكتاب فيه تذكير بالمعاد والمصير وتزويد للسائر على الطريق.

جعل الله أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

عبدالملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

مدخل

قال الله ـ جل وعلا ـ في وصف الدنيا: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٩]. وحذر ـ سبحانه ـ من فتنة الأموال والأولاد، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: ٢٨]. ونهى جل وعلا عن النظر إلى مافيه أيدي الناس ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣].

والآيات الواردة في ذمِّ الدنيا وأمثلتها كثيرة، وأكثر القرآن مشتمل على ذمِّ الدنيا، وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة. فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها[١].

وها هو رسول الله ﷺ يرتسم على لسانه نظرته إلى الدنيا بقوله: «**مالي وللدنيا! إنما مثلي ومثل الدنيا: كمثل راكب قال في ظلِّ شجرة، ثم راح وتركها**». [رواه أحمد والترمذي].

ولكثرة مشاغل الدنيا وأعمال الحياة. حَثَّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الاستعداد ليوم الرحيل والتزود للدار الآخرة، فقال: «**كن في الدنيا: كأنك غريب، أو عابر سبيل**»[رواه البخاري].

ومن رأى تهافت الناس على الدنيا وانكبابهم على جمع حطامها من حلال وحرام، تذكر قوله ﷺ: «**إذا رأيت الله ـ عزّ وجل ـ يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج**»[رواه أحمد والبيهقي].

---

(١) الإحياء باختصار: (٣/ ٢١٦).

ومن تعلق بالدنيا الزائفة، وجرى في اللهث وراء المادة، فإن ذلك ربما يصرفه عن: الطاعة، والعبادة، وعن تأدية الواجبات في وقتها، وعلى أتم وجه وأكمله.

قال ﷺ: «**اقتربت الساعة، ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حرصاً، ولا يزدادون من الله إلا بعداً**»[رواه الحاكم].

أما جمع الدنيا بحلال وصرفه في حلال فهذه: عبادة، يتقرب بها إلى الله ـ جل وعلا ـ أما إذا كانت من حرام، أو وضعت في حرام، فبئست الزاد إلى النار.

قال **يحيىٰ بن معاذ**: لست آمركم بترك الدنيا، آمركم بترك الذنوب: ترك الدنيا فضيلة، وترك الذنوب فريضة، وأنتم إلى إقامة الفريضة أحوج منكم إلى الحسنات والفضائل.

والدنيا أخي الكريم: أعيان موجودة للإنسان، فيها حظٌّ وهي الأرض وما عليها، فإن الأرض مسكن الآدمي، وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكم، وكل ذلك علف لراحلة بدنه السائر إلى الله ـ عزّ وجل ـ فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح، كما لا تبقى الناقة في طريق الحج إلا بما يُصلِحها، فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور يُمدح، ومن أخذ منها فوق الحاجة يكتنفه الشره، وقع في الذم، فإنه ليس للشره في تناول الدنيا وجه، لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى، ويشغل عن طلب الأخرى، فيفوت المقصود، ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة، ويرد لها الماء، ويغير عليها ألوان الثياب، وينسى أن الرفقة قد سارت، فإنه يبقى في البادية فريسة للسباع هو وناقته.

ولا وجه أيضاً للتقصير في تناول الحاجة، لأن الناقة لا تقوى على

السير، إلا بتناول ما يصلحها، فالطريق السليم هي: الوسطى، وهي أن يوخذ من الدنيا قدر ما يحتاج إليه من الزاد للسلوك، وإن كان مشتهى، فإن إعطاءَ النفس ما تشتهيه عونٌ لها وقضاءٌ لحقها[١].

قال **عون بن عبدالله**: الدنيا والآخرة في القلب: ككفتي الميزان، ما ترجح أحدهما تخفُّ الأخرى[٢].

ومَنْ يَحمدِ الدنيا لعيشٍ يسرُّه
فسوف لعمري عن قليل يلومُها
إذا أدبرتْ كانتْ على المرءِ حسرةً
وإنْ أقبلتْ كانت كثيراً همومُها[٣]

وقيل **للحسن**: يا أبا سعيد: من أشدُّ الناس صُراخاً يوم القيامة؟ فقال: رجل رُزِقَ نعمة؛ فاستعان بها على معصية الله[٤].

ولاشك أن من استعان على الدنيا بالطاعة، فإنه في خير عظيم، يتصدَّقُ، وينفق، ويساهم في نشر العلم وبناء المساجد. وهذه نعمةٌ من الله له، أن وجهه لاستعمال هذا المال فيما ينفعه في آخرته.

والإنسان: محبٌّ للمال: جامع للذهب والفضة، يجري من مولده حتى موته خلف الدرهم والدينار، ولكن ماذا يبلغ.. وأين ينتهي..؟!

يَسْعى الفتى لأمورٍ ليس يدركُها
والنفسُ واحدةٌ والهمُّ منتشرُ

---

(١) مختصر منهاج القاصدين: (٢١١).
(٢) تزكية النفوس: (١٢٩).
(٣) بستان العارفين: (١٧).
(٤) الحسن البصري: (٤٧).

فـــالمـــرء مـــا عـــاش ممـــدودٌ لـــه أجـــلٌ
لا تنتهـــي العين حتـــى ينتهـــي الأثـــرُ

والدنيا مقبلةٌ ومدبرة.. فمِنْ غِنَىً إلى فَقْرٍ، ومن فرح إلى تَروحٍ، لا تبقى على حال، ولا تستمرُّ على منوال.. فهذه سُنَّةُ الله في خَلْقِهِ.. والناس يجرون خلف سراب.. سنوات معدودة وأيام معلومة.. ثم تنقضي.

ومـــا هـــي إلا جيفـــةٌ مستحيلـــةٌ
عليهـــا كـــلابٌ هُمُّهُـــنَّ اجْتِـــذَابُهـــا
فـــإنْ تجتنبْهـــا كنـــت سلْمـــاً لأهلهـــا
وإنْ تجتـــذبْهـــا نـــازعتْـــكَ كـــلابُهـــا[١]

قال **عمر بن الخطاب**: الزهد في الدنيا راحة القلب، والبدن[٢].

وقال **الحسن**: أدركتُ أقواماً لا يفرحون بشيء من الدنيا أتوه، ولا يأسفون على شيء منها فاتهم[٣].

وجماع ذلك قول **الإمام**: الزهد في الدنيا: قصر الأمل[٤].

والمؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطناً ومسكناً فيطمئن فيها، ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه فيها على جناح سفر[٥].

وهذا هو الفهم الصحيح.. والعلم النافع.. ذكر ذلك **يحيىٰ بن معاذ**

---

(١) شذرات الذهب: (٢٠/ ١٠).
(٢) تاريخ عمر: (٢٦).
(٣) الزهد لأحمد: (٢٣٠).
(٤) مدارج السالكين: (٢/ ١١).
(٥) جامع العلوم: (٣٧٨٠).

فقال: كيف لا أحب دنياً، قُدِّرَ لي فيها قوت، أكتسب به حياة، أدرك بها طاعة. أنال بها الجنة[١].

هذا هو مَنْ يُغبطُ في هذه الدنيا، لا أصحاب الدُّور والقصُور.. المُفرِّطون في العبادات، والمضيِّعون للطاعات.

إذا ما كساك الدَّهرُ ثوباً لصحةٍ
ولَمْ تخلُ من قوتٍ يحلُ ويعذُبُ
فلا تَغْبِطَنَّ المُترفين فإنه
على حسب ما يعطيهم الدهرُ يسلُبُ[٢]

وقال عبدالله بن عمر: إن الدنيا: جنة الكافر، وسجن المؤمن.. وإنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه، كمثل رجل كان في سجن فأُخْرِجَ منه، فجعل يتقلَّبُ في الأرض ويتفسَّحُ فيها[٣].

أيها الناس! إنَّ سهام الموت صُوِّبتْ إليكم، فانظروها، وحِبَالَةُ الأمل قد نُصبتْ بين أيديكم، فاحذروها، وفتن الدنيا قد حاطت بكم من كلِّ جانب، فاتقوها، ولا تغتروا بما أنتم فيه من حسن الحال، فإنه إلى زوال، ومقيمة إلى ارتحال، وممتدة إلى تقلُّص واضمحلال[٤].

تمرُّ بنا الأيام تَتْرَى وإنما
نُساقُ إلى الآجالِ والعينُ تَنْظُرُ

---

(١) تزكية النفوس: (١٢٨).
(٢) الزهد للبيهقي: (١١٦).
(٣) شرح الصدور: (١٣).
(٤) العاقبة: (٦٩).

فـــلا عـــائـــدٌ ذاك الشبـــابُ الـــذي مضـــى
ولا زائـــــلٌ هـــــذا المشيـــــبُ المكَـــــدَّر[١]

فمن تفكَّر في عواقب الدنيا أخذ الدنيا أخذ الحذر، ومن أيقن بطول الطريق تأهب للسفر[٢].

وقد لهونا في هذه الدنيا.. وتتابعت ذنوبٌ خلف ذنوب.

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

عن أنس بن عياض قال: رأيت **صفوان بن سليم**، ولو قيل له: غداً القيامة ما كان عنده مزيد على ماهو عليه من العبادة[٣].

عجبت لحالنا.. الدنيا مولية عنا، والآخرة مقبلة علينا، ونشتغل بالمدبرة، ونعرض عن المقبلة.. كأننا لن نصل إليها.. ولن نحطَّ رحالنا فيها..

وقد قال **عمر بن عبدالعزيز** في خطبته: إن الدنيا ليست بدار قراركم، كتب الله عليها الفناء، وكتب الله على أهلها منها الظعن، فكم من عامر موثق عن قليل يخرب، وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن، فأحسنوا ـ رحمكم الله ـ منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة ولا وطناً، فينبغي للمؤمن أن يكون حاله فيها على أحد حالين، إما أن يكون كأنه غريب مقيم في بلد غربة، هِمَّه التزود للرجوع إلى وطنه، أو يكون كأنه مسافر غير مقيم

---

(١) شذرات الذهب: (٦/ ٢٣١).
(٢) صيد الخاطر: (٢٥).
(٣) السير: (٥/ ٣٦٦).

ألبتة، بل هو ليله ونهاره يسير إلى بلد الإقامة[١].

فما فرحتْ نفسي بدُنياً أخذتُها
ولكنْ إلى المَلِكِ القَدِيرِ أَصِيرُ
ومَالِي شيءٌ غيرُ أنِّي مُسلمٌ
بتوحيدِ ربِّي مُؤمنٌ وخبيرُ[٢]

والناس تتصارع وتتكالب على هذه الدنيا.. يفقد البعض دينه، وينسى الكثير أبناءه.. انتشرتِ الأحقاد.. وزُرعت الضَّغائن.. وعَمَّتِ البغضاء.. لنرى كيف نظر **الفضيل** إلى هذه الدنيا بقوله: لا يسلم لك قلبك حتى لا تبالي من أكل الدنيا.

أخي الحبيب:

تبلَّغْ من الدنيا بأيسر زَادِ
فإنَّكَ عنها راحلٌ لمعادِ
وغُضَّ عن الدنيا وزُخرفِ أهلِها
جُفونَك وأكْحلْها بطيب سُهادِ
وجَاهِدْ عن اللذَّات نَفْسكَ جاهِداً
فإنَّ جهادَ النَّفس خَيرُ جِهادِ
وما هي إلاَّ دارُ لهوٍ وفتنةٍ
وإنَّ قُصارى أهْلِها لِنَفَادِ[٣]

قال **بلال بن سعد** ليذكرنا بمآلنا ومصيرنا: يا أهل التقى، إنكم لم تخلقوا

---

(١) جامع العلوم: (٣٧٩).
(٢) شذرات الذهب: (٢/ ١١٩).
(٣) المنتخب: (٤٠١).

للفناء، وإنما تنقلون من دار إلى دار، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الخلود في جنة أو نار[١].

ولذلك قال **الحسن**: إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الاشتغال، لا يفتح رجلٌ على نفسه باب شُغْلٍ. إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب[٢].

وقال **ابن السماك**: من جرعته الدنيا حلاوتها لميله إليها، جَرَّعَتْهُ الآخرة مرارتها لتجافيه عنها[٣].

أَيـــا نَفْـــسُ وَيْحَـــكِ جَـــاءَ المَشِيـــبُ
فمـــاذا التَّصـــابِي ومـــاذا الغَـــزَلْ
تَـــولَّى شَبـــابِي كـــأَنْ لَمْ يكـــنْ
وجـــاءَ مَشِيبِـــي كـــأن لم يَـــزَلْ
كـــأَنِّي بنفسي عَلَى غِـــرَّةٍ
وخَطْـــبُ المَنُـــونِ بهـــا قَـــدْ نَـــزَلْ[٤]

أخي الحبيب:

أساس كلِّ خير أن تعلم: أن ماشاء كان، ومالم يشأ لم يكن، فتتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه، فتشكره عليها، وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته، فتبتهل إليه أن يحول بينك

---

(١) السير: (٥/ ٩١).
(٢) الزهد لابن المبارك: (١٨٩).
(٣) شذرات الذهب: (١/ ٣٠٤).
(٤) وفيات الأعيان: (٣/ ٣١٠).

وبينها، ولا يَكِلَكَ في فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك[١].

عندما سُئل إبراهيم بن أَدْهَم: كيف أنت؟ قال:

نُرَقِّعُ دُنْيانا بتَمْزِيقِ دِيننا
فلا دِينُنَا يَبقَى ولا مَا نُرَقِّعُ
فَطُوبَى لعبدٍ آثر الله ربَّهُ
وجَادَ بدُنْياهُ لِمَا يُتَوَقَّعُ

إن من علامات حبِّ الدنيا: حُبَّ أهل الدنيا، والتملق لهم، ومحاباتهم، وعدم إنكار منكرهم.. وقد أكد ذلك سفيان الثوري بقوله: إني لأعرف حبَّ الرجل للدنيا، بتسليمه على أهل الدنيا[٢].

وانظر إلى الفقير الصالح المتعفِّفِ.. لا يُتحدَّثُ معه.. بل ويسلِّمُ عليه سلام من يخاف أن يُعْدِيَهُ بفقره.. السلام: بأطراف الأصابع.. والسؤال عن الحال: فيه عُبوس وجه، وسوء أدب.

والتفت ـ أخي ـ يمنةً لترى كيف وقف القوم.. يهلِّلون ويرحبون.. مَنِ القادمُ؟ إنه من أهل الدنيا.. من حاز الدينار والدرهم.. وربما أنه لا يصلي..

وربما يَصُمُّ الآذانَ، ويزكِّمُ الأنوفَ.. سوءُ عمله.. ولكن انظر الفرق.. بين من لو أقسم على الله لأبَرَّهُ، وكيف هو لا يُسأل عنه، إن غاب أو حضر، وبين من لا يزن عند الله جناح بعوضة كيف استقباله والحفاوة به..

---

(١) الفوائد: (١٢٧).
(٢) حلية الأولياء: (٧/ ٣٧).

إنها الدنيا..

واعلـــم بـــأنَّ المَـــرْءَ غيرُ مُخَلَّـــدٍ
والنـــاسَ بَعْـــدُ لغيرهـــم أخبـــارُ

قال **عبدالله بن عون**: إن من كان قبلنا كانوا يجعلون للدنيا مافَضَل عن آخرتهم، وإنكم تجعلون لآخرتكم ما فضل عن دنياكم[١].

أخي المسلم:

إن عمر الدنيا والله قصير، وأغنى غَنيٍّ فيها فقير، وكأني بك في عَرْصَةِ الموت، وقد استنشقت ريح الغربة قبل الرحيل، ورأيت أثر اليتم في الولد قبل الفراق، فتيقظ إذن من رقدة الغفلة، وانتبه من السكرة، وأقلع حب الدنيا من قلبك، فإن العبد إذا أغمض عينه وتولَّى، تمنى الإقالة فقيل كلاَّ[٢].

في يوم من أيام الحياة ستدبر الدنيا وتقبل الآخرة.. وما كان بعيداً أضحى قريباً.. وما كنتَ تراه في الذَّاهِبينَ.. سيراه الأحياء فيك.. موتٌ فجأة.. أو مرض بغتة.. أو أنت على فراشك تحمل إلى قبرك.. إنها عِبرٌ تُرى ومصارع تَتْرى.. ونحن في غفلتنا نائمون.. وفي غيِّنا تائهون.

تَبّـــاً لطـــالـــب دنيـــا لا بقـــاءَ لهـــا
كـــأنمـــا هـــي فِي تصريفهـــا حُلُـــمُ
صَفَـــاؤُهـــا كَـــدَرٌ، سَرَّاؤُهـــا ضررٌ
أَمَـــانُهـــا غَـــرَرٌ، أَنْـــوَارُهـــا ظُلَـــمٌ

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ١٠١).
(٢) عدة الصابرين: (٣٢٩).

شَبَـابُهَـا هَـرَمٌ، راحَـاتُهَـا سَقَـمٌ
لَـذَّاتُهَـا نَـدَمٌ، وُجْـدَانُهَـا عَـدَمٌ
لا يستفيـقُ مـن الأنكـادِ صـاحبُهَـا
لـو كـان يَمْلِـك مـا قـد ضمنـتْ إرَمُ
فخَـلِّ عنهـا، ولا تـركـنْ لـزهْـرتِهـا
فـإنهـا نِعَـمٌ في طيِّهـا نِقَـمُ
واعمـلْ لـدَارِ نَعيـم لا نفـادَ لهـا
ولا يُخَـافُ بهـا مـوتٌ ولا هـرمُ[1]

قال **أبو حازم**: من عرف الدنيا لم يفرح فيها برخاء.. ولم يحزن على بلوى.

وقال **علي بن أبي طالب**: من جُمِعَ فيه ستُّ خصال لم يدع للجنة مطلباً ولا عن النار مهرباً، أولها: من عرف الله وأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها[2].

وحُسْـنُ ظَنِّـكَ بـالأيـام معجـزةٌ
فظـنَّ شرًّا وكـنْ منهـا على وجَـلَ

والوجل ـ أخي الكريم ـ هو الخوف مما ذكره **الفضيل بن عياض** بقوله: الدخول في الدنيا هَيْنٌ، ولكن الخروج منها شديد[3].

والخروج أنفاس تتوقف.. ولحظات عصيبة.. تُنتَزَعُ فيها الرُّوح

---

(١) مكاشفة القلوب: ٣٢٩).
(٢) الإحياء: (٣/ ٢٢١).
(٣) الإحياء: (٣/ ٢٢٤).

انتزاعاً. . وحتى إن كان الخروج سهلاً، فإن الجري وراء الدنيا واللهث وراء المادة. . يجلب تشتت الذهن وكثرة الهموم. . واضطراب النفس.

أرى الدُّنيا لَمَنْ هي في يَدَيهِ
هُمُوماً كلَّما كثُرتْ لَدَيْهِ
تُهِينُ المُكْرِمينَ لها بصُفْرٍ
وتُكْرِمُ كُلَّ مَنْ هَانتْ عَلَيْهِ
إذا استغْنَيتَ عن شَيءٍ فَدَعْهُ
وخُذْ ما أنتَ مُحتاجٌ إليهِ[١]

أخي الحبيب:

كن من أبناء الآخرة، ولا تكن من أبناء الدنيا، فإن الولد يتبع الأم، والدنيا لا تساوي نقل أقدامك إليها، فكيف تَعْدُو خلفها[٢]؟.

انفضْ يَدَيكَ من الدنيا وساكِنِها
فالأرضُ قَدْ أَقفَرتْ والناسُ قَد ماتوا[٣]

قالت امرأة **حبيب بن محمد**: كان يقول: إن متُّ اليوم فأرسلي إلى فلان يغسلني، وافعلي كذا واصنعي كذا، فقيل لامرأته: أرأى رؤيا؟ قالت: هذا قوله كل يوم[٤].

أخي. . إذا استغنى الناس بالدنيا، فاستغن أنت بالله، وإذا فرحوا بالدنيا فافرحْ أنت بالله، وإذا أنسوا بأحبابهم فاجعلْ أنسك بالله، وإذا

---

(١) الإحياء: (٢/ ٣٤٤).
(٢) الفوائد: (٦٨).
(٣) شذرات الذهب: (٣/ ٣٨٨).
(٤) صفة الصفوة: (٣/ ٣٢٠).

تعرَّفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقرَّبوا إليهم؛ لينالوا بهم العزة والرفعة، فتعرَّفْ أنت إلى الله، وتودَّدْ إليه تنلْ بذلك غاية العزِّ والرفعة[١].

وخطب **عمر بن عبدالعزيز** فقال في خطبته: لكل سفر زاد، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعدَّ الله له من عذابه، فترغبوا وترهبوا، ولا يطولنَّ عليكم الأمد فتقسو قلوبكم. وتنقادوا لعدوكم، فإن الله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يمسي بعد إصباحه، ولا يصبح بعد إمسائه، وربما كانت له كامنة بين ذلك خطرات الموت والمنايا، وإنما يطمئنُّ من وثق بالنجاة من عذاب الله وأهوال يوم القيامة، فأما من لا يداوي من الدنيا كَلْما إلا أصابه جارح من ناحية أخرى، فكيف يطمئنُّ؟ أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي، فتخسر صفقتي وتبدو مسكنتي في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق[٢].

يـــا لاهيـــاً بـــالمَنـــايـــا قـــد غَـــرَّهُ الأَمَـــلُ
وأنـــتَ عمَّـــا قَليـــلٍ ســـوف تـــرتحِـــلُ
تبغـــى اللُّحـــوقَ بـــلا زادٍ تُقَـــدِّمُـــهُ
إنَّ المُخِفِّين لَمَّـــا شَمَّـــروا وصَلْـــوا
لا تـــركنـــنَّ إلى الـــدنيـــا وزُخـــرُفِهـــا
فـــأنـــتَ مـــن عـــاجـــل الـــدنيـــا ستنتقِـــلُ
أصبحـــت تـــرجـــو غـــداً يـــأتي وبعـــدَ غـــدٍ
وربَّ ذي أمـــلٍ قـــدْ خـــانَـــه الأَمَـــلُ

---

(١) الفوائد: (١٥٢).
(٢) البداية والنهاية: (٩/ ٢٨٣).

هـــذا شبـــابُـــكَ قـــد ولَّـــتْ بشـــاشتُـــهُ
مـــابَعْـــدَ شَيْبِـــكَ لا لهـــوٌ ولا جَـــدَلُ
هـــذا التعلُّـــلُ بـــالـــدنيـــا وقـــد نشَرَتْ
لأَهْلِهـــا صِحـــةً في طَيِّهـــا عِلـــلُ[1]

قال محمد بن أبي عمران: سمعت حاتماً الأصم وسأله رجل: على ما بنيت أمرك هذا في التوكل على الله؟ قال: على خصالٍ أربع: علمت أن رزقي لا يأكله غيري، فاطمأنت به نفسي، وعلمت أن عملي لا يعمله غيري، فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتيني بغتة، فأنا أُبادره، وعلمت أني لا أخلو من عين الله حيث كنت فأنا مستحي منه.

زعـــم الـــذيـــن تشرَّقُـــوا وتغـــرَّبـــوا
أنَّ الغـــريـــب وإنْ أُعِـــزَّ ذَلِيـــلُ
فـــأجبتُهـــم إنَّ الغـــريـــبَ إذا اتقـــى
حيـــثُ استقَـــلَّ بـــه الـــرّكـــابُ جَلِيـــلُ[2]

قال عبدالله بن المبارك: يا ابن آدم.. استعدَّ للآخرة، وأطعِ الله بقدر حاجتك إليه، وأغضبِ الله بقدر صبرك على النار.

سبحانك ربنا لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك.. نعصيك بجهلنا وتعفو برحمتك.

* هذا الفضيل بن عياض يصوِّرُ حال المؤمن في هذه الدار بقوله: المؤمن في الدنيا مهموم حزين.. هَـمُّه مرمة جهازه، ومن كان في الدنيا كذلك،

---

(١) التبصرة: (١/ ٤٩).
(٢) شذرات الذهب: (٦/ ٣٤٩).

فلا همَّ له إلا التزودُ بما ينفعه عند العود إلى وطنه، فلا ينافس أهل البلد الذي هو غريب بينهم في عزّهم، ولا يجزع من الذّل عندهم[١].

إنَّما الدُّنيا فناءٌ
ليس للدُّنيا ثُبوتُ
إنما الدنيا كبيتٍ
نسَجتْهُ العَنكبُوتُ[٢]

قال وهب بن الورد: اتق أن تسبَّ إبليس في العلانية وأنت صديقه في السرِّ.

فهذا إبليس، والنفس الأمارة بالسوء، والهوى أرسوا قلاعهم ليصدوا المسلم عن دينه ويزينوا له العثرات.. فإنهم يعملون في هذه الدنيا لصدِّه عن الحق وتزيين المعصية.

أخي الحبيب:

الدنيا مضمار سباق وقد انعقد الغبار وخفي السابق، والناس في المضمار بين فارس وراجل وأصحاب حمر معقرة..

سوف ترى إذا انجَلَى الغُبَارُ
أَفَرسٌ تَحْتَكَ أَمْ حِمَارُ

ونحن نسير إلى آجالنا.. تنقُصُ أعمارنا وتدنو نهاياتنا.. نسير: لاهونَ غافلون، لا نحسب لهذا اليوم حساب.. ولا نتجهز ليوم المعاد.

قال **الحسن**: تؤمِّل أن تُعمَّر عُمر نوح، وأمر الله يطرق كل ليلة[٣].

---

(١) جامع العلوم والحكم: (٣٧٩).
(٢) الشافعي: (٥٤).
(٣) الزهد: للحسن البصري.

يـــؤمِّـــلُ دنيـــا لِتبقَـــى لَـــهُ
فـــوافَ المَنيَّـــةَ قبـــلَ الأمَـــلِ
حثيثـــاً يـــروي أُصـــولَ الفَسِيـــلِ
فعـــاشَ الفَسِيـــلُ ومَـــاتَ الـــرَّجـــلُ[١]

قال أبو حازم سلمة بن دينار: إن كان يغنيك من الدنيا ما يكفيك، فأدنى عيش من الدنيا يكفيك، وإن كان لا يغنيك ما يكفيك، فليس شيء يكفيك[٢].

فوالله رأينا من يملك الدنيا رَحَل بكَفَنٍ.. ورأينا من لا يملك من الدنيا شيئًا رحل بكفن.. تساوى الجميع عند هذه الحفرة ـ القبر ـ واختلفوا في داخلها.. فإما روضة من رياض الجنة، أو حفرةٌ من حفر النار.

إنمـــا الـــدنيـــا إلى الجنـــة والنـــار طـــريـــقٌ
والليـــالي مَتْجـــر الإنســـانِ والأيـــامُ سُـــوقٌ[٣]

عندما سُئل أبو صفوان الرَّعيني: ما هي الدنيا التي ذمها الله في القرآن، والتي ينبغي للعاقل أن يتجنبها؟ فقال: كل ما أحببت في الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم، وكل ما أحببت منها تريد به الآخرة فليس منها[٤].

وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يصف الدنيا: حلالها حساب، وحرامها النار.

وقيل: أُوحي إلى داود ـ عليه السلام ـ: يا داود: إني لأنظر إلى الشيخ في

---

(١) صفة الصفوة: (٤/ ٦٥).
(٢) صفة الصفوة: (٢/ ١٥٨).
(٣) الزهد: للبيهقي: (٣١٧).
(٤) تزكية النفس: (١٢٨).

كل يوم صباحاً ومساءً أقول له: ياعبدي، كبر سنك، ورق جلدك، ودقَّ عظمك، وحان قدومك عليَّ، فاستحي مني فإني أستحي منك[١].

يـــا بـــؤس لـــلإنســـانِ في الـ
دنيـــا وإن نـــال الأمـــلَ
يعيـــشُ مكتـــوم العِلَـــلِ
فيهـــا ومكتـــوم الأجَـــلِ
بينـــا يُـــرى في صِحـــةٍ
مُغْتَبِطـــاً قِيـــل اعْتلَـــلَ
وبينمـــا يُـــوجـــد فيـ
ـهـــا ثـــاويـــاً قِيـــل انتقـــلَ
فـــأوفَـــرُ الحـــظِّ لمـــنْ
يتبعُـــهُ حُسْـــنُ الْعَمَـــلِ[٢]

قال الحسن ـ رضي الله عنه ـ ياابن آدم، إنما هي أيام إذا مضى يومك ينقصك.

ولهفنا ولهثنا وراء الدنيا.. نخاف من الفقر ونطمع في جمع الحُطام.. كأننا نُخلَّد أو نبقى فيها إلى الأبد.. نخاف الفقر، ولا نخاف الحساب.. نخاف الجوع، ولا نخاف من التقريع والعقاب.

قال يحيى بن معاذ ـ رحمة الله عليه ـ: مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة[٣].

---

(١) الزهر الفائح: (٤٢).
(٢) تاريخ بغداد: (١٠/ ٣٦٧).
(٣) الإحياء: (٤/ ١٧٠).

وانظر إلى حال من سلف كما قال عنهم الحسن البصري: والذي نفسي بيده، لقد أدركتُ أقواماً كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي يمشون عليه.

نَـذْمُّ زمـانـاً مـالـه مـن جِنـايـةٍ
ونشكـوه لـو يُغنـي عـن المـرءِ شكـواهُ
ولا ذنـبَ فيهـا للـزمَّـانِ وإنمـا
جَنَيْنَـا فعُـوقبنـا بمـا جَنَيْنَـاه
هـو القَـدَرُ الجـاري على الكُـرهِ والـرِّضـا
فصبراً وتسليمـاً لمـا قَـدَّر الله[1]

قال الفضيل، يُفصِّلُ واقع الأيام، ويحكى سيرها: إنما أمس: فعل، واليوم: عمل، وغداً. أمل[2].

أخي المسلم:

إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهي ذلك بهم إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدِّم في كل مرحلة زاداً لما بين يديها فافعل، فإنَّ انقطاع السفر عن قريب ما هو والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك واقضِ ما أنت قاض من أمرك، فكأنك بالأمر قد بَغَتك.

كتب بعض السلف إلى أخ له: ياأخي: يخيل إليك أنك مقيم، بل أنت دائب السير، تساق مع ذلك سوقاً حثيثاً، الموت متوجه إليك، والدنيا تطوى من ورائك. وما مضى من عمرك فليس بكارٍّ عليك يوم التغابن[3].

ونحن نسير في ركب الزاهدين، وتمرُّ بنا قوافل الصالحين.. كيف نرى

---

(١) جنة الرضا: (٢/ ٢٦٠).
(٢) السير: (٨/ ٤٢٧).
(٣) جامع العلوم والحكم: (٣٨١).

الجمع بين الدنيا والآخرة.. وبين الزهد والقناعة.. قال علي بن الفضيل: سمعت أبي يقول لابن المبارك: أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة، ونراك تأتي بالبضائع، كيف ذا؟ قال: ياأبا علي، إنما أفعل ذلك لأصون وجهي، وأكرم عرضي، وأستعين به على طاعة ربي، قال: يا ابن المبارك.. ما أحسن هذا إن تم هذا!!

أخي الحبيب:

كيف ترانا على هذه الدنيا؟! ما أحسن الدنيا إذا أتت من حلال.. وصرفت في حلال.. فأوجه الخير لا تُحصى.. فمِنْ: صدقة، إلى إعانة ملهوف، ونجدة مصاب.. إلى رعاية أرامل، وكفالة أيتام.

أخي.. قال سفيان: احذر سخط الله في ثلاث: احذر أن تقصر فيما أمرك، واحذر أن يراك وأنت لا ترضى بما قسم لك، وأن تطلب شيئاً من الدنيا فلا تجده أن تسخط على ربك.

إن من قَسَّمَ الأرزاق في هذه الدنيا هو: الله، فلابد أن ترضى لما قسم لك قَلَّ أو كثُر.. أتى أو ذهب.. وسواء أقبلت الدنيا أو أدبرت.. لابد أن ترضى بنصيبك منها لا تُشغل بالك.. فلا تتسخط لما قسم لك الله، ولا تنظر إلى من أعلى منك دنيا، ولكن انظر إلى الصالحين والأخيار..

مَنْ شاء عَيْشاً رحيباً يستطيلُ به
في دينه ثمَّ في دُنياه إقْبالاً
فَلْيَنْظُرنَّ إلى مَنْ فوقَهُ وَرَعاً
ولْينظُرنَّ إلى مَنْ دُونَهُ مَالاً[1]

---

(١) الإحياء: (٤/ ١٣١).

وخيرٌ من ذلك كلِّه ماقاله ـ جل وعلا ـ في محكم كتابه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

قال إبراهيم الأشعث: سمعت **الفُضَيل** يقول: رهبة العبد من الله على قَدْرِ علمهِ بالله وزهادته في الدنيا على قدر رغبته في الآخرة. من عَمِلَ بما عَلِمَ استغنى عمَّا لا يعلم، ومن عمل بما علم وفَّقه الله لما يعلم، ومن ساء خلقه شان دينه وحسبه ومروءته[١].

قال **بعض الزهاد**: ما علمت أن أحداً سمع بالجنة والنار تأتي عليه ساعة لا يطيع الله فيها: بذكرٍ، أو صلاةٍ، أو قراءةٍ، أو إحسانٍ، فقال له رجل: إني أكثر البكاء، فقال: إنك إن تضحك مُقرٌّ بخطيئتك خيرٌ من أن تبكي وأنت مُدِلّ بعملك. وإن المدلّ لا يصعد عمله فوق رأسه، فقال: أوصني فقال: دع الدنيا لأهلها كما تركوا هم الآخرة لأهلها، وكُنْ في الدنيا كالنحلة إن أكلت أكلت طَيِّباً وإن أطعمت أطعمت طيباً، وإن سقطت على شيء لم تكسره ولم تخدشه[٢].

أخي الحبيب:

ما تذكَّر أحدٌ الموت إلا هانت الدنيا في عينه، وزالت الغشاوة من أمام ناظره.. فإنها سنوات معدودة مهما جمعت فيها ومهما حصلت على كنوزها؛ فإن وراء ذلك هادم اللذات ومفرق الجماعات.

قال **الحسن**: إن الموت فضح الدنيا، فلم يترك لذي لُبٍّ فيها فرحاً[٣].

وأي فرح ـ أخي ـ وها هي الدنيا..

---

(١) السير: (٨/ ٤٢٦).

(٢) الفوائد: (١٥٣).

(٣) تاريخ بغداد: (١٤/ ٤٤٤).

قـــد نَـــادتِ الـــدُّنيـــا على نَفْسِهـــا
لـــو كـــانَ في العَـــالَمِ مَـــنْ يَسَمـــعُ
كـــمْ واثـــقٍ بـــالعُمـــرِ أَفْنيتُـــهُ
وجَـــامِـــعٍ بَـــدَّدتُّ مـــا يَجْمـــعُ[١]

قال أبو عبيدة الناجي ـ رحمه الله ـ: دخلنا على الحسن البصري ـ رحمه الله ـ في يومه الذي مات فيه، فقال: مرحباً بكم وأهلاً، وحيّاكم الله بالسلام، وأحلَّنا وإياكم دار المُقام، هذه علانية حسنة إن صدقتم وصبرتم، فلا يكونن حظكم من هذا الأمر أن تسمعوه بهذه الآذان، وتخرجوه من هذه الأفواه، فإن مَنْ رأى محمداً رسول الله ﷺ رآه غادياً ورائحاً، لم يضع لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، ولكن رفع له علم فشمَّر إليه. . الوحا الوحا، النجاء النجاء، علام تعرجون؟ ارتبتم ورب الكعبة، كأنكم والأمر معاً، رحم الله امرءاً جعل العيش عيشاً واحداً، فأكل كسرة، ولبس خلقاً، ولصقَ بالأرض، واجتهد في العبادة، وبكى على الخطيئة، وفرَّ من العقوبة، وطلب الرحمة، حتى يأتيه أجله وهو على ذلك[٢].

قال النابغة الجَعْدي عن الدنيا وحال الإنسان فيها:

المَـــرْءُ يـــرغَـــبُ في الحيـــا
ةِ وطُـــولِ عيـــشٍ قـــد يَضُرُّهُ
تَفْنَـــى بشَـــاشتُـــهُ ويَبْـ
ـقَـــى بَعْـــدَ حلـــو العَيْـــش مُـــرُّهُ

---

(١) طبقات الشافعية: (٦/٧٨).
(٢) العاقبة: (٨٩).

وتَسُـــــــــوءُهُ الأيّـــــــــام حَتَّـــــى مـــا يَـــرَى شيئـــاً يَسُـــرُّهُ

روى أبو كبشة عن النبي ﷺ قال: «إنما الدنيا أربعةُ نَفَر: عبدٌ رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتَّقي فيه ربَّه، ويصلُ فيه رحمهُ، ويعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأفضل المنازل. وعبدٌ رزقه الله علماً، ولم يرزقْه مالاً؛ فهو صادق النيّة، فيقول لو أنَّ لي مالاً لعملتُ بعمل فلانٍ، فهو بنيته فأجرُهما سواءٌ. وعبدٌ رزقه الله مالاً ولم يرزقْهُ علماً فهو يتخبَّطُ في ماله بغير علم، لا يتَّقي فيه ربَّه، ولا يصلُ فيه رحمه، ولا يعلم فيه لله حقًّا، فهذا بأخبث المنازلِ، وعبدٌ لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، وهو يقول: لو أن لي مالاً لعملتُ فيه بعمل فلانٍ؛ فهو بنيَّتِهِ فوزْرُهما سواءٌ»(١)(٢).

أخي الحبيب:

يكفي من الدنيا أنها مزرعة الآخرة، وأنها موسم العبادات وزمن الطاعات، وفيها نتزوَّد للآخرة.. ونسير مرحلة إلى الآجلة.

لا تُتبـــع الـــدُّنيـــا وأيّـــامَهـــا ذمَّـــا وإنْ دارتْ بـــكَ الـــدَّائـــرةُ

مِـــنْ شَرَفِ الـــدنيـــا ومِـــنْ فَضْلِهـــا أنَّ بهـــا تُستـــدركُ الآخـــرةُ(٣)

قال الفضيل - رحمه الله: جعل الله الشرَّ كلَّه في بيت، وجعل مفتاحه

---

(١) جامع العلوم والحكم: (٤٢٩).

(٢) الحديث رواه أحمد والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح [تحفة الأحوذي] (٦/ ٦١٥)، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

(٣) أدب الدنيا والدين: (١٣٤).

حبَّ الدنيا، وجعل الخير كلَّه في بيت مفتاحه الزهد في الدنيا[١].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال **عبدالله بن داود**: كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه، أي كان لا ينام طول الليل، يصلي ويسبِّح ويستغفر.. يستدرك ما مضى من عمره ويستعدُّ لما أقبل من أيامه.

إنَّ لله رِجَـــــالاً فُطَنَـــــا
طَلَّقُـــوا الـــدُّنيـــا وخـــافـــوا الْفِتَنَـــا
نَظَـــروا فيهـــا فلمَّـــا عَلِمـــوا
أنَّهـــا ليســـتْ لَحَـــيٍّ وَطَنَـــا
جَعَلُـــوهـــا لُجَّـــةً واتَّخَـــذُوا
صَـــالِـــحَ الأعمـــالِ فيهـــا سُفُنَـــا

كان **عبدالله بن ثعلبة** يقول في موعظته: تضحك يا هذا ولعلَّ أكفانك عند القصَّار!![٢].

يا راقداً وقد أُوذن بالرحيل، يا مشيد بالبنيان في مدارج السيول، بادر العمل قبل انقضاء العمر.. لا تنس من يعدُّ الأنفاس للقائك.

أخي الحبيب:

خـــذْ مِـــنَ الـــرِّزْقِ مـــا كَفَـــا
ومِـــنَ الْعيْـــشِ مـــا صَفَـــا

---

(١) الإحياء: (٤/ ٢٥٧).
(٢) العاقبة: (٨٨).

كُـــــــلُّ هـــــــذا سَيَنْقَضِي
كَسَراجٍ إذا انْطَفـــــــــــــا

قال يحيى بن معاذ: الدنيا ذات اشتغال، والآخرة دار أهوال، ولا يزال العبد بين الأشغال والأهوال حتى يستقرَّ به القرار، إما إلى جنة وإما إلى نار[١].

أخي المسلم:

من بذل وسعه في التفكر التام، علم أن هذه الدار رِحْلَةٌ، فجمع للسفر رَحْلَهُ، ويعلم أن مبدأ السفر من ظهور الآباء إلى بطون الأمهات، ثم إلى الدنيا، ثم إلى القبر، ثم إلى الحشر، ثم إلى دار الإقامة الأبدية، فدار الإقامة هي دار السلام من جميع الآفات، وهي دار الخلود، والعدوُّ سبانا إلى دار الدنيا، فنجتهد في فِكَاكِ أسْرنا، ثم في حثّ السير إلى الوصول إلى دارنا الأولى. وليُعلم أن مقدار السَير في الدنيا يسير ويقطع بالأنفاس، ويسير بالإنسان سير السفينة لا يحسُّ بسيرها وهو جالس فيها.

ولابدَّ له في سفره من زاد، ولا زاد إلى الآخرة إلا التقوى، فلابد من تعب الشخص والتَّصبرُّ على مرارة التقوى، لئلا يقول وقت السير: ربِّ ارجعون، فيقال: كلا، فلينتبه الغافل من كسل مسيره، فإن الله تعالى يريه في قطع مسافة سفره آيات يرسلها تخويفاً لعباده، لئلاً يميلوا عن طريقهم المستقيم، ونهجهم القويم، فمن مالت به راحلته عن طريق الاستقامة، فرأى ما يخاف منه، فليرغب إلى الله بالرجوع إليه عما ارتكبه من السبل، فيتوب من معصيته[٢].

---

(١) الزهد: للبيهقي: (٢٤٨).
(٢) عدة الصابرين: (٣٣٠).

والحال في الدنيا كما وصفها **الرَّبيعُ بن خُثيم** عندما سُئل: كيف أصبحت يا أبا يزيد؟ قال: أصبحنا ضعفاء مذنبين، نأكل أرزاقنا، وننتظر آجالنا[١].

وكان **شميط بن عجلان** يقول إذا وصف أهل الدنيا: حيارى سكارى، فارسهم يركض، وراجلهم يسعى سعياً، لا غنيهم ولا فقيرهم يقنع[٢].

أخي:

خُـذِ القَنـاعـة مِـنْ دُنيـاكَ وارضَ بهـا
لَـو لَمْ يكـنْ لـكَ فيهـا إلاَّ راحـةَ البَـدَنِ

ومن استعد للقاء الله، واستثمر أوقاته فيما يعود عليه نفعها في الآخرة؛ فإنه سيفرح يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون.. يوم تتطاير الصحف، وترتجف القلوب، وتتقلب الأفئدة.. وترى الناس سكارى وماهم بسكارى.. ولكن عذاب الله شديد.

قال **أنس بن عياض**: رأيت صفوان بن سليم.. ولو قيل له غداً القيامة، ما كان عنده مزيدٌ على ماهو عليه من العبادة[٣].

هؤلاء قوم جاهدوا أنفسهم.. وتفكَّروا في آخرتهم.. واستعدوا لمعادهم.

إذا مـا عَـدَتِ النَّفْـسُ
عَـنِ الْحَـقِّ زَجَـرْنَـاهـا

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٦٧).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٣٤٦).
(٣) حلية الأولياء: (٣/ ١٥٩).

وإنْ مـــــاَلَـــــتْ إلى الـــــدُّنيـــــا
عـــــن الأخْـــــرَى مَنَعْنَـــــاهَـــــا
تُخَـــــادِعُنـــــا ونَخْـــــدَعُهـــــا
وبـــــالصَّبْرْ غَلَبْنَـــــاهـــــا[1]

قال **محمد بن الحنفية**: كل ما لا يُبتغَى به وجه الله يضمحلُّ[2].

فمن أراد الدنيا للدنيا انقطعت عنه مع أنفاسه الأخيرة.. وولت هاربة عنه في لحظاته الرهيبة.. ومن أراد الدنيا طريقاً إلى الآخرة وسبلاً إلى جنة عرضها السموات والأرض، فحسبه ماطرق.. وسبيله إلى دار السلام برحمة من الله ورضوان.

وأهل الطاعة والصلاح قومٌ مِثْلُنا يحبُّون الدنيا وزينتها، ولكنهم قدَّموا باقية على فانية، فسهل الله لهم الطريق وأذل لهم الصعاب.

صَبرْتُ على اللـــــذَّات لّمـــــا تـــــولَّـــــتْ
وألـــــزمـــــتُ نَفْسي صبرَهـــــا فـــــاستمـــــرَّتْ
وكـــــانـــــتْ علىَ الأيَّـــــام نَفْـــــسٌ عَـــــزيـــــزةٌ
فلمَّـــــا رأَتْ عَـــــزْمـــــي على الـــــذُّل ذَلَّـــــتْ
فقلـــــتُ لهـــــا يـــــا نَفْـــــسُ مُـــــوتي كـــــريمـــــةً
فقـــــدْ كـــــانـــــتِ الـــــدنيـــــا لنـــــا ثـــــمَّ ولَّـــــتْ
خَليلي لا والله مـــــا مِـــــنْ مُصيبـــــةٍ
تمـــــرُّ على الأيّـــــام إلا تَجَلَّـــــتْ

---

(١) صفة الصفوة: (٤/ ١١٤).
(٢) حلية الأولياء: (٣/ ١٧٦).

وما النفسُ إلاَّ حيثُ يجعلُها الفتى
فإنْ أطعتْ تاقتْ وإلاَّ تسلَّتْ[١]

قال رجل للفضيل بن عياض: كيف أصبحت يا أبا علي؟
فكان يثقل عليه، كيف أصبحت؟ وكيف أمسيتَ؟! فقال: في عافية، فقال: كيف حالك؟ فقال: عن أي حالٍ تسأل؟ عن حال الدنيا أو حال الآخرة؟ إن كنتَ تسأل عن حال الدنيا فإن الدنيا قد مالت بنا وذهبت بنا كلَّ مذهب، وإن كنت تسأل عن حال الآخرة، فكيف ترى حال مَنْ كثُرتْ ذنوبه، وضعف عمله، وفني عمره، ولم يتزوَّد لمعاده، ولم يتأهب للموت، ولم يخضع للموت، ولم يتشمَّر للموت، ولم يتزيَّن للموت.. وتزيَّن للدنيا[٢].

وحال الكثير مِنَّا يصفه عوف بن عبدالله حينما قال: إن من كان قبلكم كانوا يجعلون للدنيا ما فَضَلَ عن آخرتهم، وإنكم اليوم تجعلون لآخرتكم ما فَضَل عن دنياكم[٣].

ومانراه اليوم من بذل الأوقات والجهد والأخذ والعطاء والتدقيق والتمحيص لأجل الدنيا لوجدنا العجب.. حتى أن البعض لو أراد شراء حاجة حقيرة أشغل نفسه أياماً عديدة، وأضاع من أوقاته ساعات ثمينة.. ولو رأيته في المسجد لرأيت نقر الصلاة وعدم الاهتمام بركوعها وسجودها.. بل ومسابقة الإمام.. يؤديها بغير خشوع.. ولا تُرى منه الدموع.

---

(١) شذرات الذهب: (٢/ ٣٦٤).
(٢) حلية الأولياء: (٨/ ٨٦).
(٣) تذكرة الحفاظ: (١/ ٢٩٩).

فالكثير من الناس مهموم مغموم في أمور الدنيا، ولا يتحرك له طرف إذا فاتته مواسم الخيرات أو ساعات تحرِّي الإجابات.. تراه لاهياً.. شارداً.. يجمع ويطرح، ويزيد ويُنقص.. وكأن يومه الذي يمر به سيعود إليه.. أو شهره الذي مضى سيرجع إليه؟!

قال بُندار يتحدث عن **يحيى بن سعيد**: اختلفت إليه عشرين سنة، فما أظن أنه عصي الله قط[١].

أخي المسلم:

اصبرْ على مضـــض الإدلاج بـــالسَّحـــرِ
وفي الـــرَّواح على الطـــاعـــات والبكـــر
لا تَضْجَـــرنَّ ولا يُعجـــزَك مَطلبُهـــا
فـــالهـــمُّ يتْلَـــفُ بين اليـــأس والضَّجَـــر
إنِّي رأيـــتُ في الأيَّـــام تجـــربـــةً
للصَّبْرِ عـــاقبـــةٌ محمـــودةُ الأثَـــر
وقَـــلَّ مَـــنْ جـــدَّ في أمـــرٍ يطلُبـــهُ
واستصْحـــبَ الصبرَ إلاَّ فـــازَ بـــالظَّفَـــرِ[٢]

قال **يحيى بن معاذ**: يا ابن آدم.. طلبت الدنيا طلب من لابد له منها، وطلبت الآخرة طلب من لا حاجة له إليها، والدنيا قد كُفِيتَها وإن لم تطلبها، والآخرة بالطلب منك تنالها.. فاعقل شأنك.

---

(١) موارد الظمآن: (٣/ ٢٧٦).
(٢) عدة الصابرين: (٣٥٥).

أخي الحبيب:

من العجب كل العجب أن العبد يُصدِّق بدار الخلود، وهو يسعى لدار الغرور، فمن أحبه الله حماه عن الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه عن الماء، وقد ورد في الحديث مرفوعاً: «**إنَّ الله لَمْ يَخْلُقْ خلْقاً أبغض إليه مِن الدُّنيا، وإنه مُنْذُ خلقَها لَمْ يَنْظرْ إليها**».

وقيل **لعلي بن أبي طالب**: يا أمير المؤمنين صِفْ لنا الدنيا؟ قال: وما أصف لكم من دار: مَنْ صَحَّ فيها أمن، ومن سقم فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها النار.

وقد وصف الدنيا يونس بن عبيد فقال: ما شبهت الدنيا إلا كرجل نائم، فرأى في منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك إذ انتبه[١].

وكان **شميط بن عجلان** يقول: إنسانان معذبان في الدنيا: غَنيٌّ أعطي دنيا فهو بها مشغول، وفقير زويت عنه فهو يتبعها نفسه، فنفسه تقطع عليها حسرات[٢].

وحين ذمَّ رحل الدنيا عند **علي بن أبي طالب** قال: الدنيا دار صِدْقٍ لَمَنْ صادقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوَّد منها[٣].

وكثيرٌ يذم الدنيا وأنها السبب في الطغيان والبعد عن الطاعة.. وما علم أنها دارٌ للاستزادة.. بها الطريق إلى الجنة يُبنى.. وبها التزود من الدرجات العلا.. ولكن:

---

(١) عدة الصابرين: (٣٥٥).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٣٤٧).
(٣) أدب الدنيا والدين: (١٣٤).

يَعيبُ النَّاسَ كُلُّهُمُ الزَّمانَ
وما لِزمانِنَا عَيبٌ سِوانا
نعِيبُ زمانَنا والعَيْبُ فينا
فلو نَطَقَ الزَّمانُ بهِ رِمَانا[١]

قال **الأوزاعي** يعظ الناس.. تقووا بهذه النعم التي أصبحتم فيها على الهرب من نار الله الموقدة؛ التي تطَّلع على الأفئدة، فإنكم في دار الثواء (الإقامة) فيها قليل، وأنتم فيها مؤجلون، خلائف بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا آنقها وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمدَّ أجساماً، ونقَّبوا في البلاد مؤثرين ببطش شديد: وأجسام كالعماد، فما لبثتِ الأيام والليالي أن طويت مدتهم، وعفت آثارهم، وأخوت منازلهم، وأنست ذكراهم، فما تحس منهم من أحد أو تسمع له ركزاً[٢]. كانوا بلهو الأمل آمنين، لبيان قوم غافلين ولصباح قوم نادمين[٣].

أخي الحبيب:

لا تتم الرغبة في الآخرة إلا الزهد في الدنيا ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

النظر الأول:

النظر في الدنيا وسرعة زوالها، وفنائها، واضمحلالها، ونقصها، وخستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة

---

(١) الزهد للبيهقي: (١٥٧).
(٢) الركز: الصوت الخفي.
(٣) الشكر: (١٥).

والأسف، فطالبها لا ينفك من همٍّ قبل حصولها، وهم في حال الظفر بها، وغمٍّ وحزن بعد فواتها.

النظر الثاني:

النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولابد، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ماههنا، فهي كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧]. فهي خيرات كاملة دائمة[١].

ألا كُـــلُّ شيءٍ مـــا خـــلا الله بـــاطـــلُ
وكـــلُّ نَعيـــمٍ لا محـــالـــةَ زائـــل

إلا نعيم الجنة؛ جعلنا الله من أهله وممن يتفيأ ظلالها عن اليمين وعن الشمال.

أخي المسلم:

كان فخر الدولة علي بن ركن (من ملوك بني بويه) يقول: جمعت لولدي ما يكفيهم، ويكفي عسكرهم خمس عشرة سنة، وتوفي في قلعة بالري، وكانت مفاتيح خزائنها مع ولده، ولم يحضر، فلم يوجد له كفن، فابْتِيعَ من قَيِّم الجامع الذي تحت القلعة ثوب خلف فيه، واختلف الجند فاشتغلوا عنه حتى أراح، فلم يمكنهم القرب منه، فشُدَّ بالحبال، وجُرَّ على درج القلعة من بُعْد حتى تقطَّع، وكان قد ترك ألفي ألف دينار، وثمانمائة وخمسة وستين ألفاً، وكان في خزائنه من الجوهر والياقوت واللؤلؤ والبلخش والماس أربعة عشر ألفاً وخمسمائة قطعة قيمتها ألف ألف دينار، ومن أواني

---

(١) الفوائد: (١٢٣).

والأسف، فطالبها لا ينفك من همٍّ قبل حصولها، وهم في حال الظفر بها، وغمٍّ وحزن بعد فواتها.

النظر الثاني:

النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولابد، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ماههنا، فهي كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧]. فهي خيرات كاملة دائمة[١].

ألا كُـــلُّ شيءٍ مـــا خـــلا الله بـــاطـــلُ
وكـــلُّ نَعيـــمٍ لا محـــالـــةَ زائـــل

إلا نعيم الجنة؛ جعلنا الله من أهله وممن يتفيأ ظلالها عن اليمين وعن الشمال.

أخي المسلم:

كان فخر الدولة علي بن ركن (من ملوك بني بويه) يقول: جمعت لولدي ما يكفيهم، ويكفي عسكرهم خمس عشرة سنة، وتوفي في قلعة بالري، وكانت مفاتيح خزائنها مع ولده، ولم يحضر، فلم يوجد له كفن، فابْتِيعَ من قَيِّم الجامع الذي تحت القلعة ثوب خلف فيه، واختلف الجند فاشتغلوا عنه حتى أراح، فلم يمكنهم القرب منه، فشُدَّ بالحبال، وجُرَّ على درج القلعة من بُعْد حتى تقطَّع، وكان قد ترك ألفي ألف دينار، وثمانمائة وخمسة وستين ألفاً، وكان في خزائنه من الجوهر والياقوت واللؤلؤ والبلخش والماس أربعة عشر ألفاً وخمسمائة قطعة قيمتها ألف ألف دينار، ومن أواني

---

(١) الفوائد: (١٢٣).

وحال المؤمن في هذه الدنيا حال عسيرة.. فهو في جهادٍ ومجاهدة وصبرٍ ومصابرة.

قال الحسن: المؤمن في الدنيا كالأسير يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله ـ عزّ وجل ـ[١].

أخي المسلم:

فـــإن تَجْتَنِبْهـــا كنـــت سِلْمـــاً لأهلِهـــا
وإنْ تَجْتَـــذِبْهـــا نـــازعتْـــكَ كِـــلابُهـــا[٢]

قال ابن مسعود: ما أحدٌ أصبح في الدنيا إلا وهو ضيفٌ، ومَالُه عارية، والضيف مرتحل، والعارية مردودة.

ومـــاهـــذه الأيّـــام إلاَّ مـــراحـــلٌ
يحـــثُّ بهـــا داعٍ إلى المـــوتِ قـــاصـــدُ
وأعجـــبُ شيءٍ لـــو تـــأمَّلْـــتَ أنهـــا
منـــازل تُطْـــوى والمســـافـــرُ قـــاعـــدُ

نداء أخي الكريم من أبي حازم سَلَمَةَ بن دينار: إن بضاعة الآخرة كاسدة، فاستكثروا منها في أوان كسادها، فإنه لو قد جاء يوم نَفَاقِها لم تصل منها لا إلى قليل ولا إلى كثير[٣].

فإن يوم القيامة يوم الجزاء والحساب.. هناك عندما تشرق شمس الآخرة حساب بلا عمل، وهنا حيث شمس الدنيا عمل بلا حساب..

---

(١) جامع العلوم والحكم: (٢٦٩).
(٢) شذرات الذهب: (٢/ ١٠).
(٣) حلية الأولياء: (٣/ ٢٤٢).

فلنُكثر من العمل قبل انقطاعه ونستفيد من العمر قبل انقضائه. . ونستعد للحساب قبل سؤاله.

إنمـــــا الـــــدنيـــــا وإنْ سرَّتْ
قَليـــــلٌ مِـــــنْ قليـــــلِ
ليـــــس تَعْـــــدوُ أنْ تُبْـــــدِي
لـــــك في زيٍّ جَميـــــلِ
ثـــــمَّ تَـــــرمِيـــــكَ مِـــــن المَـــــأ
مـــــنِ بـــــالخَطْـــــبِ الجليـــــل
إنمـــــا العَيـــــشُ جِـــــوارُ الله
في ظِـــــلٍ ظَليـــــلِ[1]

وحال السلف في هذه الدنيا خير حال. . فلم ينظروا إلى زخرفها ومُتعها ودورها وقصورها. . فهذا عمر بن الخطاب يعتلي المنبر، ويخطب في الناس، وهو خليفة وعليه إزار فيه ثنتا عشرة رقعة.

الخليفة الثاني هذا هو على المنبر. . لو تمزَّق ثوب أحدنا لما ذهب إلى المسجد وتخلَّف عن صلاة الجماعة. . بل الكثير يترك صلاة الجماعة لأوْهى الأعذار. .

* من وصايا المسيح ـ عليه السلام ـ لأصحابه: اغبروها ولا تعمروها، وروي أنه قال: من ذا الذي يبني على موج البحر داراً؟ تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً[2].

---

(١) حلية الأولياء: (١٠/٢١٧).
(٢) جامع العلوم والحكم: (٣٧٩).

لنسير مع **مَسْرُوق بن الأجدع** وقد أخذ بيد ابن أخ له فارتقى به على كُناسة بالكوفة فقال: ألا أُريك الدنيا، هذه الدنيا، أكلوها فأفنوها، لبسوها فأبلوها، ركبوها فأنضوها، سفكوا فيها دماءهم، واستحلُّوا فيها محارمهم، وقطعوا فيها أرحامهم[١].

وقال **الحسن** يصف حال الأخيار والصالحين: رحم الله أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعة، فأدوّها إلى من ائتمنهم عليها ثم راحوا خفافاً[٢].

وإني إذا مـــافـــاتَنِـــي الأمـــرُ لم أبـــت
أقلِّـــبُ كَفِّـــي أثـــرة مُتنـــدِّمـــا[٣]

أخي الحبيب: هذه الدنيا التي نحب؟ ما نهايتها؟ وهذه الأموال التي نجمع أين مصيرها؟

كتب رجل إلى أخ له: أما بعد، فإن الدنيا حُلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، ونحن في أضغاث أحلام، والسلام.

وانظر ـ أخي الحبيب ـ إلى مافات من عمرك إنه كأضغاث أحلام.. سنوات مرت كلمح البصر.. ذهبت بأفراحها وأحزانها.. وحلوها ومُرِّها.. ولكن ـ أخي ـ بقي الحساب!!

لا تَغبَطـــنَّ أخـــا الـــدنيـــا لِـــزُخْـــرفهـــا
ولا للَّـــذةِ وقْـــت عَجَّلَـــتْ فـــرحـــا
فـــالـــدَّهـــر أسرعُ شيءٍ في تقلُّبـــهِ
وفِعْلُـــهُ بيِّنٌ للخلْـــق قَـــدْ وَضَحـــا

---

(١) حلية الأولياء: (٢/ ٩٧).
(٢) الإحياء: (٣/ ٢٢١).
(٣) شذرات الذهب: (٣/ ٥٧).

كـــمْ شـــاربٍ عسَـــلاً فيـــه منيَّتُـــهُ
وكـــم تقلَّـــدَ سيفـــاً مـــنْ بِـــهِ ذُبحـــا[١]

قال ضرار بن مرة: قال إبليس، إذا استمكنت من ابن آدم ثلاثاً أصبت منه حاجتي: إذا نسي ذنوبه، واستكثر عمله، وأُعجب برأيه[٢].

قال **بعض السلف:** احذروا دار الدنيا، فإنها أسحر من هاروت وماروت، فإنهما يفرِّقان بين المرء وزوجه، والدنيا تفرِّقُ بين العبد وربه[٣].

عَنَـــتِ الـــدُّنيـــا لطَـــالِبهـــا
واسْتَرَاحَ الـــزَّاهـــدُ الفطِـــنُ
كُـــلُّ مَلِـــكٍ نَـــالَ زُخْـــرفَهـــا
حَسْبُـــه ممَّـــا حـــوى كفـــنُ
يَقْتَنـــي مـــالاً ويتركُـــهُ
في كـــلا الحـــالين مُفْتَتَـــنُ[٤]

حالنا كما يراها **أبو الدرداء** ـ رضي الله عنه ـ بقوله: مامن أحد إلا وفي عقله نقصٌ عن حلمه وعلمه، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بزيادة في مال ظل فرحاً مسروراً، والليل والنهار دائبان في هدم عمره لا يحزنه ذلك، ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص.

الكثير يحملهم طلب الدنيا على الهمِّ والغمِّ وتكدُّر العيش، ولم نرَ إلا

---

(١) السير: (١٨/٢٩٦).
(٢) صفة الصفوة: (٣/١١٦).
(٣) تسلية أهل المصائب: (٢٤٨).
(٤) السير: (١٩/٤٨٣).

القليل يحزن لذهاب عمره ودنوِّ أجله.

ينسى الكثير سنوات عمره التي مضت، أيامه التي انقضت، ولا ينسى شيئاً من أمور الدنيا.. كأنَّ الهدف جمع الدنيا والتفرُّغ لها.

تفكَّرتُ في الدنيا فأبصرتُ رُشْدَها
وذلك بالتَّقوى مِنَ الله حِدَّها
أسأتُ بها ظنًّا فأخلَفْتُ وعْدَها
وأصبحتُ مولاها وقد كنتُ عَبْدَها[1]

هذا صوت يأخذه العجب من عدم توازن الأمور.. هذا يحيى بن معاذ يقول: عجبت ممن يحزن على نقصان ماله!! كيف لا يحزن على نقصان عمر؟!

لم نر ولم نسمع عمَّن بات مهموماً مغموماً من نقصان عمره.. وذهاب أوقاته.. ولكننا نرى الكثير مهموماً مغموماً من نقصان ماله!! أين هو عن تبدُّل المنازل بعد فترة يسيرة؟! أين هو عن الحساب والجزاء؟!

مَنْ كان يوحشُه تبديلُ منْزِلِهِ
وأنْ يُبدَّلَ منها منزلاً حسناً
ماذا يقولُ إذا ضمَّتْ جوانبها
عليه واجتمعتْ مِنْ هاهنا وهنا
ماذا يقولُ إذا أمْسَى بحُفْرَتِهِ
فرداً وقدْ فارقَ الأهْلينَ والسَّكنا
هنالك يعلمُ قدرالوحْشتين وما
يلقاه مَنْ باتَ باللذَّات مُرْتَهَنَا

---

(١) طبقات الحنابلة: (٢٨٥).

أخي الحبيب:

يـــا غفلـــةً ورمـــاحُ المـــوت شـــارعـــةٌ
والشَّيـــبُ ألقـــى بـــرأسي نحـــوه الـــرسنـــا
ولمْ أُعِـــــدَّ مكـــــانـــــاً للنـــــزول ولا
أعـــددتُ زاداً ولكـــن غـــرة وقنـــى[١]

من درر الكلام ونفيسه قول الحسن ـ رضي الله عنه ـ: من كثر ماله، كثرت ذنوبه. ومن كثر كلامه كثر كذبه. ومن ساء خلقه، عذَّب نفسه[٢].

أخي الحبيب:

نجمع المال لنُدرك السعادة.. ونبني القصور لنُسكن الأنس في قلوبنا.. ونسافر لننسى أحزاننا.. نسير في كل الطرق.. وننفق ما في أيدينا لنستمتع بالسعادة.. ولكن هل هذه هي السعادة.

هناك مَنْ طَرَقَ هذه الأبواب قبلنا، وجرَّبَ هذه الدروب معنا.. ولكن الجميع يتفق على أن السعادة في طاعة الله والقرب منه، والعمل لدار سعادة لا شقاء فيها ولنعيم لا زوال عنه.

ومـــا الـــدَّهـــرُ والأيّـــام إلا كمـــا تـــرى
رَزيَّـــــةُ مـــــال أو فـــــراقُ حبيـــــب
وإنَّ امـــرءاً قـــد جـــرَّبَ الـــدهـــر ولم يَخَـــفْ
تَقَلُّـــــب حـــــاليـــــه لغيرُ لبيـــــب[٣]

---

(١) العاقبة: (١٨٨).
(٢) كتاب الصمت: (٨٥).
(٣) ديوان الإمام علي: (٢٤).

قال وهب بن منبه: مثل الدنيا والآخرة مثل ضرتين، إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى[١].

والحال ـ رحمنا الله ـ قال عنها الحسن البصري: عجبت لأقوام أُمروا بالزاد، ونودي فيهم بالرحيل، وهم يلعبون!!

أخي الحبيب: ماهو القياس في هذه الدنيا.. وبماذا توزن الأمور.. هذا علي بن أبي طالب يقول: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر عملك ويعظم حلمك، ولا خير في الدنيا إلا لأحد رجلين: رجل أذنب ذنوباً فهو يتدارك ذلك بتوبة، أو رجل يسارع في الخيرات، ولا يقلُّ عملٌ في تقوى كيف يقلُّ ما يُتقبّل[٢].

عجبتُ لمبتاع الضلالة بالهدى
وللمشتري دنياه بالدَّين أعجبُ
وأَعْجَبُ من هذين من باع دينَهُ
بدنيا سواه فهو من ذين أخيبُ[٣]

ومن أتته الدنيا بخيلها ورجلها وأقبلت إليه بأصفرها وأبيضها.. عليه أن يدرك قول الحسن: والله ما أحد من الناس بسط له دنياه، ولم يخف أن يكون مكر به فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه، وما أمسكها الله عن عبد مسلم يظن أنه قد خير له فيها إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه[٤].

---

(١) حلية الأولياء: (٤/ ٥١).
(٢) صفة الصفوة: (١/ ٣٢١).
(٣) وفيات الأعيان: (٦/ ١٧٠).
(٤) حلية الأولياء: (٦/ ٢٧٢).

أخي الحبيب:

اعلم أن أيام الدنيا كأحلام نوم، أو كظل زائل، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً، وإن سرَّتْ يوماً أو أياماً ساءت أشهراً وأعواماً، وإن متعت قليلاً منعت طويلاً، وما حصلت للعبد فيها سروراً إلا خبأت له أضعاف ذلك شروراً.

قالت: **هند بنت النعمان**: لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس وأشدهم ملكاً، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن أذل الناس، وأنه حق على الله ـ عز وجل ـ أن لا يملأ داراً حبرة إلا ملأت عبرة.

وسألها رجل أن تحدثه عن أمرها، فقالت: أصبحنا ذات صباح وما في العرب أحد إلا يرجونا، ثم أمسينا، وما في العرب أحد إلا يرحمنا.

وبكت أختها **حرقة بنت النعمان** يوماً وهي في عزها، فقيل لها: ما يبكيك؟ فذكر أنها قالت: رأيت كثرة أهلي وسرورهم، وقلما امتلأت دارٌ سروراً إلا امتلأت حزنا، قال إسحاق بن طلحة: دخلت عليها يوماً، فقلت لها: كيف رأيت عبرات الملوك؟ فقالت: ما نحن فيه اليوم خير مما كنا فيه بالأمس، إنا نجد في الكتب أنه ليس من أهل بيت يعيشون في حبرة إلا سيعقبون بعدها عبرة، وأن الدهر لم يظهر بيوم يحبونه إلا بطن لهم بيوم يكرهونه[1].

سَلِ الأيامَ ما فعلتْ بكسْرى
وقيصَر والقصور وساكنيها

---

(١) عدة الصابرين: (٣٢٦).

أمـــا اسْتَـــدْعَتْهـــم للبين طـــرًّا
فلـــم تـــدع الحليـــم ولا السفيهـــا[١]

خطب **عمر بن عبدالعزيز** ـ رحمة الله عليه ـ فقال: يا أيها الناس إنكم خلقتم لأمر، إن كنتم تصدِّقون به فإنكم حمقى، وإن كنتم تكذبون به فإنكم هلكى، إنما خلقتكم للأبد، ولكنكم من دار إلى دار تنقلون. عباد الله، إنكم في دار لكم فيها من طعامكم غصص، وعن شرابكم شرق، لا تصفو لكم نعمة تسرون بها إلا بفراق أخرى تكرهون فراقها، فاعملوا لما أنتم صارون إليه وخالدون فيه، ثم غلبه البكاء[٢].

إنْ كنـــتَ نِلْـــتَ مـــن الحيـــاةِ وطيبهـــا
مَـــع حُسْـــنِ وَجْهِـــكَ عِفَّـــةً وشَبـــابـــاً
فـــاحْـــذَرْ لنفسِـــكَ أنْ تُـــرى مُتمنيـــاً
يـــومَ القيـــامـــةِ أنْ تكـــون تُـــرابـــاً[٣]

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال **الحسن**: والذي نفسي بيده، لقد أدركت أقواماً كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه[٤].

رحم الله **الحسن**.. هذا قوله في زمانه، فماذا لو رأى زماننا، وكيف تكالب الناس على الدنيا لقد قُطِّعت الأرحام، وتباعد الأخوان، وغدا حديث الناس عن أموال فلان.. وما جمع فلان!!

---

(١) مكاشفة القلوب: (٢٨٨).
(٢) الإحياء: (٣/ ٢٨٨).
(٣) السير: (١٩/ ١٩٥).
(٤) تسلية أهل المصائب: (٢٤٥).

بل إن هناك مجالس عامرة بحديث الدنيا وأموالها.. لا يُذكر فيها اسم الله ولا يتورع فيها عن الغيبة وأكل السحت والحرام.

بل سل حديث المجالس عن أرحام تقطعت ووشائج انفصلت بسبب الدنيا.. حديث طويل.. فهذا لم ير أخاه منذ عشر سنوات بسبب حفنةٍ من مال، وذاك لم يردعه دين أو خوف من الله عن أكل أموال الأيتام.. وآخر همه مصروف كيف يحصل على الأرض الفلانية ولو بالكذب والحلف بالزور.

تناسى الجميع حفرةً ضيقة.. وأهوالاً مقبلة..!!

قال **الحسن** ـ رحمه الله تعالى ـ: يا عجباً من ضاحك ومن ورائه النار، ومن مسرور ومن ورائه الموت[1].

أخي.. ألا عودة من قريب..

تمـــرُّ الليـــالي والحـــوادث تنقضي
كـــأَضْغـــاثِ أحـــلامٍ ونحـــنُ رقـــودُ
وأعجـــبُ مِـــنْ ذا أنهـــا كُـــلُّ ســـاعـــةٍ
تَجِـــدُّ بنـــا سيراً ونحـــنُ قُعـــودُ

والسؤال يروح ويغدو على ألسنتنا.. ألا نعمل لهذه الدنيا؟! بلى ياأخي! اعمل وَجِدَّ فإن الإسلام دين العمل.. ولكن تنبه لوصية تالية..

قال رجل **لسفيان الثوري**: أوصني؟ قال: اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، وللآخرة بقدر بقائك فيها، والسلام[2].

---

(١) تنبيه الغافلين: (١/ ٢١٢).
(٢) حلية الأولياء: (٧/ ٥٦).

قارن أخي بين مدة البقاء في هذه الدنيا وبين الخلود في الدار الآخرة.. أعمار ـ أمة محمد ـ ﷺ مابين الستين والسبعين.. هذا لمن لم يدركه الموت قبل.. ولكن لنرى يوماً واحداً من أيام الآخرة كم طوله ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج: ٤٧].

أخي.. هاهي مدة البقاء. قياس بسيط.. اعمل للآخرة.. وللدنيا.. جعلني الله وإياك ممن كان في طاعة الله فبلغه برحمته جنات عدن.. وهيأ لنا من التوفيق ما نصل به إلى رضوانه.

أخي الحبيب:

مَنْ أراد مِنَ العمال أن يعرف قدره عند السلطان فلينظر ماذا يوليه من العمل وبأي شُغلٍ يشغله[1].

ولننظر أخي إلى مكانتنا من الله، وبماذا استعملنا؟ إن كان في طاعته وعبادته فتلك والله النجاة، وإن كان غير ذلك فالتوبة من قريب.. ألا نستحي من إلهنا وخالقنا ورازقنا، من أحسن صورنا، وسخر لنا النعم ظاهرة وباطنة.

يعيش المرءُ ما استحيا بخيرٍ
ويبقَى العودُ ما بقِيَ اللِّحاءُ
فلا والله ما في العيش خيرٌ
ولا الدنيا إذا ذهبَ الحياءُ
إذا لم تخشَ عاقبةَ الليالي
ولم تَسْتَحِ فاصنعْ ما تَشَاءُ

---

(١) الفوائد: (٦٨).

قال **شداد بن عمرو**: إن الآخرة وعدٌ صادق، يحكم فيها ملك قادر، وإن الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر، وإن السامع المطيع لا حجة عليه، وإن السامع العاصي لا حجة له، ولا تعدو هذه الدنيا شيئاً فإنها لا تُبقي على أحد، ولا ترفضوها مع ذلك فإن الآخرة لا تُنال إلا بها.

والمرء ما عاش في الدنيا له أملٌ
إذا انقضى سفرٌ منها أتى سفرٌ
لها حلاوةُ عيشٍ غير دائمةٍ
وفي العواقب منها المرُّ والصبرُ[1]

قال **عبيد بن عمير** يحذرنا من كثرة الدنيا وحسرة إقبالها: ما كثر مال عبد إلا اشتدَّ حسابه ولا أكثر أتباعه إلا كثر شياطينه، ولا زاد من السلطان قرباً إلا زاد من الله بعداً.

ومن هذا الخوف كان **مسروق** يقول: إنما تحفة المؤمن حفرته.

أخي الحبيب:

جعل الله الدنيا عرضاً عاجلاً ومتاع غرور، وجعل الآخرة دار جزاء وثواب، وحفَّ الدنيا بالشهوات وزيَّنها بها، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤]. فأخبر سبحانه أن هذا الذي زين به الدنيا من ملاذها وشهواتها، وما هو غاية أماني طلابها ومؤثريها على الآخرة، هو سبعة أشياء: النساء اللاتي هن أعظم زينتها وشهواتها

---

(١) التبصرة: (١/١٠٩).

وأعظمها فتنة، والبنين اللذان بهم كمال الرجل وفخره وكرمه وعزه، والذهب والفضة اللذان هما مادة الشهوات على اختلاف أجناسها وأنواعها، والخيل المسومة التي هي عز أصحابها وفخرهم، وحصونهم وآلة قهرهم لأعدائهم في طلبهم وهربهم، والأنعام التي منها ركوبهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم، وأمتعتهم وغير ذلك من مصالحهم، والحرث الذي هو مادة قُوتِهم وقوت أنعامهم ودوابهم، وفاكهتهم وأدويتهم وغير ذلك.

ثم أخبر سبحانه أن ذلك متاع كله: متاع الحياة الدنيا، ثم شوّق عباده إلى متاع الآخرة، وأعلمهم أنه خير من هذا المتاع وأبقى، فقال: ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٥].

ثم ذكر سبحانه من يستحق هذا المتاع، ومن هم أهله الذين هم أولى به، فقال: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٦ ـ ١٧][1].

أخي المسلم:

لنتأمل قول **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ ويلٌ لمن كانت الدنيا أمله والخطايا عمله، عظيم بطنته. قليل فطنته، عالم بأمر دنياه، جاهل بأمر آخرته[2].

---

(١) عدة الصابرين: (٢٠٩).

(٢) العاقبة: (٩٠).

وكتب عمر إلى أبي موسى: إنك لن تنال عمل الآخرة بشيء أفضل من الزهد في الدنيا.

أخي:

دَعِ الحـــــرْصَ على الـــــدنيـــــا
وفي العَيْـــــشِ فـــــلا تَطْمَـــــعُ
فـــــلا تجمـــــعْ مِـــــنَ المـــــالِ
فمـــــا تـــــدري لَمَـــــنْ تَجْمَـــــعُ
فـــــإنّ الـــــرِّزقَ مَقْسُـــــومٌ
وسُـــــوءَ الظـــــنِّ لا يَنْفَـــــعُ
فقيرٌ كـــــلُّ ذِي حَـــــرْصٍ
وغَنِـــــيٌّ كُـــــلُّ مَـــــنْ يَقْنَـــــعُ[1]

روي عن **أبي حازم** أنه قال: لو كانت الدنيا لا يدخلها أحد إلا بترك جميع ما يُحب من الدنيا لكان يسيراً في جانبها، فكيف وقد تدخل الجنة بترك جزء من ألف جزء مما تُحب، وقد تنجو من النار بتحميل جزء من ألف جزء مما تكره[2].

أخي الحبيب:

درر من الحِكم تُنثر.. ولكن تبقى الهمة العالية.. والمسارعة المستمرة. ويبقى دوماً تذكر يوم المعاد.

قال **الفضيل بن عياض**: رهبة العبد من الله على قدر علمه بالله،

---

(١) بستان العارفين: (١٥).
(٢) تنبيه الغافلين: (١/ ٨٥).

وزهادته في الدنيا على قدر رغبته في الآخرة[١].

قد نادت الدنيا على نفسها
لو كان في العالم مِنْ يَسْمَعَ
كَمْ واثقٍ بالعُمرِ أفنيتُهُ
وجَامِعٍ بدَّدتُ ما يَجْمَعُ[٢]

ولنتأمل في قول الحسن ـ رضي الله عنه ـ: إن أيسر الناس حساباً يوم القيامة الذين حاسبوا أنفسهم لله في الدنيا، فوقفوا عند همومهم وأعمالهم؛ فإن كان الذي هموا به لله، مضوا فيه، وإن كان عليها أمسكوا، وإنما يثقل الحساب يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور في الدنيا، أخذوها على غير محاسبة، فوجدوا الله قد أحصى عليهم مثاقيل الذر، ثم قرأ: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾[الكهف: ٤٩].

ومن تأمل في مزرعة الدنيا ووقت الحصاد رأى أن الأمر جدٌ لا هزل فيه، وتشميرٌ لا هوادة فيه. فمن قدم بين يديه اليوم رآه غداً في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة.. يومٌ تذهل فيه كل مرضعةٍ عما أرضعت.. وتضع كل ذات حمل حملها.. يومٌ تتطاير فيه الصحف.

قال **سلمان بن دينار**: ما أحببت أن يكون معك في الآخرة فقدمه اليوم. وما كرهت أن يكون معك في الآخرة فاتركه اليوم[٣].

فهذه الدنيا دار العمل، وغداً هناك حين تغيب شمس الدنيا، ويشرق

---

(١) السير: (٨/٤٢٦).
(٢) عقد اللؤلؤ والمرجان: (٢٨٥).
(٣) صفة الصفوة: (٢/١٦٦).

يوم القيامة، هناك دار الحساب والجزاء.. فعلينا أن نجزم الأمر ونُعد العدة.

أخي الحبيب:

هذا **يحيىٰ بن معاذ** في وصيته يقول: الليل طويل فلا تقصره بمنامك، والنهار نقيٌ فلا تدنسه بآثامك:

وكن في الدنيا عابر سبيل.. نرى الرحيل أسرع من البقاء والنقلة أسرع من المهلة.

قال **شميط بن عجلان**: من جعل الموت نصب عينيه لم يبال بضيق الدنيا ولا بسعتها[١].

يـا غـافـلاً ولـه في الـدهـر مـوعظـةٌ
إن كنـتَ في سِنَـةٍ فـالـدهـر يقظـان[٢]

قال **محمد بن سوقة**: أمران لو لم نُعذب إلا بهما لكنا مستحقين بهما العذاب، أحدنا يزداد في دنياه فيفرح فرحاً، ما علم الله منه قط أنه فرح بشيء قط زيد في دينه مثله، وأحدنا ينقص من دنياه فيحزن حزناً ما علم الله منه قط أنه حزن على شيء نقصه من دينه مثله[٣].

وحالنا اليوم همٌ وغمّ وتكدر عيش إذا غُلبنا في دريهمات أو نقص من مالنا شيءٌ يسير.. ولا نغتم ولا نحزن بفوت صلاة الجماعة عنا؛ بل الأمر لا يعدو تحريك الرءوس ونسيان الأمر.

قال **محمد بن واسع**: إذا رأيت في الجنة رجلاً يبكي ألست تعجب من

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٣٤٢).
(٢) موارد الظمآن: (٢/ ٧١٠).
(٣) حلية الأولياء: (٥/ ٤).

بكائه؟ قيل: بلى، قال: فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصير هو أعجب منه!![١].

وحال الكثير اليوم ينطبق عليه قول **سعيد بن مسعود**: إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته وهو به راض، فذلك المغبون الذي يُلعب بوجهه وهو لا يشعر[٢].

أخي الحبيب:

تــزوَّدْ مــن الــدنيــا فــإنــك لا تــدري
إذا جــنَّ ليــلٌ هــل تعيــشُ إلى الفجــر
فكــم مــن فتــى أضحــى وأمســى ضــاحكــاً
وقــد نُسجــتْ أكفــانُــه وهــو لا يــدري
وكــم مــن صغــارٍ يــرتجــى طــول عمــرهــم
وقــد أُدخلــتْ أجســادُهــم ظلمــة القبرِ
وكــم مــن عــروس زيَّنــوهــا لــزوجهــا
وقــد قُبضــتْ أرواحُهــم ليلــة العُــرْسَ

هاهي الدنيا دار أماني وغرور ـ فاحذرها، فإن أمانيها كاذبة، وإن آمالها باطلة، عيشها نكد، وصفوها كدر، وأنت منها على خطر، إما نعمةٌ زائلة وإما بلية نازلة، وإما مصيبةٌ موجعة، وإما ميتةٌ قاضية[٣].

وقد أصاب **أبو هريرة** في وصف حالنا بقوله: ماصدقتكم أنفسكم؛ تأملون مالا تبلغون، وتجمعون مالا تأكلون، وتبنون مالا تسكنون.

---

(١) الإحياء: (٣/ ١٣٧).
(٢) مكاشفة القلوب: (١٥٧).
(٣) حلية الأولياء: (٢/ ١٣٦).

وحال الكثير اليوم: جمع مالا يأكل، وبنى مالا يسكن... وحتى إن أكل وسكن سنوات معدودة وأزمنة محدودة.

قال **أبو حازم**: إن عوفينا من شر ما أُعطينا؛ لم يضرنا فقد مازوي عنا[١].

هي القناعة لا تبغي بها بديلاً
فيها النعيمُ وفيها راحةُ البدن
انظرْ لمن مَلَكَ الدنيا بأجمعها
هل راح منها بغير القُطن والكَفن[٢]

قال **أبو محرز الطفاوي**: شكوت إلى جارية لنا ضيق الكسب عليَّ وأنا شاب، فقالت لي: يا بُني استعن بعز القناعة عن ذل المطالب. فكثيراً ما رأيت القليل عاد سليماً، قال أبو محرز: مازلت أعرف بركة كلامها في قنوعي.

أخي الحبيب:

كلُّ من لاقيتُ يشكو دهْرَه
ليت شعري هذه الدنيا لِمَنْ[٣]؟!

هل رأيت أخي غير ذلك؟! ولكن القناعة: مكسب وعز، والنفس خير مركب..

وقد قال **شعيب بن حرب**: من أراد الدنيا فليتهيأ للذل. ومن تهيأ للذل، أطلق عنانه، ولم يمسك بلجامه.. يتساوى لديه: الحلال والحرام،

---

(١) أدب الدنياوالدين: (١٢١).
(٢) التذكرة: (١١).
(٣) موارد الظمآن: (٢/ ٧١).

والرد والصد.. يجري خلف المادة، ويلهث وراء الدنيا.. وكان أبو حازم يرى هذا الجري وذاك اللهث، فقال: لوددت أن أحدكم يتقي على دينه، كما يتقي على نعله.

يـــا غـــاديـــاً في غفلـــةٍ ورائحـــاً
إلى متـــى تستحســـنُ القبـــائِحَـــا
وكـــم إلى كـــم لا تخـــافُ مـــوقفـــاً
يستنطـــقُ الله بـــه الجـــوارحـــا
واعجبـًـــا منـــك وأنـــت مبصرٌ
كيـــف تجنَّبـــت الطـــريـــقَ الـــواضِحـــا
وكيـــف تـــرضـــى أن تكـــون خـــاسراً
يـــوم يفـــوزُ مَـــنْ كـــان رابحـــاً

أخي الحبيب:

إن رب الأربـاب ومسبـب الأسبـاب جعـل الآخـرة: دار الثـواب والعقاب، والدنيا: دار التحمل والاضطراب والتشمر والاكتساب، وليس التشمر في الدنيا مقصوراً على المعاد دون المعاش، بل المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه، فالدنيا مزرعة الآخرة ومدرجة إليها[١].

قال **يحيىٰ بن معاذ**: يا ابن آدم طلبت الدنيا طلب من لابد له منها، وطلبت الآخرة طلب من لا حاجة له بها، والدنيا ـ أخي ـ قد كُفيتها وإن لم تطلبها، والآخرة بالطلب منك تنالها، فاعقل شأنك[٢].

---

(١) الإحياء: (٢/ ٦٩).
(٢) صفة الصفوة: (٤/ ٩٣).

وقد فصل رحمه الله في طلب الدنيا وتركها، فقال: ترك الدنيا شديد، وترك الجنة أشد منها، وإن مهر الجنة ترك الدنيا[١].

فهل قدمنا ـ أخي هذا المهر؟! بل نحن لاهون ساهون في هذه الدنيا؛ ونحن نعلم أن وراء كل فرح حزناً، ووراء كل نعيم كدراً.

قال **عبدالله بن مسعود** ـ رضي الله عنه ـ: لكل فرحة ترحة، وما مليء بيتٌ فرحاً إلا مليء ترحاً[٢].

وكان **مسعر بن كدام** يكثر بهذه الأبيات في جنازة:

ويحدث رَوْعاتٍ لدي كل فَزْعَةٍ
ونسرعُ نسياناً ولم يأتِنا أَمْنُ
فإنا ولا كفران لله ربنا
كما البدن لا تدري مني يومها البدن[٣]

قال **بعض السلف**: ابن آدم، أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فإن بدأت بنصيبك من الدنيا أضعت نصيبك من الآخرة وكن من نصيب الدنيا على خطر، وإن بدأت بنصيبك من الآخرة، فُزْتَ بنصيبك من الدنيا فانتظمته انتظاماً[٤].

وكيفَ يَلِذُّ العيش مَنْ هو عالمٌ
بأنَّ إلهَ الخلقِ لابدَّ سائلُهُ

---

(١) تنبيه الغافلين: (١/ ٨٥).
(٢) تسلية أهل المصائب: (١٥).
(٣) حلية الأولياء: (٧/ ٢٢١).
(٤) فضائل الذكر: لابن الجوزي: (١٩).

فيـــأخـــذُ مِنْـــهُ ظُلْمَـــهُ لعبـــادِهِ
ويجـزيـه بـالخيرِ الـذي هـو فـاعِلُـهُ[١]

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبدالعزيز: أما بعد: فإن الدنيا: دار ظعن، وليست بدار إقامة، وإنما أنزل آدم إليها عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى منها فقرها، لها في كل حين قتيل، تذل من أعزّها، وتفقر من جمعها، هي كالسم يأكله مَنْ لا يعرفه وهو حتفه، فكن كالمداوي جراحته، يحتمي قليلاً، مخافة ما يكره طويلاً، ويصبر على شدة الدواء، مخافة طول البلاء، فاحذر هذه الدار الغّرارة، الحيّالة الخداعة، التي زينت بخدعها، وفتنت بغرورها، وختلت بآمالها، وتشرفت لخُطّابها، فأصبحت كالعروس المجلية، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلّهم قاتلة، فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخر على الأول مزدجر، ولا العارف بالله ـ عزّ وجل ـ حين أخبر عنها مدكر، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته، فاغتبر، وطغى، ونسي المعاد، فشغل فيها لبه حتى زالت عنها قدمه، فعظمت ندامته، وكثرت حسرته، فخرج بغير زاد، وقدم على غير مهاد، فاحذرها يا أمير المؤمنين، وكن أَسَرَّ ما تكون فيها؛ أَحْذَرَ ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور، أشخصه إلى مكروه، وقد وصل الرخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها إلى فناء، فسرورها مشوب بالحزن، لا يرجع منها ماولّى فأدبر، ولا يُدْرَى ماهو آت فيُنتظر، أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، وابن آدم فيها على

---

(١) شرح الصدور: (٢٩٥).

خطر، ولقد عُرضت على نبيك محمد ﷺ بمفاتيحها وخزائنها، فأبى أن يقبلها، كره أن يحب ما أبغض خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه، فزواها عن الصالحين اختباراً، وبسطها لأعدائه اغتراراً، جاءت الرواية أنه تبارك وتعالى قال لموسى عليه السلام: «**إذا رأيت الغنى مقبلاً فقل: ذنبٌ عُجِّلتْ عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل: مرحباً بشعار الصالحين**»[١].

أخي الحبيب:

لـــو كنـــتَ رائـــد قـــوم ظـــاعنين إلى
دُنيـــاك هَـــذِي لَمَـــا ألفيـــتَ كـــذَّابـــا
لقلـــتَ تلـــك بـــلاءٌ نبتُهـــا سقـــمٌ
ومـــاؤُهـــا العَـــذْبُ ســـمٌّ للفتـــى ذَابـــا[٢]

أخي: والدنيا تطوى من أمامك.. وشمس الآخرة تقبل عليك.. ماذا حالك؟!

وكيف ترى الأمر؟!

لنرى حال **سلمان** رضي الله عنه عندما احتضر فبكى، قيل له: ما يبكيك؟ وأنت صاحب رسول الله ﷺ قال: ما أبكي أسفاً على الدنيا، ولا رغبة فيها، ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا عهداً، فتركنا ما عهد إلينا، أن تكون بُلْغَةُ أحدِنا كزاد الراكب، ثم نُظِر فيما ترك، فإذا قيمة ما ترك بضع وعشرون درهماً أو بضع وثلاثون درهما[٣].

---

(١) عدة الصابرين: (٣٣١).
(٢) موارد الظمآن: (١/ ٦٤٠).
(٣) أدب الدنيا والدين: (١١٩).

الدنيا سراب ممتد وليل مظلم. . طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا[١].

فإنه لا حد لها ولا منتهى إلا بالقناعة الزهد والرضى بما قسم الله. . والاستفادة من مرور الليالي والأيام في طاعة الله - جل وعلا -.

قال **مالك بن دينار**: خرج أهل الدنيا من الدنيا، ولم يذوقوا أطيب شيء فيها. قيل: وما هو؟ قال: معرفة الله - تعالى -[٢].

وانظر - أخي الحبيب - في حال المحتضرين من الصالحين ترى الهدوء والسكينة على النفوس المطمئنة، وترى غير ذلك على أصحاب الحرام، اللاهثين وراء الحطام وزخرف الدنيا.

العَبدُ ذو ضَجَرٍ والرَّبُّ ذو قَدَرٍ
والدهرُ ذو دُولٍ والرزقُ مَقْسُومُ
والخيرُ أجمعُ فيما اختارَ خَالِقُنا
وفي اختيارِ سواه اللَّومُ والشَّومُ

قال **أبو الدرداء**: لولا ثلاث لأحببت أن أكون في بطن الأرض لا على ظهرها: لولا إخوة يأتوني ينتقون أطايب الكلام كما يُنتقى طيب الثمر، أو أعفر وجهي ساجدًا لله - عزَّ وجلَّ -، أو غدوةٌ أو روحةٌ في سبيل الله - عزَّ وجلَّ -[٣].

هذه الرغبة الصادقة فيما عند الله. . وهذ هي الاستفادة الكاملة من الأوقات وتلك والله الأمنيات الخيرة. .

---

(١) السير: (٥/ ٢٦٣).
(٢) مدارج السالكين: (٢/ ٢٣٣).
(٣) الزهد: (١٩٨).

قال **وهيب بن الورد**: الزهد في الدنيا أن لا تأسى على الناس على ما فاتك منها، ولا تفرح بما آتاك منها[١].

أخي الحبيب:

إنما الدنيا إذا فكرت فيها: ثلاثة أيام، يومٌ مضى لا ترجوه، ويومٌ أنت فيه ينبغي لك أن تغتنمه، ويومٌ يأتي لا تدري أنت من أهله أم لا، ولا تدري لعلك تموت قبله، وليكن سعيك في دنياك لآخرتك، فإنه ليس لك من دنياك شيء إلا ما صدرت أمامك، فلا تدخرن عن نفسك مالك، ولا تتبع نفسك ما قد علمت أنك تاركه خلفك، ولكن تزوَّد لبُعْدِ المشقة[٢].

وليكن طلبك الدنيا اضطرارًا، وتذكرك في الأمور اعتبارًا، وسعيك لمعادك ابتدارًا، فاعمل المرتحل، فإن حادي الموت يحدوك ليوم ليس يعدوك[٣].

قال **الحسن** - رحمه الله -: إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الأشغال، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب[٤].

صاحب الدنيا الذي يعظمه البعض ـ حتى وإن كان تاركًا للصلاة ـ ويوسع له في المجلس، لننظر إلى **الحسن** ـ رحمه الله ـ كان إذا ذكر صاحب الدنيا يقول: والله ما بقيت له ولا بقي لها، ولا سلم من شرها ولا تَبِعَتِها

---

(١) حلية الأولياء: (٨/ ١٤٠).
(٢) حلية الأولياء: (٢/ ١٣٨).
(٣) أدب الدنيا والدين: (١٢٢).
(٤) حلية الأولياء: (٢/ ١٥٣).

ولا حسابها، ولقد أُخرج منها في خرق[١].

وكتب **علي بن أبي طالب** إلى عبدالله بن عباس: أما بعد فإن المرء يسوءه فوت مالم يكن يدركه، ويسره درك ما لم يكن ليفوته، فليكن سرورك بما قلت من أمر آخرتك، وليكن أسفك على ما فاتك منها، وما نلت من دنياك فلا تكثرن به فرحًا، وليكن همك فيما بعد الموت.

أَرَى طالبَ الدنيا وإنْ طَال عمرُهُ
ونَالَ من الدنيا سُرورًا وأَنعما
كبانٍ بَنَى بُنيانه فأقامَه
فلمَّا استوى ما قَدْ بَنَاهُ تَهَدَّما[٢]

أخي الحبيب:

يقال: غمُّ الأحياء خمسة أشياء، ينبغي للإنسان أنْ يكونَ غمه في هذه الخمسة:

أولها: غم الذنوب الماضية، لأنه قد أذنب ذنبًا، ولم يتبين له العفو، فينبغي أن يكون مغمومًا بها مشغولاً بها.

الثاني: أنه قد عمل الحسنات، ولم يتبين له القبول.

الثالث: قد علم حياته فيما مضى كيف مضت؟ ولا يدري كيف يكون الباقي.

الرابع: قد علم أن لله - تعالى - دارين، ولا يدري إلى أية دار به يصير.

الخامس: لا يدري أن الله - تعالى - راضٍ عنه أم ساخطٍ عليه.

---

(١) حلية الأولياء: (٢/ ١٤٤).

(٢) إرشاد العباد: (١٢٠).

فمن كان غمه فيه هذه الأشياء الخمسة في حياته فإنه يمنعه من الضحك[١].

قال **إبراهيم التيمي**: كم بينكم وبين القوم؟ أقبلت عليهم الدنيا، فهربوا، وأدبرت عنكم فاتبعتموها[٢][٣].

كأنَّك لم تسمعْ بأخبار مَنْ مَضَى
ولَمْ تَرَ في الباقين ما يصنعُ الدهرُ
فإن كنتَ لا تدري فتلكَ ديارُهم
مَحَاهَا مَجَالُ الرِّيح بَعْدَكَ والقَطْرُ
على ذاك مرُّوا أجمعونَ وهكذا
يمرُّون حتى يستردُّهم الحشرُ
فحتى متى لا تصحُو وقَدْ قَرُبَ المدى
وحتى متى لا يَنْجَابُ عن قلبك السكْرُ
بل سوف تَصْحو حين ينكشف الغَطَا
وتَذْكُرُ قولي حينَ لا ينفعُ الذكْرُ

قام **أبو ذر الغفاري** عند الكعبة فقال: يا أيها الناس أنا جندب الغفاري، هلموا إلى الأخ الناصح الشفيق، فاكتنفه الناس، فقال: أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفرًا أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه؟

قالوا: بلى.

قال: فإن سفر طريق يوم القيامة أبعد ما تريدون، فخذوا ما يصلحكم.

---

(١) تنبيه الغافلين: (١/ ٢١٣).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٩٠).
(٣) السير: (٥/ ٦١).

قالوا: وما يصلحنا؟

قال: حجوا حجة لعظائم الأمور، وصوموا يومًا شديدًا حره لطول النشور، وصلوا ركعتين في سواد الليل لوحشة القبور، كلمة خير تقولها أو كلمة شر تسكت عنها لوقوف يوم عظيم، تصدَّق بمالك لعلك تنجو من عسيرها، اجعل الدنيا مجلسين، مجلسًا في طلب الحلال، ومجلسًا في طلب الآخرة، الثالث: يضرك ولا ينفعك لا تَرده. اجعل المال درهمين: درهمًا تنفقه على عيالك من حِلِّه، ودرهمًا تقدِّمه لآخرتك.

أخي المسلم:

انظـــرْ إلى مَـــنْ حَـــوَى الـــدنيـــا وزِينتَهـــا
هـــل رَاحَ منهـــا بغيرِ الكَسْـــبِ والكَفَـــنِ

ها هو الحسن البصري: في تباين واضح بين حالنا وحالهم.. يقول: أدركت أقوامًا وصحبت طوائف، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يقبلون على شيء منها أدبر، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب، كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطوله ثوب، ولم ينصب له قدر، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئًا، ولا أَمَرَ مَنْ في بيته بصنعة طعام قط. فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم، فلم يزالوا على ذلك. والله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا من الذنوب إلا بالمغفرة، رحمة الله عليهم ورضوانه[1].

---

(١) الإحياء: (٣/ ٢٣٩).

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

تصلُ الذنوبَ إلى الذنوبِ وتَرْتَجي
دَرَجَ الجِنَانِ بها وفوزَ العابِدِ
ونسيتَ أن الله أَخْرَجَ آدمًا
منها إلى الدنيا بذنبٍ واحدِ

ونحن - أخي - نبحث عن المُتع والملذات.. نبتعد عن المكدرات والمنغصات..

هذه حالنا أما حال أبي الدرداء فهي كما قال: أحب الفقر تواضعًا لربي - عزَّ وجلَّ - وأحب الموت اشتياقًا إلى ربي - عزَّ وجلَّ - وأحب المرض تكفيرًا لخطاياي[1].

للناس حرصٌ على الدنيا بتدبير
وصفوها لكَ ممزوجٌ بتكْدير
لم يرزقوها بعقلٍ بعد ما قُسِمَتْ
لكنهم رُزِقوها بالمَقَاديرِ
كم مِنْ أديبٍ لبيب لا تساعدُهُ
وأحمقٍ نَالَ دنياه بتَقْصيرِ
ولوكانَ عن قوةٍ أوعن مُغالبةٍ
طَارَ البُزاةُ بأرزاقِ العَصَافيرِ[2]

والدنيا وإن كانت دنيئة حقيرة.. إلا أنها ممر إلى الدار الآخرة ومعبر إلى

---

(١) الزهد: (٢١٧).
(٢) تاريخ الخلفاء: (١٧١).

إحدى المنزلتين. جنةٌ أو نار.. ولنرى أحد تلك الممرات التي تؤدي إلى الجنة.. وهي من أعمال الدنيا.

قال ﷺ: «**حُوسب رجلٌ ممن كان قبلكم، فلم يُوجد له من الخير شيءٌ، إلا أنه كان يُخالطُ الناس، وكان مُوسرًا، فكان يأمرُ غِلمانَهُ أن يتجاوزوا عن المُعْسر، قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نحن أحقُّ بذلك منه، تجاوزوا عنه**» رواه البخَاري ومسلم واللفظ له.

يقول الإمام **الشافعي**: أشدُّ الأعمال ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يُرجى ويُخاف[١].

وقال **الحسن**: غدًا كل امريء فيما يهمه، ومن همَّ بشيء أكثر من ذكره، إنه لا عاجلة لمن لا آخرة له، ومن آثر الدنيا على الآخرة فلا دنيا له ولا آخرة[٢].

أخي الحبيب:

وأنت تسير في هذه الدنيا.. هناك يوم سيتوقف بك المسير وتحط بك القافلة ولكن:

إذا أنتَ لم ترحلْ بزادٍ من التُّقى
ولاقيتَ مَنْ بعد الموت قَدْ تَزوَّدا
ندمتَ على أن لا تكونَ كمثْلِهِ
وأنكَ لم ترصدْ كما كان أَرْصَدَا[٣]

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

---

(١) صفة الصفوة: (٢/ ٢٥١).
(٢) حلية الأولياء: (٢/ ١٤٤).
(٣) عقود اللؤلؤ: (٣١).

عن **حفص الجعفي** قال: ورث داود الطائي من أمه أربعمائة درهم، فمكث يتقوت بها ثلاثين عامًا، فلما نفدت جعل ينقض سقوف الدويرة يبيعها[١].

وقال **عمر بن أيوب**: قال أبو الشعثاء (جابر بن زيد): يا عمر، ما أملك من الدنيا إلا حمارًا[٢].

سهل عليه الحساب وخف به المسير.. ونحن ماذا نملك..؟! وماذا نأمل؟!

أخي المسلم:

عجبًا لمن يعرف أن الموت حق، كيف يفرح؟ وعجبًا لمن يعرف أن النار حق، كيف يضحك؟ وعجبًا لمن رأى تقلب الدنيا بأهلها، كيف يطمئن إليها؟ وعجبًا لمن يعلم أن القدر حق، كيف ينصب[٣]؟!

رأيتُ الدهرَ مختلفًا يدورُ
فلا حزنٌ يدومُ ولا سرورُ
وقد بَنَتِ الملوكُ به قصورًا
فلم تَبْقَ الملوكُ ولا القصورُ[٤]

ونحن في هذه الدنيا لاهون ساهون هذا صوت ينادي.. صوت **بلال بن سعد** يقول: يا أهل التقى إنكم لم تخلقوا للفناء، وإنما تنقلون من دار إلى دار، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا ومن

---

(١) السير: (٧/ ٤٢٤).
(٢) حلية الأولياء: (٣/ ٨٩).
(٣) الإحياء: (٣/ ٢٢٤).
(٤) ديوان الإمام علي: (١٠٠).

الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الخلود في جنة أو نار[١].

مراحل متتابعة.. وأزمنة متتالية، قطعنا منها مراحل عدة.. من الأصلاب إلى الأرحام ومن الأرحام إلى الدنيا.. ها نحن نسير عليها، ننتظر النقلة التالية إلى القبور.. ووالله نحن في غفلة وإلا كيف تحلو الحياة، ويطيب العيش، ووراءنا القبور والموقف.. ثم الخلود.. أهوالٌ وأهوالٌ.

قال أبو بكرالمروذي: دخلت على أحمد بن حنبل يومًا فقلت: كيف أصبحت؟ فقال: كيف أصبح من ربه يطالبه بأداءِ الفرض، ونبيه يطالبه بأداء السنة، والملكان يطالبانه بتصحيح العمل، ونفسه تطالبه بهواها، وإبليس يطالبه بالفحشاء، وملك الموت يطالبه بقبض روحه، وعياله يطالبه: بالنفقة[٢].

هذه الدنيا التي نحن نتكالب عليها.. ونتقاتل عليها.. لننظر الوجه المشرق لمن عرف قيمة الوقت في هذه الدنيا..

يحدثنا أبو ضمرة عن صفوان بن سليمفيقول: رأيته ولو قيل له الساعة غدًا: ما كان عنده مزيد عمل[٣].

أرى حُلـــــلاً تصـــــانُ على أنـــــاسٍ
وأعْـــــراضًـــــا تُنَـــــالُ ولا تُصَـــــانُ

---

(١) السير: (٥/ ٩١).
(٢) مناقب الإمام أحمد: (٣٥٥).
(٣) تذكرة الحفاظ: (١/ ١٣٤).

يقـــولـــونَ الـــزمـــانُ زَمَـــانُ سُـــوءٍ
وهـــمْ فســـدوا ومـــا فَسَـــدَ الـــزمـــانُ[١]

قال **بعض السلف**: من ادعى بغض الدنيا فهو عندي كذاب إلى أن يثبت صدقه، فإذا ثبت صدقه، فهو مجنون[٢].

لأن هذه الدنيا مزرعة الآخرة.. يتزود فيها بالطاعات والصالحات. وهو أحد رجلين طالب دنيا، فكيف يبغضها وهو يسير في ركبها، ورجل آخر يطلب الآخرة.. فأنى له أن يبغض زمن الزرع ووقت العمل؟!

قال بعض الحكماء: كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره، كيف يفرح من يقوده عمره إلى أجله، وتقوده حياته إلى موته[٣].

وقال **الفضيل بن عياض**: العجب كل العجب لمن عرف الله ثم عصاه بعد المعرفة[٤].

أهـــون بـــداركـــم الـــدنيـــا وأهليهـــا
واضرب بهـــا صفحـــات مِـــنْ مُحِبِّيهـــا
الله يعلـــــمُ أَنِّي لســـــتُ وامقهـــــا
ولا أريـــدُ بقـــاءَ ســـاعـــةٍ فيهـــا
لكـــنْ تمـــرَّغـــتُ في أدنـــاسِهـــا حُقُبًـــا
وبِـــتُّ أنشرُهـــا حينًـــا وأطـــويهـــا

---

(١) الزهد للبيهقي: (١٥٧).
(٢) صيد الخاطر: (٢١٢).
(٣) جامع العلوم والحكم: (٣٨١).
(٤) الزهر الفائح: (٩٥).

أيـــام أسحـــب ذيلي في مـــلاعبهـــا
جهـــلاً وأهْـــدمُ مـــن دينـــي وأبنيهـــا
وكـــم تحملـــتُ فيهـــا غير مكترثٍ
مـــن شـــامخـــاتِ ذنـــوبٍ لســـتُ أحصِيهـــا
فقلـــتُ أبْقَـــى لعليِّ أهـــدُم مـــا
بنيـــتُ منهـــا وأَدْنَـــاسي أُنَقِّيهـــا
ومـــن ورائـــي عقـــابٌ لســـت أقطعهـــا
حتـــى أخفـــف أحمـــالي وأُلقيهـــا
يـــا ويلتـــي وبحـــارُ العفـــوِ زاخـــرةٌ
إن لم تصبْنِـــي بـــرشٍ في تَثَنِّيهـــا[1]

إخواني: تفكروا ما في الحشر والميعاد، ودعوا طول النوم والرقاد، وتفقدوا أعمالكم، فالمُناقِشُ ذو انتقام، إن في القيامة لحسرات، وإن عند الميزان لزفرات، فريقٌ في الجنة وفريق في السعير. ففريق يرتقون إلى الدرجات، وفريق يهبطون إلى الدركات، وما بينك وبين هذا الأمر إلا أن يقال: فلان قد مات، يا من كان له قلب فمات!، يا من كان له وقت ففات!، أشرف الأشياء قلبك ووقتك، فإن أنت ضيعت وقتك، وأهملت قلبك، فقد ذهب منك الفوائد، إن كنت تبكي على ما فات، فابك على فرقتك، وإن كنت تبكي على ما مات، فابك على قلبك[2].

ونحن - أخي الحبيب - في هذه الدنيا على قدمٍ وساق سائرون، ولا

---

(١) العاقبة: (٣٠).
(٢) الزهر الفائح: (٤١٤).

يأمن مضيعون، نفوت أوقاتنا، ونضيع أيامنا.. ونلهث في سير حثيث وراء حطام الدنيا كأنها تفوت.

قيل لحاتم الأصم: على ما بنيت أمرك في التوكل؟

قال: على خصالٍ أربع:

* علمت أن رزقي لا يأكله غيري، فأطمأنت به نفسي.

* وعلمت أن عملي لايعمله غيري، فأنا مشغول به.

* وعلمت أن الموت يأتي بغتة، فأنا أبادره.

* وعلمت أني لا أخلو من عين الله فأنا مستحي منه[1].

إنَّ إلٰهـــــي لغنـــــيٌّ حميـــــدٌ
في كـــلِّ يـــومٍ منـــهُ رزقٌ جـــديـــدُ
الحمـــــدُ لله الـــــذي لم يَـــــزَلْ
يفعـــلُ بي أكثـــرَ مِمَّـــا أُرِيْـــدُ[2]

همة المؤمن متعلقة بالآخرة، فكل ما في الدنيا يحركه إلى ذكر الآخرة، وكل من شغله شيء فهمته شغله، ألا ترى أنه لو دخل أرباب الصنائع إلى دار معمورة، رأيت البزاز ينظر إلى الفرش، ويحرز قيمته. والنجار إلى السقف، والبنَّاء إلى الحيطان، والحائك إلى النسيج المخيط، والمؤمن إذا رأى ظلمة، ذكر ظلمة القبر، وإذا رأى مؤلمًا، ذكرالعقاب، وإن سمع صوتًا فظيعًا، ذكر نفخة الصور، وإن رأى الناس نيامًا، ذكر الموتى في

---

(١) السير: (١١/ ٤٨٥)، وفيات الأعيان: (٢/ ٢٧).

(٢) صفة الصفوة: (٤/ ٥٢).

القبور، وإن رأى لذة، ذكر الجنة، فهمته متعلقة بما ثَمَّ، وذلك يشغله عن كل ما تم[١].

ولا خير في الدنيا لمن لم يكنْ لهُ
مِنَ الله في دارِ المُقام نَصِيْبُ
فإنْ تُعْجِبِ الدنيا رِجالاً فإنه
متاعٌ قليل والزوالُ قريبُ

قال **عبد الله بن مسعود** في دُررٍ من الكلام: إنكم في ممر الليل والنهار، في آجال منقوصة وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، مَنْ زرع خيرًا يوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شرًّا يوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع مثل ما زرع، لا يسبق بطيء بحظه، ولا يُدرك حريصٌ ما لم يُقدر له، فمن أُعطي خيرًا فالله أعطاه، ومن وُقي شرًّا فالله وقاه، المتقون السادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة[٢].

وقيل **لعلي** - رضي الله عنه -: يا أبا الحسن صف لنا الدنيا؟ قال: أطيل أم أقصر؟ قالوا: بل أقصر، قال: حلالها حساب، وحرامها النار[٣].

كلمات تُغني عن مواعظ لمن كان له قلب، ألا وإن الدنيا دار ابتلاء وحزن ونصب وشقاء.

قال **سيار أبو الحكم**: الفرح بالدنيا والحزن بالآخرة لا يجتمعان في قلب عبد، إذا سكن أحدهما القلب فرَّ الآخر[٤].

---

(١) صيد الخاطر: (٥٢١).
(٢) السير: (١/ ٤٩٧).
(٣) تسلية أهل المصائب: (٢٤٣).
(٤) صفة الصفوة: (٣/ ١٣).

القبور، وإن رأى لذة، ذكر الجنة، فهمته متعلقة بما ثَمَّ، وذلك يشغله عن كل ما تم[١].

ولا خير في الدنيا لمن لم يكنْ لهُ
مِنَ الله في دارِ المُقام نَصِيْبُ
فإنْ تُعْجِبِ الدنيا رِجالاً فإنه
متاعٌ قليل والزوالُ قريبُ

قال **عبد الله بن مسعود** في دُررٍ من الكلام: إنكم في ممر الليل والنهار، في آجال منقوصة وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، مَنْ زرع خيرًا يوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شرًّا يوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع مثل ما زرع، لا يسبق بطيء بحظه، ولا يُدرك حريصٌ ما لم يُقدر له، فمن أُعطي خيرًا فالله أعطاه، ومن وُقي شرًّا فالله وقاه، المتقون السادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة[٢].

وقيل **لعلي** - رضي الله عنه -: يا أبا الحسن صف لنا الدنيا؟ قال: أطيل أم أقصر؟ قالوا: بل أقصر، قال: حلالها حساب، وحرامها النار[٣].

كلمات تُغني عن مواعظ لمن كان له قلب، ألا وإن الدنيا دار ابتلاء وحزن ونصب وشقاء.

قال **سيار أبو الحكم**: الفرح بالدنيا والحزن بالآخرة لا يجتمعان في قلب عبد، إذا سكن أحدهما القلب فرَّ الآخر[٤].

---

(١) صيد الخاطر: (٥٢١).
(٢) السير: (١/ ٤٩٧).
(٣) تسلية أهل المصائب: (٢٤٣).
(٤) صفة الصفوة: (٣/ ١٣).

نصيب الدنيا في حياتنا كبير وتعلقنا بهاشديد.. لا نتحدث إلا فيها ولا نغتم إلا من أجلها.. بل ربما العلاقات الاجتماعية أصبحت المادة أساسًا لها.. ولقد هالني يومًا ما رأيته من قلة زائري أحد جيراننا، وكان مسؤولاً كبيرًا فالباب مفتوح كما هو والجار جالسٌ في صدر المجلس في وسط حديقة غناء بعد صلاة العشاء ولم أر حركة ولا زوَّارًا.. فإذا به تلك الليلة أُحيل للتقاعد. زوَّار الأمس هم زوار الدنيا وأهل الكراسي.. أما زوار الآخرة والمحبة الصادقة فإنهم لا يتجاوزون نصف عدد أصابع اليد الواحدة.

هذه هي النظرة المادية.. والمرض الاجتماعي.. ولو تحدث أحدهم لذم الدنيا والتكالب عليها، ولكن ظهر منه حب الدنيا والقرب من المسؤولين دون أن يشعر ودون أن يعلم..

يحكى أن **حسان بن أبي سنان** مَرَّ بغرفة فقال: متى بُنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه، فقال: تسألين عما لا يعنيك؟ لأعاقبنك بصوم سنة، فصامها.

كم سنصوم من السنين لو حسبنا حسابه وسلكنا طريقه..!

قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

وقد ارتاح من أفرغ قلبه من همِّ الدنيا، وأقبل على الله، واستعد يوم الرحيل.. هذا حماد بن سلمة لو قيل له: إنك تموت غدًا ما قدر أن يزيد في العمل شيئًا[١].

أخي المسلم:

من تأمل بعين الفكر: دوام البقاء في الجنة، في صفاء بلا كدر، ولذات بلا

---

(١) تذكرة الحفاظ: (١/ ٢٠٣).

انقطاع، وبلوغ كل مطلوب للنفس والزيادة، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من غير تغيير ولا زوال، إذ لا يقال: ألف ألف سنة، ولا مائة ألف ألف، بل ولو أن الإنسان عدَّ الألوف ألوف السنين لا ينقضي عدده، وكان له نهاية. فبقاء الآخرة لا نفاد له، إلا أنه لا يحصل ذلك إلا بنقد هذا العمر، وما مقدار عمر غايته مائة سنة، منها خمسة عشرة صبوة وجهل، وثلاثون بعد السبعين إن حصلت ضعف وعجز، والتوسط نصفه نوم، وبعضه زمان أكل وشرب وكسب، والمنتحل منه للعبادات يسير، أفلا يشتري ذلك الدائم بهذا القليل، إن الإعراض عن المشروع في هذا البيع والشراء لغبنٌ فاحشٌ في العقل، وخلل في الإيمان بالوعد[1].

ولـــولا ثـــلاثٌ هـــنَّ مـــن لـــذَّةِ الفتـــى
وَرَبِّـــكَ لَمْ أحفَـــلْ مَتَـــى قَـــام عُـــودي
سِيَـــاحَـــةُ قلبـــي في ريـــاضِ أَرْيضـــةٍ
مـــن العِلْـــم مُجتـــازًا على كـــلِّ مَـــوْرُدِ
وتسبيحًـــا لله جـــل جـــلَالـــه
عشيـــاً وبـــالأبكـــار في كـــل مَسجـــدِ
وتـــرتيـــل آيـــاتِ الكتـــاب مُنـــوِّرًا
بهـــا جـــوف ليـــلٍ في قيـــام التهجـــد[2]

قالَ الحسن: نعمت الدار الدنيا للمؤمن، وذلك أنه عَمِلَ قليلاً، وأخذ

---

(١) صيد الخاطر: (٤٥٢).
(٢) موارد الظمآن: (٢/ ٢٨).

زاده منها للجنة، وبئست الدار كانت للكافر والمنافق، وذلك أنه ضيَّع لياليه وكان زاده إلى النار[١].

أخي الحبيب... أين نحن من هؤلاء؟!

عن **أنس بن عياض** قال: رأيت صفوان بن سليم ولو قيل له غدًا القيامة، ما كان عنده مزيد على ما هو عليه من العبادة[٢].

نحن في دنيا: أعمارها قصيرة، وفرحها مُكدِّر.. ونعيمها زائل..!! وقد وصفها **أبو حازم سلمة بن دينار** بقوله: ما مضى من الدنيا فحلم، وما بقي فأماني.

يا من تمتَّع بالدنيا وزينتها
ولا تنام عن اللذاتِ عيناهُ
شغلتَ نفسَكَ فيما ليس تدركه
تقولُ لله ماذا حينَ تلقاهُ[٣]

قال الحكيم: أربعة طلبناها فأخطأنا طرقها: طلبنا الغنى في المال؛ فإذا هو في القناعة، وطلبنا الراحة في الكثرة؛ فإذا هي في القلة، وطلبنا الكرامة في الخلق، فإذا هي في التقوى، وطلبنا النعمة في الطعام واللباس، فإذا هي في الستر والإسلام[٤].

أخي.. انظر أين مطلبك من هذه؟ وعلى ماذا تقع عيناك.. وأين تذهب بك المذاهب؟!

---

(١) تزكية النفوس: (١٢٨).
(٢) صفة الصفوة: (٢/ ١٥٣).
(٣) مكاشفة القلوب: (٢٩٣).
(٤) تنبيه الغافلين: (١٢٨).

ولعلَّ لنا نصيبًا من قول **عطاء الخرساني**: إني لا أوصيكم بدنياكم، أنتم بها مستوصون، وأنتم عليها حُرَّاص، وإنما أوصيكم بآخرتكم، فخذوا من دار الفناء لدار البقاء، واجعلوا الدنيا كشيء فارقتموه، فوالله لتفارقنها، واجعلوا الموت كشيء ذقتموه، فوالله لتذوقنه، واجعلوا الآخرة كشيء نزلتموه، فوالله لتنزلنها[1].

ننافِسُ في الدنيا ونحنُ نَعِيبُها
وقد حذَّرتناها لعمري خُطُوبها
وما نحسبُ الأيامَ تنقضي مدة
على أنها فينا سريعٌ دَبِيبُها
كأني برهطٍ يحملونَ جَنازتي
إلى حفرة يُحْثى عليَّ كثيبُها
وكم ثم مِنْ مُسْترجع متوجِّعٍ
ونائحةٍ يعلُو عليَّ نحيبُها
وباكيةٍ تبكي عليَّ وإنني
لفي غَفْلَةٍ من صوتها ما أُجيبُها
أيا هادم اللذات ما منك مهربٌ
تحاذر نفسي منك ما سيصيبُها
وإني لَمَنْ يكْرَهُ الموتَ والبلا
ويُعْجِبُهُ رُوحُ الحياةِ وطيبُها

---

(١) صفة الصفوة: (٤/ ١٥١).

رأيـــت المنـــايـــا قُسِّمـــت بين أَنفُـــسٍ
ونفسي سيـــأتي بعـــدهـــنَّ نصيبُهـــا[١]

ذُكر عن **شقيق البلوخي** أنه قال: الناس يقولون ثلاثة أقوال وقد تألفوها في أعمالهم:

* يقولون: نحن عبيد الله وهم يعملون عمل الأحرار، وهذا خلاف قولهم.

* ويقولون: إن الله كفيل بأرزاقنا، ولا تطمئن قلوبهم إلا بالدنيا وجمع حطامها، وهذا أيضًا خلاف قولهم.

* ويقولون: لابد لنا من الموت وهم يعملون أعمال من لا يموت، وهذا أيضًا خلاف قولهم[٢].

وقال **إبراهيم التيمي**: مثَّلتُ نفسي في الجنة، آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثم مثَّلت نفسي في النار، آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت: لنفسي: أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحًا، قال: قلت: فأنت في الأمنية فاعملي.

أفٍّ للـــدنيـــا فليســـتْ لي بـــدارٍ
إنمـــا الـــراحـــةُ في دَارِ القَـــرارِ
أَبَـــتِ الســـاعـــاتُ إلا سُرعـــةً
في بلى جَسْمِـــي بليـــلٍ ونهـــارٍ[٣]

---

(١) حلية الأولياء: (١٠/ ١٤١).
(٢) مكاشفة القلوب: (٣٥).
(٣) صفة الصفوة: (٢/ ٥١٧).

خطب علي - رضي الله عنه - فقال: ألا وإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وآذنت باطلاع، ألا وإن المضمار اليوم، والسباق غدًا، ألا وإن السبقة الجنة، والغاية الموت، ألا وإنكم في أيام مهل، ومن ورائه أجل يرثه عجل، فمن عمل في أيام مهلة قبل حضور أجله، نفعه عمله، ولم يضره أمله، ومن لم يعمل في أيام مهلة قبل حضور أجله ضره أمله وساءه عمله[١].

لا تطمئنَّ إلى الدنيا وزخرُفِها
وإن توشَّحَتْ من أثْوابها الحَسَنا
أين الأحبة والجيرانُ ما فعلوا
أينَ الذين هم كانُوا لنا سَكَنا
سقاهم الدهرُ كأسًا غيرَ صافيةٍ
فصيَّرتهم لأطباقِ الثَّرى رُهُنا[٢]

وصف حالَ الإنسان في هذه الدنيا وما بعدها يحيى بن معاذ فقال: من الدنيا لا ندرك آمالنا، وللآخرة لا نقدم أعمالنا، وفي القيامة لا ندري ما حالنا[٣].

ونحن ـ أخي المسلم ـ نفرح بالدنيا، تقبل من كل جانب، وتدخل علينا مع كل باب.. لا نلقي بالاً لما أتى، ولا نبالي كيف أتى. لنرى قول أبي حازم سلمة بن دينار في هذا الإقبال من الدنيا.

يقول: نعمة الله فيما زوى عني من الدنيا، أعظم من نعمته عليَّ فيما

---

(١) العاقبة: (٦٤).
(٢) السير: (١٣/ ١٨٩).
(٣) حلية الأولياء: (١٠/ ٥٦).

أعطاني منها، إني رأيته أعطاها قومًا فهلكوا[١].

أترانا نخاف مثله من إقبال الدنيا بأبيضها وأصفرها نحونا، أم ترانا نفرح ولا ندري ما أُعدَّ لنا؟!

قال **ذو النون المصري**: سقم الجسم في الأوجاع، وسقم القلوب في الذنوب، فكما لا يجد الجسم لذة الطعام عند سقمه، كذلك لا يجد القلب حلاوة العبادة مع الذنوب.

أخي.. هب أن الدنيا أقبلت عليك.. في كل مكان لك نصيب.. وفي كل استثمار لك سهم. كيف سيكون خشوعك في الصلاة؟! وكيف ستؤدي السنن الرواتب؟! وهل سيكون لسانك رطبًا من ذكر الله؟!

وانظر حال من زُويت عنهم الدنيا، وكانت حياتهم كفافًا، لترى نعم الله في قلة الهَمِّ والغم والتفرغ للعبادة والطاعة.

قال **مضاء بن عيسى**: من رجا شيئًا طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه، ومن أحب شيئًا آثره على غيره.

أخي الكريم:

من موعظة **لأبي بن كعب** -رضي الله عنه- قال: لا تغبط الحي إلا بماتغبط به الميت[٢].

وبماذا نغبط الميت؟! إنه العمل الصالح، وحسن الذكر، وطول العبادة.

أخي:

هبِ الدنيا تُساقُ إليكَ عفوًا
أليسَ مصيرُ ذاك إلى انتقالِ

---

(١) حلية الأولياء: (٣/ ٢٣٣).

(٢) بستان العارفين: (١١١).

وما دنياك إلا مِثْلَ فيءٍ
أظلَّكَ ثُمَّ آذن بالزِّوالِ

قال رجل لمعاذ بن جبل: علمني. قال: وهل أنت مطيعي؟ قال: إني على طاعتك حريص، قال: صم وأفطر، وصلّ، ونم، واكتسب ولا تأثم، ولا تموتن إلا وأنت مسلم، وإياك ودعوة المظلوم[١].

إذا المرءُ صامَ عن الدنايا
فكلُّ شُهورِهِ شَهْرُ الصِّيامِ[٢]

قال بشر بن الحارث: ليس أحد يحب الدنيا إلا لم يحب الموت، ومن زهد فيها أحب لقاء مولاه[٣].

وقال سلمان الفارسي - رضي الله عنه -: ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني، وثلاث أحزنتني حتى أبكتني، أما الثلاث الأول: فمؤمل دنيا، والموت يطلبه. وغافل وليس بمغفول عنه. وضاحك ملء فيه، ولا يدري أساخط عليه رب العالمين أم راض عنه.

أما الثلاث التي أحزنتني حتى أبكتني: ففراق محمد ﷺ وفراق الأحبة، والوقوف بين يدي الله - تعالى -، ولا أدري أيؤمر بي إلى الجنة أم إلى النار[٤].

دنياك غرَّارةٌ فاذرها
فإنها مركبٌ جَمُوحُ[٥]

---

(١) صفة الصفوة: (١/ ٤٩٦).
(٢) البركة في فضل السعي والحركة: (١١١).
(٣) السير: (١٠/ ٤٧٦).
(٤) العاقبة: (٦٤).
(٥) صفة الصفوة: (٤/ ٣٥٢).

قيل **لهرم بن حيان**: أوصِ. قال: قد صدقتني نفسي، وما لي ما أوصي به، ولكن أوصيكم بخواتيم سورة النمل[١].

وقال **حماد لداود الطائي**: يا أبا سليمان لقد رضيت من الدنيا باليسير. قال: أفلا أدلك على من رضي بأقل من ذلك؟ من رضي بالدنيا كلها عوضًا عن الآخرة[٢].

أخي الحبيب... أين نحن من هؤلاء؟!

قال **أبو داود السجستاني**: ما رأيت أحمد بن حنبل ذكر الدنيا قط.

نـــامـــتْ عيـــونُ الآمنين عـــن الـــرَّدى
وعيـــونُـــهُ مِـــنْ حـــرْصِـــهِ تَتَـــوقَّـــدُ
فـــاستـــأْمَنُـــوا مَكْـــرَ الإلـــه وإنَّـــه
مكـــرُ يُســـل على الـــدوام ويغمَـــدُ
حتـــى إذا هَتَـــفَ الهـــلاكُ تنبَّهـــتْ
نفـــسُ الضعيـــفِ وهَـــالَهـــا مـــا تُـــوعَـــدُ
يـــا ويحهـــم إن الهَـــوى يلْهُـــوْ بهـــم
والمـــوتُ في كفـــن الهـــوى يَتَـــوعَّـــدُ

لقد ضربت الدنيا في نفوسنا بسهم، ونصبت في قلوبنا رايات.. ليلنا ونهارنا في حديث عن الدنيا.. جلُّ تفكيرنا كيف نفعل؟! وأكثر حيلنا كم نربح!! إن ضرب موعد للدنيا ذهبنا إليه مبكرين، وأقمنا عند بابه فرحين.. ولا نُبقي للآخرة في قلوبنا ركنًا ولا زاوية.. وانظر إذا رُفع

---

(١) السير: (٤/٤٨).
(٢) صفة الصفوة: (٣/١٤١).

الأذان، كم ترى من المبكرين المسرعين.. والتفت إلى الشوارع والطرقات ترى الكثرة تسير بعجلة للدنيا.. مولية عن الآخرة مقبلة على الدنيا..

قال **سعيد عبد العزيز**: من أحسن فليرج الثواب، ومن أساء فلا يستنكر الجزاء، ومن أخذ عزًّا بغير حق أورثه ذلاً بحق، ومن جمع مالاً بظلم أورثه الله فقرًا بغير ظلم.

نُرقِّع دُنيانا بتمزيقِ ديننَا
فلا ديننُا يَبقَى ولا ما نُرقِّعُ[1]

قال **الحسن البصري**: إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع الكاف عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لهم[2].

الدنيا إن قلت أو كثرت ليست مقياسًا للسعادة، ولا مدخلاً للنعيم.. إنما هو قياسٌ نسبي.. فهناك من إذا كثر ماله كثر غمه وهمه، والبعض هادىء البال مطمئن الفؤاد.. لديه ما يكفيه لدفع حاجات الدنيا، فلا يبذل وجهه لأحد، ولا هو يشكو من قلة أو حاجة.

وفي حياتنا نرى الأمثلة محسوسة والشواهد قائمة، وأذكر أن شخصًا يملك من الثروة ما تكفي زكاة ماله لألوف الأسر المحتاجة.. ويشكو لي بين حين وآخر: كدر الدنيا، وقلة سعادتها، وكثرة همومها ومشاغلها..

وعاشرت مؤذن مسجدٍ فترة من الزمن، فما رأيته يشكو ولا يتذمر، بل رأيته يسعد بأيامه، ويفرح بأبنائه، ويعدد نعم الله عليه.. رغم أنه يسكن

---

(١) حلية الأولياء: (٨/ ١٠).
(٢) مختصر منهاج القاصدين: (٢١).

في بيت المسجد، وحالته المادية يعلم الله بها فلديه من الأبناء الكثير. . ولكن سبحان من يُعطي القناعة والرضا، ويستعمله في طاعته، ويقربه من رحمته.

أَقِلَّ مِنَ الدهرِ مَا أتاكَ بِهِ
واصْبر لِرَيْبِ الزمانِ إنْ عَثُرا
ما لامريء فوقَ ما يجري القضاءُ بِهِ
فالهمُّ فضل وخيرُ الناس مَنْ صَبرَا
يا رُبَّ ساعٍ في سَعْيِهِ أَملٌ
يَفْنَى ولم يقض مِنْ تأْمِيلِهِ وَطَرَا
ما ذَاقَ طَعْمَ الغِنَى مَنْ لاَ قُنوعَ لَهُ
ولن تَرَى قنعا ما عَاشَ مُفْتَقِرَا
والعُرفُ مَنْ يأتِهِ يَحْمِدْ عواقِبَهُ
ما ضاعَ عُرفٌ وإنْ ولَّيتَهُ حَجَرَا[1]

قال بعض الحكماء: عجبت لمن يحزن على نقصان ماله ولا يحزن على نقصان عمره، وعجبت لمن الدنيا مدبرة عنه، والآخرة مقبلة عليه، كيف يشتغل بالمدبرة ويعرض عن المقبلة.

أخي المسلم:

إذا خلا القلب من ملاحظة الجنة والنار، ورجاء هذه والهرب من هذه فترت عزائمه، وضعفت همته، ووهي باعثه، وكلما كان أشد طلبًا للجنة

---

(١) حلية الأولياء: (٧/ ٢٢٠).

وعملاً لها، كان الباعث له أقوى، والهمة أشد والسعي أتم، وهذا أمر معلوم بالذوق[١].

والكثير يسير في هذه الدنيا، يبحث عن الجادة، وينشد الطريق، ويسرع نحو السعادة.. يا ترى هل أخطأ الطريق وأضاع العلامة.. لنرى ذلك.

في قول **مالك بن دينار** حينما قال: خرج أهل الدنيا من الدنيا، ولم يذوقوا أطيب شيء فيها، قيل: وما هو؟ قال: معرفة الله[٢].

مَنْ شاء عيشًا هنيئًا يستفيد بهِ
في دينه ثمَّ في دُنياه إقبالاً
فلينظرنَّ إلى مَنْ فوقَهُ أَدَبا
ولينظرنَّ إلى مَنْ دُونَهُ مَالا[٣]

قال **داود الطائي**: اجعل الدنيا كيوم صمته ثم أفطرت على الموت[٤].

وحين سأل رجلٌ الحسن بقوله: ياأبا سعيد، من الفقيه؟ قال: الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المجتهد في العبادة، هذا الفقيه.

الدنيا- أخي - بزينتها ومراكبها.. بقصورها ودورها.. إنما هي:

أحلامُ نَوْمٍ أو كظلٍّ زائلٍ
إنَّ اللبيبَ بمثْلِها لا يُخدَعُ[٥]

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٨٢).
(٢) السير: (٥/ ٢٣٦).
(٣) أدب الدنيا والدين: (٨١).
(٤) صفوة الصفوة: (٣/ ١٣٤).
(٥) الإحياء: (٣/ ٢٢٨).

ويا أخي الحبيب:

عجبًا لأمنِكَ والحياةُ قصيرةٌ
وبفقدِ إلْفٍ لا تزال تُروَّعُ[١]

حال من سبقنا بحالنا اليوم.. بونٌ شاسع.. وفرق واضح.

هذا **محمد بن الفضل** يقول: ما خطوت أربعين سنة خطوةً لغير الله - عزَّ وجلَّ - وما نظرت أربعين سنة في شيء أستحسنه حياءً من الله - عز وجل - وما أمليت على ملكي ثلاثين سنة شيئًا، ولو فعلت ذلك لاستحييت منهما[٢].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

ها هي الدنيا تساق بخطامها وزمامها.. بحملها وركابها ولكن ماذا فعلوا؟!

عن مالك الداري أن **عمر بن الخطاب** - رضي الله عنه - أخذ أربعمائة دينار فجعلها في صرة. فقال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح، ثم تَلَهَ ساعة في البيت حتى تنظر ما يصنع، فذهب الغلام، قال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. قال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفذها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل فقال: اذهب بها إلى معاذ بن جبل، وتَلَهَ في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع،

---

(١) التبصرة: (١/ ٥٢).
(٢) صفوة الصفوة: (٤/ ١٦٥).

فذهب بها إليه، قال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك، فقال: رحمه الله ووصله، تعالي يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، فاطلعت امرأته فقالت: ونحن والله مساكين، فأعطنا، ولم يبق في الخزنة إلا ديناران، فدحا «رمى» بهما إليها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره بذلك، فقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض.

ولو لم يأت من ترك الدنيا إلا الراحة عند الموت والاستعداد لما بعد الموت لكفى.. وقد قيل لبعض الزهاد: ألا توصي؟ قال: بماذا أوصي؟ والله ما لنا شيء، ولا لنا عند أحد شيء ولا لأحد عندنا شيء.

انظر إلى هذه الراحة، كيف تعجّلها؟! وإلى السلامة كيف صار إليها؟![1]

تَجَرَّدْ من الدنيا فإنك إنما
سَقَطتَ إلى الدنيا وأَنْتَ مُجَرَّدُ[2]

قال **محمد بن سوقة**: أمران لو لم نعذب إلا بهما لكنا مستحقين بهما لعذاب الله. فرح أحدنا يزاد الشيء من الدنيا، فيفرح فرحًا، ما علم الله أنه فرح بشيء زاد قط في دينه، وينقص الشيء من الدنيا، فيحزن عليه حزنًا، ما علم أنه حزن على شيء نقص قط في دينه.

وأوصى **عبد الله بن خبيق** بقوله: لا تغتم إلا من شيء يضرك غدًا، ولا تفرح بشيء لا يسرك غدًا، وأنفع الخوف ما حجزك عن المعاصي، وأطال منك الحزن على ما فاتك، وألزمك الفكرة بقية عمرك.

---

(١) أدب الدنيا والدين: (١٢٠).
(٢) مكاشفة القلوب: (٣٢٨).

أخي المسلم:

الدخول في خوض غمار الدنيا، والسير في وهادها ميسر؛ ولكن الخروج منها شديد.. سكرات الموت مقبلةٌ تقتل كل فرحة في الدنيا.. وما بعد الموت يهون عنده الموت.

إن الليـــــالي والأيـــــامَ حـــــاملـــــةٌ
وليـــــس يعلـــــمُ غير الله مـــــا تَلِـــــدُ[1]

قال: **الحسن**: - رضي الله عنه -: إن الله - تعالى - أمر بالطاعة، وأعان عليها، ونهى عن المعصية، وأغنى عنها، فاعمل بقدرك على النار ولا تجعل في ركوبها حجة[2].

وقال **التميمي** ـ رحمه الله ـ: شيئان قطعا عني لذاذة الدنيا: ذكر الموت، وذكر الوقوف بين يدي الله[3].

ومـــا شـــاب رأسٌ مِـــنْ سنينَ تَتَـــابعـــتْ
عليَّ ولكـــنْ شيَّبَتْنـــي الـــوقَـــائِـــعُ

كان **سفيان الثوري** يقول: أشد الناس حسرة يوم القيامة ثلاثة: رجل كان له عبد فجاء يوم القيامة أفضل عملاً منه، ورجل له مال فلم يتصدق به فمات، فورثه غيره فتصدق منه، ورجل عالم لم ينتفع بعلمه فعلَّم غيره فانتفع به.

أخي المسلم:

وهذه الدنيا تُلْقِي سهامها علينا.. ونحن في ضعف وتقصير.. نفرح

---

(١) صيد الخاطر: (٨٧).
(٢) الزهر الفائح: (٩٥).
(٣) العاقبة: (٣٩).

برحمة أرحم الراحمين.. ربٌ رحيم،.. غفور كريم.

قيل إن **الشبلي** رُؤيَ في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: حاسبني وناقشني حتى يئست، فلما رآني يئست، تغمدني برحمته[١].

وقال **يحيىٰ بن معاذ**: إن غفرت فخير راحم، وإن عذبت فغير ظالم[٢].

أخي الحبيب:

جعل الله طريقنا في هذه الدنيا نهايته في جنات عدن، وجعلنا ممن تزود في هذه الدار الفانية لدار فيها النعيم المقيم والظل الظليل.

جمعني الله وإياك وآباءنا وأمهاتنا وأقاربنا في مستقر رحمته وجعلنا من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *

(١) الزهر الفائح: (٤١).

(٢) صفة الصفوة: (٤/ ٩٦).

خاتمة:

قال - تعالى -: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥].

* * *

المصادر

١ - إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.

١ - أدب الدنيا والدين، للماوردي، دار الكتب العلمية.

٣ - إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد، عبدالعزيز السلمان، ط١/ ١٤٠٦هـ.

٤ - البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.

٥- البركة في فضل السعي والحركة لأبي عبدالله محمد الجيش، دار المعرفة، ١٤٠٦هـ.

٦ -بستان الواعظين للإمام النووي.

٧ -تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية.

٨ - تاريخ الخلفاء للحافظ جلال الدين السيوطي، مكتبة الرياض الحديثة.

٩ - تاريخ عمر لابن الجوزي، تحقيق أحمد حوشان، مكتبة المؤيد.

١٠ -التبصرة لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.

١١ -تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث.

١٢ - التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للإمام القرطبي، دار الرياض، ط٢/ ١٤٠٧هـ.

١٣ - تزكية النفوس وتربيتها كما يقرره علماء السلف، ماجد بن أبي الليل وآخر، دار القلم.

١٤ - تسلية أهل المصائب، الإمام أبي عبدالله محمد بن محمد البنجي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.

١٥ - تنبيه الغافلين، الفقيه نصر السمرقندي، تحقيق عبدالعزيز الوكيل، دار الشروق، ١٤١٠هـ.
١٦ - جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط٥/ ١٤٠٠هـ.
١٧ - جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، لأبي يحيى محمد عاصم الغرناطي، تحقيق د. صلاح جرار، دار البشير، ١٤١٠هـ.
١٨ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.
١٩ - ديوان الإمام علي، جمعه وشرحه نعيم زرزور، دارالكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.
٢٠ - ديوان الشافعي، جمع وتعليق محمد عفيف الزعبي، دار الجيل، بيروت ط٢/ ١٣٩٢هـ.
٢١ - الزهد لابن المبارك.
٢٢ - كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل، دراسة وتحقيق محمد السعيد بسيوني، دارالكتاب العربي ط١/ ١٤٠٦هـ.
٢٣ - كتاب الزهد الكبير للإمام أحمد بن حسين البيهقي، تحقيق د. تقي الدين الندوي، دار القلم ط٢/ ١٤٠٣هـ.
٢٤ - الزهد للحسن البصري، تحقيق د. محمد عبد الرحيم محمد، دار الحديث.
٢٥ - الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح، محمد بن محمد يوسف الجزري، تحقيق محمد بسيوني، دار الكتاب العربي، ط١/ ١٤٠٦هـ.
٢٦ - سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ.
٢٧ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

٢٨ - شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور للحافظ جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية ط١/ ١٤٠٤هـ.

٢٩ - كتاب الشكر لابن أبي الدنيا، ط٣/ ١٤٠٥هـ.

٣٠ - صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمود فاحوزي ومحمد رواس، دار المعرفة، ١٤٠٥هـ.

٣١ - كتاب الصمت وآداب اللسان للإمام الحافظ ابن أبي الدنيا، تصنيف أبي إسحاق الحويني دار الكتاب العربي، ١٤١٠هـ.

٣٢ - صيد الخاطر لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط٢/ ١٤٠٧هـ.

٣٣ - طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية ودار المعرفة بيروت.

٣٤ - طبقات الشافعية للسبكي، تحقيق محمد الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، دار إيحاء الكتب العربية.

٣٥ - العاقبة في ذكر الموت والآخرة للإمام أبي محمد عبد الحق الأشبيلي. تحقيق خضر محمد خضر مكتبة دار الأقصى ط١/ ١٤٠٦هـ.

٣٦ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم الجوزية، ط٢/ ١٤٠٦هـ، دار الكتاب العربي.

٣٧ - عقود الؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان، إبراهيم ابن عبيد.

٣٨ - الفوائد لابن قيم الجوزية. دار النفائس.

٣٩ - المجموع المنتخب من المواعظ والأدب، زامل الزامل.

٤٠ - مختصر منهاج القاصدين للإمام أحمد بن محمد المقدسي، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٧/ ١٤٠٦هـ.

٤١ - مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ط٢/ ١٤٠٨هـ.

٤٢ - مكاشفة القلوب لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط١/ ١٤٠٣هـ.
٤٣ - مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي، مكتبة الخاني، ١٣٩٩هـ.
٤٤ - موارد الظمآن لدروس الزمان، عبد العزيز السلمان، ط١٣/ ١٤٠٣هـ.
٤٥ - وفيات الأعيان وأنباء الزمان لابن خلكان، دار صادر بيروت ١٣٩٧هـ.

* * *

الفجر الصادق

مدخل

قال أحمد بن عاصم: هذه غنيمة باردة، أصلح ما بقي من عمرك، يُغفر لك ما مضى.

المقدمة

الحمد لله غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين.

وبعد:

أقدم للإخوة القراء الجزء الثامن من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟!**» تحت عنوان «**الفجر الصادق**» وهو زمن مشرق ناصعٌ في حياة المسلم.

إنه فجرٌ صادق.. وهل هناك أصدق ممن صدَّق الله وصَدق في عودته؟

إذا سلك من مسالك الشيطان مدخلاً واجلب عليه بخيله ورجله، تذكر منتبهًا من الغفلة مستدركًا للتوبة.

إنها إشراقات تُبدد ظلام المعصية وتزيل غشاوة الذنب.

فجرٌ تبدأ معه رحلة العودة إلى الله بقلوب منكسرة، ودموع منسكبة وجباه خاضعة.. حتى تطأ الأقدام أولى عتبات الآخرة.. ورجاء الآية يخاطب شغاف القلوب ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩].

وحديث الرسول ﷺ ملء السمع والبصر: «**يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**».

جعلنا الله ممن إذا أذنب استغفر وإذا زل تاب وثاب ورزقنا الإخلاص في القول والعمل.

عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

خلق الله الإنسان للطاعة والعبادة، وفتح له باب التوبة والإنابة، يستدرك بها ذنوبه، ويمسح بها تقصيره، ويصلح بها زلاته.

فالتوبة واجبة على الدوام، لأن الإنسان لا يسلم من معصية، ولا يخلو من نقص.. إنما الخلق يختلفون في المقادير.. وقد أمر الله - عز وجل - بالتوبة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

وفي آياتٍ كثيرةٍ حثٌّ على التَّوبة والرُّجوع والأوبة قال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور: ٣١].

وهذا نبي الهدى والرحمة يقول في الحديث الشريف: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة**»(١).

وقال ﷺ: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»(٢).

وانظر إلى عظيم فضل الله - جل وعلا- على التائب العائد قال ﷺ: «**التائب من الذنب كما لا ذنب له**»(٣).

وأبواب السماء مشرعة للتائبين، مفتوحة للعائدين. فإن هناك من يعرض عن هذه الأبواب.. ويترك هذه الأسباب قال ﷺ: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**» قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: «**من**

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي، وابن ماجة، والحاكم، قال الشيخ الألباني إسناده حسن.

(٣) رواه ابن ماجه، والطبراني، وحسَّنه الحافظ ابن حجر لشواهده وكذا الشيخ الألباني.

أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»[١].

فهذا الحديث بشارة لجميع المسلمين بالجنة إلا صنفًا منهم لا يريد دخولها، لا زهدًا فيها؛ ولكن جهلاً بالطريق الموصلة إليها، وتراخيًا وتكاسلاً عن دخولها وتفضيلاً لهذه المتع الدنيوية الزائلة على تلك النعم الخالدة في الجنة[٢].

يا من يذنب ولا يتوب، كم قد كتبت عليك ذنوب؟ خل الأمل الكذوب، فرب شروق بلا غروب، وأسفى أين القلوب؟

تفرقت بالهوى في شعوب ندعوك إلى صلاحك ولا تؤوب واعجبا الناس ضروب، متى تنتبه لخلاصك أيها الناعس؟ متى تطلب الأخرى يا من على الدنيا تنافس؟ متى تذكر وحدتك إذا انفردت عن موآنس؟ يا من قلبه قد قسا وجفنه ناعس، يا من تحدثه الأماني.. دع هذه الوساوس.

وانظر إلى قول **الحسن** ولعل لنا نصيب منه: يا ابن آدم ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة[٣].

إني بُليت بأربع يرمينني
بالنبل قد نصبوا علي شراكا
إبليس والدنيا ونفسي والهوى
من أين أرجو بينهن فكاكا

---

(١) رواه البخاري.
(٢) واحات الإيمان: (١/ ١٢٥).
(٣) الزهد: للإمام أحمد ص (٢٤٢).

يـــا رب ســـاعـــدنـــي بعفـــو إننـــي
أصبحـــت لا أرجـــو لهـــن ســـواكـــا[١]

قال **حميد الطويل** لبعض إخوانه*[٢]: عظني، فقال: يا أخي، إذا عصيت وظننت أنه يراك فقد تجرأت على عظيم، ولكن بجهلك تظن أنه لا يراك.

وقال رجل لوهيب بن الورد: عظني؟ فقال: اتقي أن يكون الله أهون الناظرين إليك[٣].

أخي المسلم:

لو لحظك مسؤول أو رجل حسبه وأنت تهم بفعل زلةٍ لتوقفت تعد الخطى وتستثقل فعل المعصية، كيف والله - جل وعلا - يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، مطلعٌ على كل صغيرة وكبيرة. ولكنها قسوة القلوب وفساد النفوس..

وما ضرب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله، وما خُلقت النار إلا لإذابة القلوب القاسية، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي، فإذا قسا القلب قحطت العين.

أخي الحبيب:

قسوة القلب من أربعة أشياء: إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل، والنوم، والكلام، والمخالطة، كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام

---

(١) التذكرة ص (٤٧٥).
(٢) * مات وهو قائم يصلِّي - رحمه الله -.
(٣) جامع العلوم ص (١٩٥)، حلية الأولياء: (٨/ ١٤٢).

والشراب، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع*[١] فيه المواعظ.

ومن أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهوته، فالقلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها، القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها. شغلوا قلوبهم بالدنيا، ولو شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت في معاني كلامه وآياته المشهورة[٢].

وذاك الداء وهذا الدواء ولكن:

يا من تمتع بالدنيا وزينتها
ولا تنام عن اللذات عيناه
أفنيت عمرك فيما لست تدركه
تقول لله ماذا؟ حين تلقاه[٣]

كان **الحسن** كثيرًا ما يقول: يا معشر الشباب عليكم بالآخرة فاطلبوها، فكثيرًا رأينا من طلب الآخرة فأدركها مع الدنيا، وما رأينا أحدًا طلب الدنيا فأدرك الآخرة مع الدنيا[٤].

وليس للعبد- يا أخي - مستراح إلا تحت شجرة طوبى، ولا للمحب قرار إلا يوم المزيد، اشتغل به في الحياة يكفيك ما بعد الموت[٥].

تعصي الإله وأنت تظهر حبه
هذا لعمري في القياس بديع

---

(١) * لم تنجع: أي لم تؤثر.
(٢) الفوائد ص (١٢٨).
(٣) صفة الصفوة ص (٢/ ٥١٦).
(٤) الزهد للبيهقي ص (٩).
(٥) الفوائد ص (٩).

لـــو كـــان حبـــك صـــادقًـــا لأطعتـــه
إن المحـــب لمـــن يُحـــب مطيـــع[١]

أخي المسيلم:

القلب يمرض كما يمرض البدن. وشفاؤه في التوبة والحمية، ويصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤه بالذكر، ويعرى كما يعرى الجسم وزينته التقوى[٢].

فإياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلاً، ولأيامك وأنفاسك أمدًا، ومن كل ما سواه بُدٌّ، ولا بُد لك منه[٣].

سبحان الله رب العالمين: **لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي**، إلا إقامة المروءة وصون العرض وحفظ الجاه، وصيانة المال الذي جعله الله قوامًا لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخلق، وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقوة القلب، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفساق والفجار، وقلة الهم والغم والحزن، وعز النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب، أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدعاء له والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تُلقى له في قلوب الناس، انتصارهم وحميتهم له إذا أوذي

---

(١) الزهد للبيهقي ص (٣٢٩).
(٢) الفوائد ص (١٢٩).
(٣) المرجع السابق.

وظُلم، وذبهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقرب الملائكة منه، وبُعد شياطين الإنس والجن منه، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، بل يفرح به لقدومه على ربه، ولقائه له، ومصيره إليه، وصغر الدنيا في قلبه، وكبر الآخرة عنده، وحرصه على الملك الكبير، والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، ووجد حلاوة الإيمان، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتبين به ودعاؤهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه، وفرحه بتوبته، فهذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا.

أما في الآخرة.. فإنه إذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن، وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة، ينعم فيها إلى يوم القيامة.

فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحرِّ والعرق، وهو في ظل العرش، فإذا انصرفوا بين يدي الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين[1].

يـــا أيهـــا الغـــافـــل جـــد فـــي الـــرحيـــل
وأنـــــت فـــــي لهـــــوٍ وزادٍ قليـــــل
لـــو كنـــت تـــدري مـــا تـــلاقـــي غـــدًا
لـــذبـــت مـــن فيـــض البكـــاء والعـــويـــل

---

(١) الفوائد ص (١٩٨) باختصار.

فـــأخلـــص التـــوبـــة تحظـــى بهـــا
فمـــا بقـــي فـــي العمـــر إلا القليـــل
ولا تنـــــم إن كنـــــت ذا غبطـــــةٍ
فـــإن قـــدامـــك نـــوم طـــويـــل[١]

قالت **عائشة** - رضي الله عنها -: أقِلُّوا الذنوب، فإنكم لن تلقوا الله -عز وجل - بشيء أفضل من قلة الذنوب.

وقال **مورق العجلي**: ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا مثل رجل في البحر على خشبة فهو يدعو: يا رب، يا رب، لعل الله -عز وجل - أن ينجيه[٢].

ولهذا الأمر ومن شدة الخوف وطمعًا في ما عند الله.

كان رسول الله ﷺ سيد الكل، ثم إنَّه قام حتى ورمت قدماه..

وكان أبو بكر -رضي الله عنه - شجي النشيج*[٣].

وكان في خدي عمر -رضي الله عنه - خطان من آثار الدموع.

وكان عثمان -رضي الله عنه - يختم القرآن في ركعة.

وكان علي -رضي الله عنه - يبكي بالليل في محرابه حتى تخضلَّ لحيته بالدموع ويقول: يا دنيا غُرِّي غيري!.

وكان سعيد بن المسيب ملازمًا للمسجد فلم تفته صلاةٌ في جماعة أربعين سنة[٤]

---

(١) الزهر الفائح ص (١٩).
(٢) حلية الأولياء: (٢/ ٢٣٥)، صفة الصفوة: (٣/ ٢٥٠).
(٣) * يبكى بكاءً مؤثرًا تتقطع له النفس.
(٤) صيد الخاطر ص (١٠٦).

فيا أخي الكريم **اطلب قلبك** في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخلوة، فإن لم تجده في هذه المواطن فسل الله أن يَمنَ عليك بقلب، فإنه لا قلب لك[١].

فحيهلا إن كنت ذا همةٍ فقد
حدا بك حادي الشوق فاطو المراحلا

يا من عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة: قد رفع لك علم، **فشمر** إليه فقد أمكن التشمير واجعل سيرك بين مطالعة منته ومشاهدة عيب النفس والعمل والتقصير[٢]

اتخذ طاعة الإله سبيلا
تجد الفوز بالجنان وتنجو
واترك الإثم والفواحش طُرًّا
يؤتك الله ما تروم وترجو[٣]

قال **يحيى بن معاذ**: من أعظم الاغترار عندي.. التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله - تعالى - بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله - عز وجل - مع الإفراط.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
إن السفينة لا تجري على اليبس[٤]

---

(١) الفوائد ص (١٩٥).
(٢) عدة الصابرين ص (٣٣٨).
(٣) طبقات الحنابلة: (٤/ ١٧٧).
(٤) تزكية النفوس ص (١١٤).

قال **يحيى بن معاذ** -رضي الله عنه-: من أحب الجنة انقطع عن الشهوات، ومن خاف النار انصرف عن السيئات.

ونحن في غفلة.. ونجانب باب التوبة.. حالنا كما قال **الحسن** عندما سأله رجل: يا أبا سعيد: كيف أصبحت؟ قال: بخير، قال: كيف حالك؟ فتبسم الحسن وقال: تسألني عن حالي؟ ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر، فانكسرت سفينتهم، فتعلق كل إنسان منهم بخشبة؟ على أي حال يكون؟ قال الرجل: على حالٍ شديدة. قال الحسن: حالي أشد من حالتهم[١].

عيني هلا تبكيان على ذنبي
تناثر عمري من يدي ولا أدري
أنت في غفلة وقلبك ساهٍ
ذهب العمر والذنوب كما هي[٢]

أخي:

أجهل الجهال من آثر عاجلاً على آجلٍ، لا يأمن سوء مغبته. فكم قد سمعنا عن سلطان وأمير وصاحب مال أطلق نفسه في شهواتها، ولم ينظر في حلال وحرام، فنزل به من الندم وقت الموت أضعاف ما التذ. ولقي من مرير الحسرات ما لا يقاومه ولا ذرة من كل لذة، ولو كان هذا فحسب لكفى حزنًا، كيف والجزاء الدائم بين يديه.

فالدنيا محبوبة للطبع لا ريب في ذلك، ولا أنكر على طالبها ومؤثر

---

(١) الإحياء: (٤/ ١٩٧).
(٢) مكاشفة القلوب ص (٣٤).

شهواتها. ولكن ينبغي له أن ينظر في كسبها ويعلم وجه أخذها، لتسلم له عاقبة لذته، وإلا فلا خير في لذة من بعدها النار.

وهل عُدَّ في العقلاء قط من قيل له: اجلس في المملكة سنة ثم نقتلك؟ هيهات بل الأمر بالعكس، وهو أن العاقل من صابر مرارة الجهد سنة بل سنين ليستريح في عاقبته[١].

قال **الحسن**: والله ما صدَّق عبد بالنار إلا ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وإن المنافق لو كانت النار خلف هذا الحائط لم يُصدق بها حتى يتجهم عليها.

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي
درج الجنان لدىٰ النعيم الخالد
ولقد علمنا أخرج الأبوين من
ملكوتها الأعلى بذنب واحد[٢]

ونحن نسير في هذه الدنيا.. لا نرى لها نهايةً ولا للحياة توقف حتى يفجأنا أمر الله وقدره.. نؤخر التوبة.. ونؤجل العمل..

قال **الحسن البصري**: إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول أحدهم: إني أُحسن الظن بربي، وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل[٣].

---

(١) صيد الخاطر ص (٢٣٩).
(٢) الجواب الكافي ص (١٤٢).
(٣) الجواب الكافي ص (٣).

وقال **الربيع بن خثيم***[١] لأصحابه: تدرون ما الداء والدواء والشفاء؟ قالوا: لا، قال: الداء الذنوب، والدواء الاستغفار، والشفاء أن تتوب فلا تعود[٢].

وحال الكثير منا اليوم كما قال عنه **أحمد بن حرب**: إن أحدنا يؤثر الظل على الشمس، ثم لا يؤثر الجنة على النار[٣].

نعرف اليوم القائظ من المعتدل والبارد من الحار.. ونشكو إلى بعض من حر هذا اليوم وشدته.. رغم أننا تحت ظلال وارفة.. ومكيفات باردة.. ولا نفكر في نار حرها شديد وقعرها بعيد.. وها هو باب التوبة مشرع الأركان فأين نحن منه؟!

يقول **إبراهيم بن أدهم**: من أراد التوبة فليخرج من المظالم، وليدع مخالطة الناس؛ وإلا لم ينل ما يريد[٤].

وحذَّر **أبو الوفاء بن عقيل** بقوله: احذر ولا تغتر، فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت امرأة النار في هرة، واشتعلت الشملة نارًا على من غلها وقد قتل شهيدًا[٥].

فلنسابق أخي إلى التوبة والأوبة.. باب مفتوحٌ مُشرع لا يردنا حاجب ولا يُقصينا طالب.. بل يفرح الله بتوبة أحدنا.. ويتجاوز عن سيئاته..

---

(١) صفة الصفوة.

(٢) الإحياء ص (٤/ ٥٦٨).

(٣) * ثقة عابد قال له ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك».

(٤) السير: (٧/ ٣٨٩).

(٥) الجواب الكافي ص (٦٩).

قال **بكر بن عبد الله المزني**: من مثلك يا ابن آدم؟ خلي بينك وبين المحراب والماء، كلما شئت دخلت على الله - عز وجل - ليس بينك وبينه ترجمان[١].

أخي: اعلم أن الجزاء بالمرصاد إن كان حسنة أو كانت سيئة، ومن الاغترار أن يظن المذنب إذا لم ير عقوبة أنه قد سومح، وربما جاءت العقوبة بعد مدة[٢].

خلِّ الذنوب صغيرها
وكبيرها فهو التقى
واصنع كماشٍ فوق أرض
الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة
إن الجبال من الحصى[٣]

قال **أبو حازم بن دينار**: قاتل هواك أشد مما تقاتل عدوك[٤]

أخي الحبيب:

الشرك والكذب والرياء شجرة في القلب ثمرها في الدنيا: الخوف والهم والغم وضيق الصدر وظلمة القلب، وثمرها في الآخرة: الزقوم والعذاب المقيم[٥].

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٢٤٩).
(٢) صيد الخاطر ص (٥٩٣).
(٣) جامع العلوم والحكم ص (١٩٢).
(٤) حلية الأولياء: (٣/ ٢٣١).
(٥) الفوائد ص (٢١٥).

فسارع أخي بخطى العزيمة.. وارفع نفسك الكريمة فإنها نفسٌ كالطفل تُقبل وتدبر وتعصي وتُطيع.

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

إن ترك الشهوات لله.. وإن أنجى من عذاب الله وأوجب الفوز برحمته، فذخائر الله وكنوز البر ولذة الأنس والشوق إليه والفرح والابتهاج به، لا تحصل في قلب فيه غيره، وإن كان من أهل العبادة والزهد والعلم، فإن الله - سبحانه - أبى أن يجعل ذخائره في قلب فيه سواه، وهمته متعلقة بغيره، وإنما يودع ذخائره في قلب يرى الفقر غنى مع الله، والغنى فقرًا دون الله، والعز ذلا دونه، والذل عزًّا معه، والنعيم عذابًا دونه، والعذاب نعيمًا معه[١].

عن **طلق بن حبيب** قال: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد، وإن نعم الله أكثر من أن تحصى، ولكن أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين[٢].

وقال **بشر**: لو تفكر الناس في عظمة الله، ما عصوا الله - عزَّ وجلَّ -[٣].

فوا عجبًا كيف يُعصى الإله
أم كيف يجحده جاحدُ
ولله في كل تحريكة
وتسكينة أبدًا شاهدُ

---

(١) الفوائد ص (٢٥٢).
(٢) السير: (٤/ ٦٠٢).
(٣) الإحياء: (٤/ ٤٥١).

وفـــي كـــل شـــيء لـــه آيـــة
تـــدل علـــى أنـــه واحـــد[١]

كان **وهيب بن الورد** يقول: خف الله على قدر قدرته عليك، واستحي منه على قدر قربه منك.

أخي المذنب - وكلنا كذلك -.. قال **هلال بن سعد**: لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت[٢].

إنه الله الواحد الأحد مدبر الكون خالق كل شيء..

يـــا مـــن يـــرى مـــد البعـــوض جنـــاحهـــا
فـــي ظلمـــة الليـــل البهيـــم الأليـــل
ويـــرى منـــاط عـــروقهـــا فـــي نحـــرهـــا
والمـــخ فـــي تلـــك العظـــام النحـــل[٣]

سبحان الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا.. لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.. خلق كل شيء وأحصى كل شيء..

قال **مطرف**: من أحب أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده.

وكان **الحسن بن عبد العزيز** يقول: من لم يردعه القرآن والموت، فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع[٤].

وتأمل أخي الحبيب في قول **ابن عباس**: خوفك من الريح إذا حركت

---

(١) مفتاح دار السعادة: (١/ ٢٢٥).
(٢) الجواب الكافي ص (٩٥).
(٣) شذرات الذهب: (٤/ ١٢١).
(٤) طبقات الحنابلة: (١/ ١٣٥).

ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك، أعظم من الذنب إذا فعلته[١].

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل
خلوت ولكن قل عليَّ رقيبُ
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب
وأن غدًا للناظرين قريب[٢]

قال **الحسن**: إن المؤمن قوّام على نفسه يحاسب نفسه لله - عزَّ وجلَّ - وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن يَفجؤ الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات، هيهات، حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا مالي ولهذا؟ والله لا أعود لهذا أبدًا إن شاء الله، إن المؤمنين قومٌ أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله - عز وجل - يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه وجوارحه[٣].

---

(١) جامع العلوم والحكم ص (٤٣).
(٢) الإحياء (٤/ ٤٢٢).
(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٢٣٤).

ولو تفكرنا في ذلك وأنزلنا أنفسنا موقف الحساب لعملنا ولتبنا إلى الله - عز وجل - فنحن في زمن التوبة.. وفي طريق الأوبة.. في دار أفسح الله لنا فيها أفلا نعود من قريب!؟

قال **وهب بن منبه**: ما طالت فكرة امريء قط إلا علم، وما علم امرؤ قط.. إلا عمل[١].

فلتكن أخي! من أهل العمل، ولا تكن من أهل الأمل.. فإن أعجب العجائب سرورك بغرورك، وسهوك في لهوك عما قد خبيء لك، تغتر بصحتك، وتنسى دنو السقم. وتفرح بعافيتك غافلاً عن قرب الألم، لقد أراك مصرع غيرك، وأبدى مضجع سواك قبل الممات مضجعك[٢].

هذا **شميط بن عجلان**: في نداءات خالصة ينادي.. أيها المغتر بطول صحتك! أما رأيت ميتًا قط من غير سقم؟ أيها المغتر بطول المهلة! أما رأيت مأخوذًا قط من غير عدة؟ أبالصحة تغترون؟! أم بطول العافية تمرحون؟! أم بالموت تمنئون؟ أم على ملك تجرئون؟

إن الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروة مالك، ولا كثرة احتشادك.. أما علمت أن ساعة الموت: ذات كرب شديد، وندامة على التفريط؟ رحم الله عبدًا عمل لساعة الموت، رحم الله عبدًا عمل لما بعد الموت.. رحم الله عبدًا نظر لنفسه قبل نزول الموت[٣].

أخي:

إن من علامات السعادة والفلاح: أن العبد كلما زيد في علمه، زيد في

---

(١) الإحياء: (٤/ ٤٥١).
(٢) صيد الخاطر ص (٢٦).
(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٣٤٧).

تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله، زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد في عمره، نقص من حرصه، وكلما زيد في ماله، زيد في سخائه وبذله، وكلما زيد في قدره وجاهه، زيد في قربه من الناس، وقضاء حوائجهم، والتواضع لهم.

وعلامات الشقاوة: أنه كلما زيد في عمله، زيد في كبره وتيهه. وكلما زيد في عمله، زيد في فخره، واحتقاره للناس، وحسن ظنه بنفسه، وكلما زيد في عمره، زيد في حرصه، وكلما زيد في ماله، زيد في بخله وحرصه، وكلما زيد في قدره وجاهه، زيد في كبره وتيهه.

وهذه الأمور: ابتلاء من الله، وامتحان يبتلي بها عباده، فيسعد بها أقوام، ويشقى بها أقوام[١].

فانظر أين أنت؟ وأين موضع قدمك؟.. واسمع وصية الإمام مالك وهو يوصي رجلاً.. قال: إذا هممت بأمر في طاعة الله، فلا تحبسه إن استطعت فواقًا*[٢] حتى تمضيه، فإنك لا تأمن الأحداث، فإذا هممت بغير ذلك، فإن استطعت أن لا تمضه فافعل، لعل الله يحدث لك تركه، ولا تستحي إذا دعيت لأمر ليس بحق؛ أن تقول: قال الله - تعالى - في كتابه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. وطهر ثيابك، وأنقها عن معاصي الله؛ وعليك بمعالي الأمور وكرائمها، واتق رذائلها وما سفسف منها، فإن الله يحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها، وأكثر تلاوة القرآن، واجتهد أن تأتي عليك ساعة من ليل أو نهار، إلا ولسانك رطبًا

---

(١) الفوائد ص (٢٠١).

(٢) * الفواق: ما بين الْحَلْبَتَيْنِ من الوقت: أي الوقت اليسير جدًّا.

من ذكر الله، ولا تمكن الناس من نفسك، واذهب حيث شئت[١].

وقد قال **عمر بن عبد العزيز** في خطبته: إن لكل سفر زادًا لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه، ترغبوا وترهبوا، ولا يطولن عليكم الأمد، فتقسو قلوبكم، وتنقادوا لعدوكم، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري، لعله لا يُصبح بعد مسائه، ولا يُمسي بعد صباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا، وكم رأيت.. ورأيتم من كان بالدنيا مغترًا، وإنما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله - تعالى -، وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة، فأما من لا يداوي كلمًا إلا أصابه جرح من ناحية أخرى.. فيكف يفرح[٢].

نمـــوت ونبلـــى غيـــر أن ذنـــوبنـــا
إذا نحـــن متنـــا لا تمـــوت ولا تبلـــى
ألا ربَّ عينيـــــن لا تنفعـــــانـــــه
ومـــا تنفـــع العينـــان مـــن قلبـــه أعمـــى

أخي التائب:

احذر نفسك، فما أصابك بلاءٌ قط إلا منها، ولا تهادنها، فوالله، ما أكرمها من لم يُهنها، ولا أعزها من لم يُذلها، ولا جبرها من لم يكسرها، ولا أراحها من لم يتعبها، ولا أمَّنَها من لم يُخَوِّفُها، ولا فَرَّحَها من لم يُحْزِنُها[٣].

---

(١) ترتيب المدارك: (١/ ١٨٧).
(٢) الإحياء: (٤/ ٤٨٣).
(٣) الفوائد ص (٩٠).

قال **أبو بكر بن عياش**: قال لي رجلٌ مرة، وأنا شاب: خلص رقبتك ما استطعت في الدنيا من رقّ الآخرة، فإن أسير الآخرة غير مفكوكٍ أبدًا[١].

أخي التائب:

وأنت تسير في ركاب التائبين.. تحط رحالك - إن شاء الله - في جنات عدن.. لا تلتفت إلى نزعات الهوى، ولا تترد مع وساوس الشيطان، وعليك بلزوم الجادة، تنجو وتسلم.

قال **الحسن**: ابن آدم! إنك ناظر غدًا إلى عملك، يوزن خيره وشره، فلا تحقرن شيئًا من الشر أن تتقيه، فإنك إذا رأيته غدًا في ميزانك ما سرك مكانه[٢].

وجهاد النفس - يا أخي - جهادٌ طويل.. وطريق محفوف بالمكاره.. مذاقه مرٌّ وملمسه خشنٌ.. ولكن لا تكن من الذين وصفهم **يحيى بن معاذ** بقوله: مسكين ابن آدم، قلع الأحجار أهون عليه من ترك الأوزار[٣].

يا مدمن الذنب أما تستحي
والله في الخلوة ثانيكا
غرَّك من ربك إمهاله
وستره طول مساويكا[٤]

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ١٦٤).
(٢) البداية والنهاية: (٩/ ٣٠٧).
(٣) السير: (١٣/ ١٥).
(٤) جامع العلوم والحكم ص (١٩٦).

قال **حاتم الأصم**: من خلا قلبه من ذكر **أربعة أخطار** فهو مغتر لا يأمن الشقاء:

الأول: خطر يوم الميثاق حين قال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي، فلا يعلم في أي الفريقين كان؟!

الثاني: حين خُلق في ظلمات ثلاث، فنادى الملك: بالشقاوة والسعادة، ولا يدري أمن الأشقياء هو أم من السعداء؟!.

الثالث: ذكر هول المطلع، فلا يدري أيبشر برضا الله أم بسخطه؟!.

الرابع: يوم يصدر الناس أشتاتًا، فلا يدري أي الطريقين يُسلك به[1]؟.

أخي الحبيب:

لا تحسبن سرورًا دائمًا أبدًا
من سره زمنٌ ساءته أزمانُ
لا تغتبر بشباب آنفٍ خضلٍ
فكم تقدم قبل الشيب شبانُ
ويا أخا الشيب لو ناصحت نفسك
لم يكن لمثلك في اللذات إمعانُ

كان **الحسن بن يسار** كثيرًا ما يقول: يا ابن آدم! نطفة بالأمس وجيفةٌ غدًا، والبلى فيما بين ذلك، يمسح جبينك كأن الأمر يعني به غيرك، إن الصحيح من لم تمرضه الذنوب، وإن الطاهر من لم تنجسه الخطايا، وإن أكثركم ذكرًا للدنيا. وأن أهل العبادة من أمسك نفسه عن الشر، وأن

---

(١) جامع العلوم والحكم ص (٧١).

البصير من أبصر الحرام، فلم يقربه، وأن العاقل من يذكر يوم القيامة ولم ينس الحساب[١].

أخي:

علم أرباب القلوب: أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار، ومساقي الماء إليها، وأن القلب المستغرق بالدنيا: كالأرض السبخة، التي لا ينمو فيها البذر، ويوم القيامة هو يوم الحصاد، ولا يحصد أحدٌ إلا ما زرع، ولا ينمو زرعٌ إلا من بذر الإيمان[٢].

وانظر إلى: تقسيم الهمم، ومقدار العزائم.. قال **محمد بن السماك**: همة العاقل: في النجاة، والهرب. وهمة الأحمق: في اللهو، والطرب[٣].

وأعجب الأشياء اغترار الإنسان بالسلامة، وتأميله الإصلاح فيما بعد، وليس لهذا الأمل منتهى، ولا للاغترار حد.

فكلما أصبح وأمسى معافى.. زاد الاغترار، وطال الأمل.

وأي موعظة أبلغ من أن ترى: ديار الأقران، وأحوال الإخوان، وقبور المحبوبين، فتعلم أنك بعد أيام مثلهم، ثم لا يقع انتباه حتى ينتبه الغير بك، هذا والله شأن الحمقى..

حاشا من له عقل أن يسلك هذا المسلك.

---

(١) الزهد للبيهقي ص (٩٤).
(٢) منهاج القاصدين ص (٢).
(٣) حلية الأولياء: (٨/ ٢٠٤).

بلى والله إن العاقل ليبادر السلامة، فيدخر من زمنها للزمن، ويتزود عند القدرة على الزاد لوقت العسرة.

خصوصًا لمن قد علم أن مراتب الآخرة إنما تعلو بمقدار علو العمل لها، وأن التدارك بعد الفوت لا يمكن.

وقدِّر أن العاصي عُفي عنه، أينال مراتب العمال؟

ومن أجال على خاطره ذكر الجنة، التي لا موت فيها، ولا مرض، ولا نوم، ولا غم، بل لذَّاتها متصلة من غير انقطاع، وزيادتها على قدر زيادة الجد ههنا انتهب هذا الزمان، فلم ينم إلا ضرورة، ولم يغفل عن عمارة لحظة.

ومن رأى أن ذنبًا قد مضت لذته، وبقيت آفاته دائمة؛ كفاه ذلك زاجرًا عن مثله[١].

ملاك الأمر تقوى الله فاجعل
تقاه عدة لصلاح أمرك
وبادر نحو طاعته بعزم
فما تدري متى يُمضي بِعُمرك[٢]

عن الحسن قال: يا ابن آدم! إذا رأيت الناس في خير فنافسهم فيه، وإذا رأيتهم في هلكة فذرهم وما اختاروا لأنفسهم، قد رأينا أقوامًا آثروا عاجلتهم على عاقبتهم، فذلوا وهلكوا[٣].

---

(١) صيد الخاطر ص (٤٢٧).
(٢) جنة الرضا: (١/ ١٤١).
(٣) حلية الأولياء: (٢/ ١٥٧).

أخي التائب:

نادى منادي الإيمان: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٣١].

أَسْمَعَ والله لو صادف آذاناً واعية، وتبصر لو صادف قلوبًا من الفساد خالية، لكن عصفت على القلوب هذه الأهواء؛ فأطفأت مصابيحها، وتمكنت في آراء الرجال، فأغلقت وأضاعت مفاتيحها، ران عليها كسبها، فلم تجد حقائق القرآن إليها منفذًا، وتحكمت فيها أسقام الجهل، فلم تنتفع معها بصالح العمل[(١)].

كتب الحسن إلى فرقد:

أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله، والعمل بما علمك الله، والاستعداد لما وعد الله، مما لا حيلة لأحد في دفعه، ولا ينفع الندم عند نزوله، فأحسر عن رأسك قناع الغافلين، وانتبه من رقدة الجاهلين، وشمر الساق، فإن الدنيا ميدان مسابقة، الغاية: الجنة أو النار، فإن لي ولك من الله مقامًا، يسألني وإياك عنه: وساوس الصدر، ولحظ العيون، وإصغاء الأسماع، وما أعجز عنه[(٢)].

اليـــوم تفعـــل مـــا تشـــاء وتشتهـــي
وغـــدًا تمـــوت وتـــرفـــع الأقـــلام

أخي التائب:

إن أصول المعاصي كلها، كبارها وصغارها، ثلاثة:

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٧).
(٢) البداية والنهاية: (٩/ ٣٠٢).

١ ـ تعلق القلب بغير الله.

٢ ـ وطاعة القوة الغضبية.

٣ ـ والقوة الشهوانية.

وهي: الشرك، والظلم، والفواحش.

فغاية التعلق بغير الله: شرك، وأن يُدعى معه إله آخر.

وغاية طاعة القوة الغضبية: القتل.

وغاية طاعة القوة الشهوانية: الزنا.

ولهذا جمع الله - سبحانه - بين الثلاثة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾[1] [الفرقان: ٦٨].

قال **ابن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ: يا صاحب الذنب! لا تأمن فتنة الذنب، وسوء عاقبة الذنب، ولتتبعك الذنب أعظم من الذنب إذا عملته.

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء..؟!

قال بندار يتحدث عن **يحيى القطان**: اختلفت إليه عشرين سنة، فما أظن أنه عصى الله قط[2].

وقال **عون بن عبد الله** ـ يحذرنا من طول الأمل ـ: ما أحد ينزل الموت حق منزلته، إلا عد غدًا ليس من أجله، كم من مستقبل يومًا لا يستكمله، وراج غدًا لا يبلغه، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمل وغروره[3].

---

(١) الفوائد ص (١٠٦).

(٢) تذكرة الحفاظ: (١/ ٢٩٩).

(٣) حلية الأولياء: (١/ ٢٤٣).

أخي المذنب ـ وكلنا كذلك ـ . . هيا نسارع إلى جنة عرضها السموات والأرض، فيها: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. . ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: ١٠].

هَبـكَ عُمِّـرت مثـل مـا عـاش نـوح
ثـم لاقيـت كـل ذاك يسـارا
هـل مـن المـوت لا أبـالـك بـدّ
أيَّ حـي إلـى سـوى المـوت صـارا[١]

إن الحزن على الدنيا طويل، والموت في الإنسان قريب، وللنقص في كل يوم منه نصيب، وللبلاء في الجسم دبيب، فبادر قبل أن تُنادى بالرحيل[٢].

قال العلماء: تذكر الموت يردع عن المعاصي، ويلين القلب القاسي، ويذهب الفرح بالدنيا، ويهون المصائب فيها[٣].

قُـلْ للمفـرط يستعـد
مـا مـن ورود المـوت بُـدُّ[٤]

قال **ابن الجوزي**: تأملت وقوع المعاصي من العصاة، فوجدتهم لا يقصدون العصيان، وإنما يقصدون موافقة هواهم، فوقع العصيان تبعًا.

فنظرت في سبب ذلك الإقدام مع العلم بوقوع المخالفة؛ فإذا به

---

(١) السير: (١٠/ ٢٣٣).
(٢) الإحياء: (٤/ ٤٨٣).
(٣) التذكرة ص (١٣).
(٤) التبصرة ص (١/ ٧٠).

ملاحظتهم لكرم الخالق، وفضله الزاخر. ولو أنهم تأملوا عظمته وهيبته، انبسطت كف بمخالفته[١].

يـا أيهـا المـذنـب المحصـي جـرائمـه
لا تنـس ذنبـك واذكـر منـه مـا سلفـا
وتـب إلـى الله قبـل المـوت وانـزجـر عنـه
يـا عـاصيًـا واعتـرف إن كنـت معتـرفـا[٢]

قال رجل **لداود الطائي**: : أوصني، قال: اتق الله، وبر والديك: ويحك.. صم الدنيا، واجعل فطرك الموت، واجتنب الناس[٣].

وكان **زياد بن جرير** يقول: تجهزتهم؟ فسمعه رجل يقول: ما يعني له بقوله تجهزتم؟ فيقول: تجهزتم للقاء الله ـ تعالى ـ[٤].

ألا أيهـا المغـرور مـالـك تلعـب
تـؤمـل آمـالاً ومـوتـك أقـربّ

قال **أويس القرني** ـ رضي الله عنه ـ لبعض إخوانه: يا أخي، إذا نمت، فأذكر الموت، واجعله أمامك. وإذا قمت، فلا تنظر لصغر ذنبك، ولكن انظر إلى من عصيت.

أخي الحبيب:

الهمة العالية: من استعد صاحبها للقاء الرب ـ جل وعلا ـ..

سلك الطريق وأظمأ الهواجر.. وقام من الليل.. فإنها لحظات قادمة

---

(١) صيد الخاطر ص (٢٨٥).
(٢) مكاشفة القلوب ص (٩١).
(٣) السير: (٧/ ٤٢٤).
(٤) حلية الأولياء: (٤/ ١٩٧).

وآجال محدودة. . وانظر يمنةً ويسرةً، لترى أين ذهب ذلك الفتى؟ وماذا أصابه؟ . . ومن فاجأه!.

بينما الفتى مرح الخطا فرح بما
يسعى له إذ قيل: قد مرض الفتى
إذ قيل: بات ليلة ما نامها
إذ قيل: أصبح مثخنًا ما يُرتجى
إذ قيل: أصبح شاخصًا وموجهًا
ومعللاً إذ قيل: أصبح قد قضى[١]

عن **الحسن** قال: ابن آدم. . السكين تُحد، والكبش يُعلف. . والتنور يُسَجر[٢].

فينبغي لكل ذي لب وفطنة أن يحذر عواقب المعاصي، فإنه ليس بين الآدمي وبين الله ـ تعالى ـ قرابة ولا رحم، وإنما هو قائم بالقسط، حاكم بالعدل. وإن كان حلمه يسع الذنوب، إلا أنه إذا شاء عفا، فعفا كل كثيف من الذنوب، وإذا شاء أخذ وأخذ باليسير. . فالحذر الحذر[٣].

وكان **الحسن يقول**: رحم الله رجلاً لم يغره كثرة ما يرى من كثرة الناس. .

ابن آدم! إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك[٤].

وقال **عبد الله بن سميط**: سمعت أبي يقول: أيها المغتر بطول

---

(١) التذكرة ص (٢٢).
(٢) السير: (٤/ ٥٨٦).
(٣) صيد الخاطر ص (١٨٥).
(٤) حلية الأولياء: (٢/ ١٥٥).

صحته! . أما رأيت ميتًا قط من غير سقم؟ أيها المغتر بطول المهلة! أما رأيت مأخوذًا قط من غير عدة[١]؟

وما هي إلا ليلة بعد ليلةٍ
ويوم إلى يوم وشهرٌ إلى شهر
مطايا يقرِّبن الجديد إلى البلى
ويُدنين أشلاء الصحيح إلى القبر[٢]

وحين سأل رجل عبد العزيز بن أبي رواد: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت والله في غفلة عظيمة عن الموت، مع ذنوب كثيرة قد أحاطت بي.. راحل يسرع كل يوم في عمري.. ومؤمل لست أدري على ما أهجم.. ثم بكى[٣].

أخي الحبيب:

ترجو البقاء بدارٍ لا ثبات لها
فهل سمعت بظلٍ غير منتقل[٤]

فالواجب على العاقل أن يحذر مغبة المعاصي، فإن نارها تحت الرماد، وربما تأخرت العقوبة ثم فجأت، وربما جاءت مستعجلة، فليبادر بإطفاء ما أوقد من نيران الذنوب، ولا ماء يطفيء تلك النار إلا ما كان من عين العين[٥].

---

(١) الإحياء: (٤/ ٤٨٣).
(٢) عقود الؤلؤ والمرجان: (٢١٦).
(٣) حلية الأولياء: (٨/ ١٩٤).
(٤) طبقات الشافعية: (٢/ ٢٣٩).
(٥) صيد الخاطر: (٢٦٧).

قال **إبراهيم التيمي**: مثلت نفسي في النار: أعالج أغلالها وسعيرها، وآكل من زقومها وأشرب من زمهريرها، فقلت: يا نفس! أي شيء تشتهين؟! قالت: أرجع إلى الدنيا، أعمل صالحًا، عملاً أنجو به من النار.. من هذا العذاب.

ومثلت نفسي في الجنة: مع حورها، وألبس من سندسها وإستبرقها وحريرها، فقلت: يا نفس! أي شيء تشتهين؟ قالت: أرجع إلى الدنيا، فأعمل عملاً أزداد من الثواب؟ فقلت: أنت في الدنيا وفي الأمنية[1].

مثل لنفسك أيها المغرور
يوم القيامة والسماء تمور
إذا كورت شمس النهار وأدنيت
حتى على رأس العباد تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت
وتبدلت بعد الضياء كدور
وإذا البحار تفجرت من خوفها
ورأيتها مثل الجحيم تفور
وإذا الجبال تقلعت بأصولها
فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا الوحوش لدى القيامة أحشرت
وتقول للأملاك أين نسير[2]

---

(١) حلية الأولياء: (٤/ ٢١١).
(٢) التذكرة ص (٢٤٤).

ونحن في غفلةٍ . . تعجب منها **مالك بن دينار** بقوله: عجبًا لمن يعلم: أن الموت مصيره، والقبر مورده . . كيف تقر بالدنيا عينه؟ وكيف يطيب فيها عيشه[١]؟ .

ولما حضر الموت **الحسن**، دخل عليهِ رجال من أصحابه، فقالوا له: يا أبا سعيد! زودنا منك كلمات تنفعنا؟ قال: إني مزودكم: ثلاث كلمات، ثم قوموا عني، ودعوني لما توجهت له، ما نُهيتم من أمر فكونوا من أترك الناس له. وما أمرتم به من معروف فكونوا من أعمل الناس به، واعلموا أن خطاكم: خطوتان: خطوة لكم، وخطوة عليكم، فانظروا، أين تغدون؟ وأين تروحون[٢]؟ .

*خطب **عمر بن عبد العزيز** فقال:

أما بعد: فإن كنتم مؤمنين بالآخرة، فأنتم حمقى. وإن كنتم مكذبين بها، فأنتم هلكى[٣] .

إن من نازعته نفسه إلى لذة محرمة، فشغله نظره إليها عن تأمل عواقبها وعقابها، وسمع نداء العقل يناديه: ويحك لا تفعل . . فإنك تقف عن الصعود، وتأخذ في الهبوط، ويقال لك: أبعد بما اخترت، فإن شغله هواه فلم يلتفت إلى ما قيل له، لم يزل في نزول[٤] .

قيل **للشافعي** ـ رحمه الله ـ مالك تكثر من إمساك العصا، ولست

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٢٧٧).
(٢) حلية الأولياء: (٢/ ١٥٤).
(٣) حلية الأولياء: (٥/ ٢٩٠).
(٤) صيد الخاطر ص (٢٥٦).

بضعيف؟ قال: لأذكر أني مسافر[١].

وكان **عطاء السلمي** يقول: رب ارحم في الدنيا غربتي، وفي القبر وحدتي، وطول مقامي غدًا بين يديك[٢].

أخي التائب:

إذا كثـــرت منـــك الـــذنـــوب فـــداوهـــا
بـــرفـــع يـــدٍ فـــي الليـــل والليـــل مُظلـــم
ولا تقنطـــــن مـــــن رحمـــــة الله إنمـــــا
قُنـــوطـــك منهـــا فـــي خطـــايـــاك أعظـــم
فـــــرحمتـــــه للمحسنيـــــن كـــــرامـــــة
ورحمتـــــه للمســـــرفيـــــن تكـــــرم[٣]

---

(١) السير: (١٠/ ٩٧).
(٢) حلية الأولياء: (٦/ ٢٢٤).
(٣) التبصرة: (١/ ٢٠٠).

أضرار الذنوب

اللذة المحرمة ممزوجة بالقبح حال تناولها، مثمرة للألم بعد انقضائها، فإذا اشتدت الداعية منك إليها، ففكر في انقطاعها، وبقاء قُبحها وألمها، ثم وازن بين الأمرين، وانظر ما بينهما من التفاوت[١].

قال **عبد الله بن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ: إن للحسنة: ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة: سوادًا في الوجه، وظلمة في القبر، ووهنًا في البدن ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق[٢].

ومن آثار الذنوب والمعاصي ما قاله **أبو الدرداء**: ليحذر امرؤ أن تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر، ثم قال: تدرون مم هذا؟ إن العبد يخلو بمعاصي الله، فيلقي الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر[٣].

والتعب ـ أخي الحبيب ـ بالطاعة ممزوج بالحسن، مثمر للذة والراحة، فإذا ثقلت على النفس، ففكر في انقطاع تعبها، وبقاء حسنها ولذتها وسرورها، ووازن بين الأمرين، وآثر الراجح على المرجوح، فإن تألمت بالسبب، فانظر إلى ما في المسبّب من الفرحة والسرور واللذة يَهُن عليك مقاساته، وإن تألمت بترك اللذة المحرمة؛ فأنظر إلى الألم الذي يعقبه، ووازن بين الألمين[٤].

---

(١) الفوائد ص (٢٤٨).
(٢) الجواب الكافي ص (٩٩).
(٣) الجواب الكافي ص (٩٦).
(٤) الفوائد ص (٢٤٨).

وتفكر أخي الكريم في نتائج الذنب.. وما يسببه في قلبك وانظر إلى نور الحسنة، واتبعها أختها.

قال **أبو الحسن المزين**: الذنب عقوبة الذنب، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة[١].

فإن الذنوب والمعاصي تضر ولا شك وضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شرور إلا سببه الذنوب والمعاصي.

هذا **ابن عباس** يحذرنا من الذنوب والمعاصي، فيقول: لا تأمنن من سوء عاقبته، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته[٢].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال **هشام بن حسان**: كنت أمشي خلف العلاء بن زياد، فكنت أتوقى الطين، قال فدفعه إنسان فوقعت رجله في الطين فخاضه، فلما وصل إلى الباب وقف فقال: رأيت يا هشام؟ قلت: نعم، قال: كذلك المرء المسلم يتوقى الذنوب، فإذا وقع فيها خاضها[٣].

العبد لا يريد **بمعصيته مخالفة سيده**، ولا الجرأة على محارمه، ولكن: غلبات الطبع، وتزيين النفس والشيطان، وقهر الهوى، والثقة بالعفو، ورجاء المغفرة، هذا من جانب العبد، وأما من جانب الربوبية: فجريان الحكم، وإظهار عزِّ الربوبية، وذلِّ العبودية، وكمال الاحتياج، وظهور آثار الأسماء الحسنى.. كالعفو والغفور والتواب والحليم، لمن

---

(١) صفة الصفوة: (٢/ ٢٢٦).

(٢) جامع العلوم والحكم ص (٤٣٠).

(٣) حلية الأولياء: (٢/ ٢٤٤).

جاء تائبًا نادمًا، والمنتقم والعدل وذي البطش الشديد لمن أصر ولزم المجرة.

فهو ـ سبحانه ـ يريد أن يُري عبده تفرده بالكمال، ونقص العبد وحاجته إليه، ويشهده كمال قدرته وعزته، وكمال مغفرته وعفوه ورحمته، وكمال بره وستره وحلمه وتجاوزه وصفحه، وأن رحمته به إحسان إليه لا معارضة، وأنه إن لم يتغمده برحمته وفضله فهو هالك لا محالة.

فلله كم في تقدير الذنب من حكمة وكم فيه مع تحقيق التوبة للعبد من مصلحة ورحمة[١].

قال **سليمان التيمي**: إن الرجل ليذنب الذنب فيصبح وعليه مذلته.

أخي التائب:

وإن امـــرءًا لـــم يصـــف لله قلبـــه
لفـــي وحشـــة مـــن كـــل نظـــرة نـــاظـــر
وإن امـــرءًا لـــم يـــرتحـــل ببضـــاعـــة
إلـــى داره الأخـــرى فليـــس بتـــاجـــر
وإن امـــرءًا ابتـــاع دنيـــا بـــدينـــه
لمنقلـــب منهـــا بصفقـــة خـــاســـر

والتوبة من الذنب: كشرب الدواء للعليل، ورب علة كانت سبب الصحة[٢].

اعلموا إخواني! أن للذنوب تأثيرات قبيحة، مرارتها تزيد على

---

(١) الفوائد ص(٨٨).
(٢) المرجع السابق.

حلاوتها أضعافًا مضاعفة. والمجازي بالمرصاد لا يسبقه شيء ولا يفوته.

والذنوب كما قيل: جراحات، ورب جرح وقع في مقتل[١].

فرب جرح قتل، ورب عثرة أهلكت.. ورب فارط لا يستدرك.

*كان **الحسن** يقول إذا قرأ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦].

يقول: ابن آدم ما كان في غدوة أو روحة ما تصبر على المعصية[٢].

إذا أنت طاوعت الهوى قادك الهوى
إلى بعض ما فيه عليك مقال[٣]

---

(١) الفوائد ص (٥٤).

(٢) الحسن البصري ص (١٤٩).

(٣) شذرات الذهب: (١/ ١٦٥).

نصح المذنب

سأل رجل **ابن مسعود** عن ذنب ألم به . . هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود، ثم التفت إليه، فرأى عينيه تذرفان، فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب: كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة، فإن عليه ملكًا موكلاً به لا يغلق، فاعمل ولا تيأس[١].

أخي الكريم:

كلنا أصحاب ذنوب وخطايا، ولكن خيرنا من يسارع إلى التوبة . . تحثه الخطى، وتسرع به الدمعة . . ويعينه أهل الخير . . رفقاء الدنيا والآخرة . .

عن أبي قلابة أن **أبا الدرداء** مر على رجل قد أصاب ذنبًا، فكانوا يسبونه، فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قليب ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله ـ عز وجل ـ الذي عافاكم، قالوا: أفلا نبغضه؟ قال: إنما أبغض علمه، فإذا تركه فهو أخي[٢].

وكان رجل على حالٍ حسنة، فأحدث حدثًا أو أذنب ذنبًا، فرفضه أصحابه، ونبذوه، فبلغ **إبراهيم النخعي**، فقال: تداركوه وأعطوه ولا تدعوه[٣].

من واجب المحبة والنصيحة عدم ترك العاصي يستمر في معصيته، بل يحاط بإخوانه، ويُذكر، ولا يهمل، فيضل . . ويطرق أبوابًا أخرى . . وهنا

---

(١) الإحياء: (٤/ ١٦).
(٢) صفة الصفوة: (١/ ٦٤٠)، حلية الأولياء (١/ ٢٢٥).
(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٨٩).

يكمن الأخ المخلص والصديق الوفي . . يحوطه قبل أن تزل قدمه وتهوى .

قال **رجاء بن حيوة**: لرجلين وهو يعظهما: انظرا الأمر الذي تحبان أن تلقيا الله ـ عز وجل ـ فخذا فيه الساعة، انظرا الأمر الذي تكرهان أن تلقيا الله ـ عز وجل ـ عليه فدعاه الساعة[١] .

فلله در قوم بادروا الأوقات، واستدركوا الهفوات، فالعين مشغولة بالدمع عن المحرمات، واللسان محبوس في سجن الصمت عن الهلكات، والكف قد كفت بالخوف عن الشهوات، والقدم قد قيدت بقيد المحاسبات، والليل لديهم يجأرون فيه بالأصوات، فإذا جاء النهار قطعوه بمقاطعة اللذات، فكم من شهوة ما بلغوها حتى الممات، فتيقظ للحافهم من هذه الرقدات، ولا تطمعن في الخلاص مع عدم الإخلاص في الطاعات، ولا تؤملن النجاة وأنت مقيم على الموبقات .

شمر عسى أن ينفع التشمير
وانظر بفكرك ما إليه تصير
طولت آمالاً تكنفها الهوى
ونسيت أن العمر منك قصير
قد أفصحت دنياك عن غدراتها
وأتى مشيبك والمشيب نذير
دار لهوت بها زهوًا متمتعًا
ترجو المقام بها وأنت تسير[٢]

---

(١) صفة الصفوة: (٤/ ٢١٤).
(٢) التبصرة: (١/ ١٢٠).

أخي الحبيب:

اشتر نفسك اليوم، فإن السوق قائمة، والثمن موجود، والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير. . ذلك يوم التغابن ـ يوم يعض الظالم على يديه ـ.

ويا أخي:

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التُّقى
وأبصرت يوم الحشر من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله
وأنك لم ترصد كما كان أرصدا[1]

(١) الفوائد ص (٦٤).

نماذج من المحافظة على الأعمار

الأعمار تُطوى والمراحل تُقضى. . وهي أيام تمر مر السحاب. . إذا فات يوم لم نستطع تداركه، وإذا زال نهار أقبل ليل جديد. .

كان **يزيد الرقاشي** يقول لنفسه: ويحك يا يزيد!! من ذا يصلي عنك بعد الموت؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا يترضى عنك ربك بعد الموت؟ ثم يقول: أيها الناس ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ من الموت طالبه، والقبر بيته، والتراب فراشه، والدود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر، كيف يكون حاله[1]؟!

وهذا **ميمون بن مهران**، يرفع صوته بنداءات حارة، فيقول لجلسائه: يا معشر الشيوخ ما ينتظر بالزرع إذا ابيض؟ قالوا: الحصاد، فنظر إلى الشباب، فقال: يا معشر الشباب إن الزرع قد تدركه الآفة قبل أن يستحصد.

أخي الحبيب.. البدار البدار:

وما مضى الشباب بمسترد
ولا يوم يَمرُّ بمستعاد

ويا أخي:

دع عنك ما قد فات في زمن الصبا
واذكر ذنوبك وابكها يا مذنب
واخش مناقشة الحساب فإنه
لابد محص ما جنيت ويكتب

---

(١) التذكرة للقرطبي ص (١٠).

لـــم ينســـه الملكـــان حيـــن نسيتـــه
بـــل أثبتـــاه وأنـــت لاهٍ تلعـــب[١]

أخي:

إنما فضل العقل بتأمل العواقب، فأما قليل العقل؛ فإنه يرى الحال الحاضرة، ولا ينظر إلى عاقبتها. . فإن اللص يرى أخذ المال، وينسى قطع اليد، والبطال يرى لذة الراحة، وينسى ما تجني من فوات العلم وكسب المال، فإذا كبر فسئل عن علم لم يدر، وإذا احتاج سأل فذل، فقد أربى ما حصل من التأسف على لذة البطالة. ثم يفوته ثواب الآخرة بترك العمل في الدنيا.

قس على هذه وانتبه للعواقب، ولا تؤثر لذة تفوت خيرًا كثيرًا، وصابر المشقة تحصل ربحًا وافرًا[٢].

قال **عبد العزيز بن أبي رواد** لرجل: من لم يتعظ بثلاث لم يتعظ بشيء. . الإسلام والقرآن والمشيب[٣].

ألـــم تـــك منهـــاة عـــن الـــزهـــو أننـــي
بَـــدَا لـــي شيـــب الـــرأس والضعـــف والألـــم
ألـــمَّ بـــي الخطـــب الـــذي لـــو بكيتـــه
حيـــاتـــي حتـــى ينفـــد الـــدمـــع لـــم أُلَـــمْ[٤]

---

(١) ديوان الإمام الشافعي ص (٤٧).
(٢) صيد الخاطر ص (٦١٣).
(٣) صفة الصفوة: (٢/ ٢٢٩).
(٤) السير: (٢٢/ ٩).

قال **أبو عبدالله القرشي**: سيروا إلى الله ـ تعالى ـ عرجًا ومكاسير فإن انتظار الصحة بطالة[١].

وقال بعضهم: أكثر من يموت الشباب، وآية ذلك أن الشيوخ في الناس قليل.. فكن ـ أخي ـ على حذر من أن يفجأك من لم تستعد له.. فتمسي في قبرك بدون زاد.. فإن:

سبيلك في الدنيا سبيل مسافر
ولابد من زادٍ لكل مسافر
ولابد للإنسان من حمل عدة
ولا سيما إن خاف سطوة قاهر[٢]

قف يا أخي! حاسب نفسك، وكن مثل **محمد بن الفضل** عندما قال: ما خطوت منذ أربعين سنة خطوة لغير الله ـ عز وجل ـ[٣].

وهذا خارجة بن مصعب يقول: صحبت **عبدالله بن عوف** أربعًا وعشرين سنة، فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة[٤].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟

تمر أيامنا، وتنقص أعمارنا، ونحن لا نزال في غفلاتنا.. نسوف في التوبة.. ونلمح سراب الأمل.. وقد قال **أبو سليمان الداراني**: من كان يومه مثل أمس فهو في نقصان.

وكيف لا يكون في نقصان، وهو يقترب نحو منيته.. ويسير إلى

---

(١) وفيات الأعيان: (٤/ ٣٠٦).
(٢) التبصرة: (١/ ٣٥).
(٣) جامع العلوم والحكم ص (٩٣٠).
(٤) حلية الأولياء: (٣/ ٣٧).

نهايته.. وهو في تقصير متتابع، ولهو، ووقت ضائع.

وحين عوتب **عطاء السليمي** في الرفق بنفسه قال: أتأمرونني بالتقصير، والموت في عنقي، والقبر بيتي، وجهنم أمامي.. ولا أدري ما يصنع بي ربي - عز وجل -[١].

المـــــرء تـــــأكلـــــه الليـــــالـــــي
كـــأكـــل الأرض ســـاقطـــة الحـــديـــد[٢]

قال **سعيد بن جبير**: إن بقاء المسلم كل يوم غنيمة، فذكر الفرائض والصلوات وما يرزقه الله من ذكره[٣].

وقال **ميمون بن مهران**: لا خير في الدنيا إلا لرجلين، رجلٌ تائب، ورجل يعمل في الدرجات[٤].

* **قال ابن الجوزي**: تذكرت في سبب دخول جهنم، فإذا هو المعاصي.. فنظرت في المعاصي، فإذا هي حاصلة في طلب اللذات، فنظرت في اللذات، فرأيتها خدعًا ليست بشيء، وفي ضمنها من الأكدار ما يصيرها نغصًا فتخرج عن كونها لذات.

فكيف يتبع العاقل نفسه، ويرضى بجهنم لأجل هذه الأكدار؟

وهي ليست بكثير شيء فكيف تباع الآخرة بمثل هذا[٥]؟.

---

(١) الزهد للبيهقي ص (٢٢٨).
(٢) وفيات الأعيان: (٦/ ١٠٣).
(٣) السير: (٤/ ٣٢٦).
(٤) حلية الأولياء: (٤/ ٨٣).
(٥) صيد الخاطر ص (٥٥٣).

ولا خيـر فـي الـدنيـا لمـن لـم يكـن لـه
مـــن الله فـــي دار المقـــام نصيـــبُ
فـــإن تعجـــب الـــدنيـــا رجـــالاً فـــإنـــه
متـــاعٌ قليـــل والـــزوال قـــريـــب

قال **رياح القيس**: لي نيف وأربعون ذنبًا، قد استغفرت لكل ذنب مائة ألف مرة[١].

كثـــرت ذنـــوبنـــا فلـــم نحصهـــا
وقلـــت ذنـــوبهـــم فعـــرفـــوهـــا

قال **أبو إسحاق القرشي**: كتب إليَّ أخي من مكة.. يا أخي! إن كنت تصدقت بما مضى من عمرك على الدنيا، وهو الأكثر، فتصدق بما بقي من عمرك على الآخرة، وهو الأقل[٢].

وفي حديث لتحريك الهمم وشحذ النفوس، قال **السري**: يا معشر الشباب! جدوا قبل أن تبلغوا مبلغي، فتضعفوا، وتقصروا كما قصرت.. وكان ـ رحمه الله ـ في ذلك الوقت لا تلحقه الشباب إلى العبادة.

وكان **العلاء ابن زياد** يقرل: ينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، فاستقال ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ فأقاله.. فليعمل بطاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

ونحن ـ يا أخي ـ أقالنا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأمد في أعمارنا.. وفتح لنا باب التوبة.. والإنابة والأوبة.. فماذا بقي..؟ إنها محاسبة النفس، والجد في الطاعة، والإسراع في التوبة.

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٣٦٨).
(٢) الزهد للبيهقي ص (١٧٥).

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي
درج الجنان وطيب عيش العابد
ونسيت أن الله أخرج آدمًا
منها إلى الدنيا بذنب واحد[١]

* رأيت من نفسي عجبًا.. تسأل الله ـ عز وجل ـ حاجاتها، وتنسى جناياتها.. نحرص على جمع الدنيا وحطامها وهي سنوات محدودة.. ولهونا عن الآخرة وهي الحياة الأبدية. قال رجل **لأبي حازم**: أوصني؟ قال: كل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فالزمه، وكل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فأجتنبه[٢].

وقال **الحسن** ـ وهو يحكي حالنا ـ: إن المؤمن لا يصبح إلا خائفًا.. ولا يصلح إلا ذاك، لأنه بين ذنبين.. ذنب مضى لا يدري كيف يصنع الله فيه، وأجل أو قال آخر.. لا يدري ما كتب عليه فيه.

وقال ـ رحمه الله ـ: لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث:

أنه لم يتمتع بما جمع، ولم يدرك ما أمل، ولم يحسن الزاد لما قدم عليه[٣].

قال **ابن الجوزي**: رأيت الخلق كلهم في صف محاربة، والشياطين يرمونهم بنبل الهوى، ويضربونهم بأسياف اللذة.

فأما المخلطون فصرعى من أول وقت اللقاء.

وأما المتقون ففي جهد جهيد من المجاهدة، فلابد مع طول الوقوف

---

(١) البداية والنهاية: (٩/ ٢٩١).
(٢) الإحياء: (٤/ ٢٨).
(٣) حلية الأولياء: (٦/ ٢٧٢).

في المحاربة من جراح، منهم يجرحون ويداوون إلا أنهم من القتل محفوظون، بلى! إن الجراحة في الوجه شين باق، فليحذر ذلك المجاهدون[١].

مضى أمسك الأدنى شهيدًا معدَّلاً
ويومك هذا بالفعال شهيد
فإن تك بالأمس اقترفت إساءة
فثنِّ بإحسان وأنت حميد
ولا ترج فعل الخير منك إلى غدٍ
لعل غدًا يأتي وأنت فقيد[٢]

أخي الحبيب:

قس نفسك، وانظر ماذا يهمك في هذه الدنيا. آمالك وطموحاتك ما هي.؟ أهي حطام الدنيا أم جنة عرضها السموات والأرض؟ وانظر ما يهمك من أمر، أهو للآخرة أم للدنيا، فقد قال **الجنيد بن محمد**: علامة إعراض الله عن العبد أن يشغله بما لا يعنيه[٣].

فلا تُشغلك الدنيا بزينتها وزخرفها فإننا:

نسير إلى الآجال في كل لحظة
وأيامنا تطوى وهن مراحلُ
ولم أر مثل الموت حقًّا كأنه
إذا ما تخطته الأماني باطل

---

(١) صيد الخاطر ص (٢٥٧).
(٢) مكاشفة القلوب: (١٣٢).
(٣) صفة الصفوة: (٢/ ٤١٨).

وما أقبح التفريط في زمن الصبا
فكيف والشيب للرأس شاغل
فارحل من الدنيا بزاد من التقى
فعمرك أيام وهن قلائل

الإنسان خير المخلوقات إذا تقرب من بارئه، والتزم أوامره ونواهيه، وعمل بمرضاته، وآثره على هواه. وشر المخلوقات إذا تباعد عنه، ولم يتحرك قلبه لقربه وطاعته وابتغاء مرضاته، فمتى اختار التقرب إليه، وآثره على نفسه وهواه، فقد حكم قلبه وعقله وإيمانه على نفسه وشيطانه، وحكم رشده على غيه، وهُداه على هواه، ومتى اختار التباعد منه فقد حكم نفسه وهواه وشيطانه على عقله وقلبه ورشده[١].

عن مسروق بن الأجدع قال: إن المرء لحقيق أن يكون له مجالس يخلو فيها، يتذكر ذنوبه يستغفر منها[٢].

وقد كان ابن أبي ذئب الإمام يجتهد في العبادة، ولو قيل له: إن القيامة تقوم غدًا ما كان فيه مزيد اجتهاد[٣].

أيأسوني لما رأوا من ذنوبي
أتراهم هم الغفور الرحيم
اتركوني وإن تعاظم ذنبي
إنما يغفر العظيمَ العظيمُ[٤]

---

(١) الفوائد ص (٢٢٥).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٢٦).
(٣) تذكرة الحفاظ: (١/ ١٩١).
(٤) جنة الرضا: (١/ ١٣٥).

* تأملت في الخلق وإذا هم في حالة عجيبة، ويكاد يقطع منها بفساد العقل، وذلك أن الإنسان يسمع المواعظ، وتذكر له الآخرة، فيعلم صدق القائل، فيبكي، وينزعج على تفريطه، ويعزم على الاستدراك، ثم يتراخى عمله بمقتضى ما عزم عليه.

فإذا قيل له: أتشك فيما وعدت به؟ قال: لا والله، فيقال له: فاعمل، فينوي ذلك، ثم يتوقف عن العمل، وربما مال إلى لذة محرمة، وهو يعلم النهي عنها[١].

قال **أبو الدرداء**: تمام التقوى، أن يتقي الله العبد حتى يتقيد من مثقال ذرة[٢].

أخي التائب:

الحذر الحذر من المعاصي.. فإن عواقبها سيئة، وكم من معصية لا يزال صاحبها في هبوط أبدًا مع تعثير أقدامه، وشدة فقره، وحسراته على ما يفوته من الدنيا، وحسرة لمنْ نالها.

فالله الله في تجويد التوبة عساها تكف كف الجزاء.. والحذر الحذر من الذنوب خصوصًا ذنوب الخلوات، فإن المبارزة لله ـ تعالى ـ تسقط العبد من عينه، وأصلح ما بينك وبينه في السر، وقد أصلح لك أحوال العلانية.

ولا تغتر بستره، فربما يجذب عن عورتك، ولا بحلمه فربما بغت العقاب. وعليك بالقلق واللجأ إليه والتضرع[٣].

---

(١) صيد الخاطر ص (٤٦١).
(٢) جامع العلوم ص (١٩٢).
(٣) صيدالخاطر ص (٢٦٤).

صورٌ من التوبة

قوافل التائبين تسير.. وجموع المنيبين تُقبل.. وباب التوبة مفتوح. ودعوةٌ تتلى من آيات القرآن الكريم: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

دموع التائبين صادقة، وقلوبهم... منخلعة.. يخافون يومًا: تتقلب فيه القلوب والأبصار.

قال **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ: اجلسوا إلى التوابين، فإنهم أرق أفئدة[١].

وذكر أن **الفضيل بن عياض** كان شاطرًا في قطع الطريق. وكان يتعشق جارية، فبينما هو ذات ليلة يتسور عليها جدارًا، إذ سمع قارئًا يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٦١]، فقال: بلى، فتاب، وأقلع عما كان عليه، ورجع إلى خربة، فبات بها، فسمع سفارًا يقول: خذوا حذركم؛ إن فضيلاً أمامكم يقطع الطريق، فأمنهم واستمر على توبته، حتى كان منه ما كان من السيادة والعبادة والزهادة، ثم صار علمًا: يقتدى به، ويهتدى بكلامه، وفعاله[٢].

خل الذنوب صغيرها
وكبيرها ذاك التُقى

---

(١) الإحياء: (٤/١٦).
(٢) البداية والنهاية: (١٠/٢٢٦).

واصنـــــع كمـــــاشٍ فـــــوق أر
ضِ الشـــوكِ يحـــذر مـــا يـــرى
لا تحقـــــــرن صغيـــــــرة
إن الجبـــــال مـــــن الحصـــــى[1]

قال إبراهيم بن بشار: قلت لإبراهيم بن أدهم: كيف كان بدء أمرك؟ قال: غير ذا أولى بك، قال: قلت: أخبرني لعل الله أن ينفعنا به يومًا، قال: كان أبي من الملوك المياسير، وحبب إلينا الصيد، فركبت، فثار أرنبٌ أو ثعلب، فحركت فرسي، فسمعت نداءً من ورائي: ليس لذا خُلقت، ولا بذا أُمرت، فوقفت أنظر يمنة ويسرة، فلم أر أحدًا، فقلت: لعن الله إبليس، ثم حركت فرسي، فأسمع نداء أجهر من ذلك: يا إبراهيم ليس لذا خلقت، ولا بذا أمرت، فوقفت أنظر فلا أرى أحدًا، فقلت: لعن الله إبليس، فأسمع نداء من قربوس (حنو الفرس) سرجي بذاك، فقلت: انبهت، انبهت، جاءني نذير، والله لا عصيت الله بعد يومي ما عصمني الله، فرجعت إلى أهلي، فخليت فرسي، ثم جئت إلى رعاة لأبي، فأخذت جبة كساء، وألقيت ثيابي إليه، ثم أقبلت إلى العراق، فعملت بها أيامًا، فلم يصف لي منها الحلال، فقيل لي: عليك بالشام[2].

فـــــي الـــــذاهبيـــــن الأولـ
ـيـــن مـــن القـــرون لنـــا بصـــائـــر
لمـــــا رأيـــــت مـــــواردًا
للمـــــوت ليـــــس لهـــــا مصـــــادر

---

(١) بستان العارفين ص ١٠٥).
(٢) السير: (٧/ ٣٩٥).

ورأيـــت قـــومـــي نحـــوهـــا
يسعـــى الأصـــاغـــر والأكـــابـــر
لا يـــرجـــع المـــاضـــي إلـــيَّ
ولا مـــن البـــاقيـــن غـــابـــر
أيقنـــــت أنـــــي لا محـــــا
لـــة حيـــث صـــار القـــوم صـــائـــر[١]

قال **سلاَّم بن أبي مطيع**: كن لنعمة الله عليك في دينك، أشكر منك لنعمة الله عليك في دنياك[٢].

وقالت **عائشة** ـ رضي الله عنها ـ: إنكم لن تلقوا الله بشيء خير لكم من قلة الذنوب، فمن سره أن يسبق الدائب المجتهد، فليكف نفسه عن كثرة الذنوب[٣].

أخي الحبيب: عليك بلزوم الطريق والسير على الجادة.

واتـــــق الله فتقـــــوى الله مـــــا
جـــاورت قلـــب امـــريء إلا وصـــل
ليـــس مـــن يقطـــع طـــرقًـــا بطـــلاً
إنمـــا مـــن يتـــق الله البطـــل

كان **الحسن** يقول: نضحك، ولعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا، فقال: لا أقبل منكم شيئًا[٤].

فالدنيا خدَّاعة غدَّارة.. ترى منها الـحُسنَ.. فتلهيك عن الدار

---

(١) تاريخ بغداد: (٢/ ٢٨١).
(٢) حلية الأولياء: (٦/ ١٨٨).
(٣) صفة الصفوة: (٢/ ٣٢).
(٤) صفة الصفوة: (٣/ ٢٣٣).

الآخرة.. ثم يفجأك الموت على حين غفلة من أمرك..

فـــلا تغـــرنـــك الـــدنيـــا وزينتهـــا
وانظـــر إلـــى فعلهـــا فـــي الأهـــل والـــوطـــن
وانظـــر إلـــى مـــن حـــوى الـــدنيـــا بـــأجمعهـــا
هـــل راح منهـــا بغيـــر الـــزاد والكفـــن[1]

وتأمل ـ أخي ـ في قول **الحسن**: المؤمن من علم أن ما قال الله كما قال، والمؤمن أحسن الناس عملاً، وأشد الناس وجلاً، فلو أنفق جبلاً من مال، ما أمن دون أن يعاين، لا يزداد صلاحًا وبرًّا إلا ازداد فرقًا، والمنافق يقول: سواد الناس كثير وسيغفر لي، ولا بأس عليَّ، فيسيء العمل ويتمنى على الله[2].

وكان **الربيع بن خثيم** يقول لأصحابه: تدرون ما الداء، والدواء، والشفاء؟ قالوا: لا، قال: الداء: الذنوب، والدواء الاستغفار، والشفاء: أن تتوب ثم لا تعود[3].

أخي الحبيب: جهاد النفس يحتاج إلى: صبر، ومثابرة، وخوفٍ، ووجل، ورجاءٍ، وأمل.. لا يُتهاون بالصغائر، ولا تؤتى الكبائر.

قال **عمرو بن مرة**: نظرت إلى امرأة فأعجبتني، فكف بصري فأرجو أن يكون ذلك كفارة[4].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

---

(١) موارد الظمآن: (٣/ ٤٩٢).
(٢) السير: (٤/ ٥٨٦).
(٣) حلية الأولياء: (٢/ ١٠٨).
(٤) صفة الصفوة: (٣/ ١٠٦).

أين من يطلق بصره على محارم الله؟! من يتتبع الخطوات، ويلحظ المسلمات بعين شرهة.. لا يكف بصره ولا يخاف ربه.

تفنـــي اللـــذاذة ممـــن نـــال صفـــوتهـــا
مـــن الحـــرام ويبقـــى الإثـــم والعـــار
تبقـــى عـــواقـــب ســـوء مـــن مغبتهـــا
لا خيـــر فـــي لـــذة مـــن بعـــدهـــا النـــارُ

قال **أبو حازم سلمة بن دينار** في نصيحة أخوية صادقة: انظر إلى الذي تحب أن يكون معك في الآخرة فقدمه اليوم، وانظر الذي تكره أن يكون معك ثم فاتركه اليوم[1].

أخي المسلم:

إذا مـــا خلـــوت يـــومًـــا فـــلا تقـــل
خلـــوت ولكـــن قـــل علـــيَّ رقيـــبُ
ولا تحسبـــنَّ الله يغفـــل ســـاعـــةً
ولا أن مـــا تخفـــي عليـــه يغيـــب
لهـــونـــا عـــن الأيـــام حتـــى تتـــابعـــت
ذنـــوبٌ علـــى آثـــارهـــن ذنـــوب

قال **مالك بن دينار** ـ رحمه الله ـ: رأيت في البادية في يوم شديد البرد شابًا عليه ثوبان خلقان، وعليه آثار الدعاء وأنوار الإجابة، فعرفته، وكنت قبل ذلك عهدته في البصرة: ذا ثروة، وحسن حال، وكان ذا مالٍ وآمال.

قال: فبكيت لما رأيته على تلك الحال، فلما رآني بكى وبدأني

---

(١) حلية الأولياء: (٣/ ٢٣٨).

بالسلام، وقال لي: يا مالك بن دينار: ما تقول في عبد أبق من مولاه؟ فبكيت لقوله بكاءً شديدًا، وقلت له: وهل يستطيع المسكين ذلك؟ البلاد بلاده، والعباد عباده، فأين يهرب؟

فقال: يا مالك سمعت قارئًا يقرأ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨]. فأحسست في الحال بنار وقعت بين ضلوعي، فلا تخمد، ولا تهدأ من ذلك اليوم، يا مالك.. أتراني أُرحم وتطفأ هذه الجمرة من قلبي؟

فقلت له: أحسن الظن بمولاك، فإنه غفورٌ رحيم، ثم قلت له: إلى أين؟ قال: إلى مكة شرفها الله ـ تعالى ـ لعلي ممن أكون إذا التجأ إلى الحرم استحق مراعاة الذمم.

قال مالك: ففارقني ومضى، فتعجبت من وقوع الموعظة منه موقعها، وما تأجج بين جنبيه من نار التيقظ والإنابة، وما حصل عليه من صدق القبول وحسن الاستماع[1].

فحي على جنَّات عدن فإنها
منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى
نعود إلى أوطاننا ونسلم[2]

أخي:

* طال بنا الأمل.. ومضى بنا التسويف.. فماذا ننتظر لنتوب؟

---

(١) العاقبة ص (٨٢).
(٢) عقود اللؤلؤ ص (٣٣).

وحالنا وتسويفنا حاكه **أبو حازم** بقوله:

نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب، ونحن لا نتوب حتى نموت[١].

لهونا عن الأيام حتى تتابعت
ذنوب على آثارهن ذنوب
فيا ليت أن يغفر الله ما مضى
ويأذن لي في توبةٍ فأتوب[٢]

قال **يونس بن سليمان البلخي**: كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف، وكان أبوه كثير المال والخدم والجنائب والبزاة، فبينما إبراهيم في ذلك اليوم وهو على فرسه يركضه، إذا بصوت من فوقه.. يا إبراهيم ما هذا العبث؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥] اتق الله وعليك بالزاد ليوم الفاقة.

قال: فنزل عن دابته ورفض الدنيا وأخذ في عمل الآخرة[٣].

وقال **الفضيل بن عياض** لرجل: كم أتت عليك؟ قال: ستون سنة، قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك، يوشك أن تبلغ، فقال: الرجل: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾، فقال الفضيل: أتعرف تفسيره؟! تقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ فمن عرف أنه لله عبد وأنه إليه راجع، فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسؤول، ومن علم أنه مسؤول، فليعد للسؤال جوابًا، فقال الرجل: فما الحيلة؟

---

(١) أدب الدنيا والدين ص (١٠٩).
(٢) حلية الأولياء: (٩/ ٢٢٠).
(٣) صفة الصفوة: (٤/ ١٥٢).

قال: يسيرة.. تُحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى وما بقي[١].

أرأيت ـ أخي ـ هذا الفضل العظيم والإحسان الجزيل.. فالتوبة تَجُبُّ ما قبلها.

بلغت من عمري ثمانينا
وكنت لا آمل خمسينا
فالحمد لله وشكرًا له
إذ زاد في عمري ثلاثينا
وأسأل الله بلوغاً إلى
مرضاته آمين آمينا[٢]

قال **عبد الرحمن بن يزيد بن جابر**: كان عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية خلا لعبد الملك بن مروان، فلما مات عبد الملك بن مروان وتصدع عن قبره، وقف عليه، فقال: أنت عبد الملك الذي كنت تعدني فأرجوك، وتوعدني فأخافك، أصبحت وليس معك من غير ثوبين، وليس لك منه غير أربعة أذرع في عرض ذراعين، ثم انكفأ إلى الله، واجتهد في العبادة، حتى صار كأنه شن بال، فدخل عليه بعض أهله، فعاتبه في نفسه وإضراره بها، فقال للقائل: أسألك عن شيء تصدقني عنه؟ قال: نعم، قال: أخبرني عن حالتك التي أنت عليها، أترضاها لنفسك؟ قال: اللهم لا، قال: أفعزمت على الانتقال منها إلى غيرها، قال: ما انتصحت رأي في ذلك، قال: أفتأمن أن يأتيك الموت

---

(١) جامع العلوم: (٤٦٤).
(٢) تاريخ بغداد: (٥/ ٢١١).

على حالك التي أنت عليها؟ قال: اللهم لا.

قال: حال ما أقام عليها عاقل، ثم انكفأ إلى مصلاه.

لبست ثوب الدجى والناس قد رقدوا
وبتُّ أشكو إلى مولاي ما أجد
وقلت: يا أملي في كل نائبة
ومن عليه لكشف الضر أعتمد
أشكو إليك أمورًا أنت تعلمها
مالي على حملها صبرٌ ولا جلد
وقد مددت يدي بالذل مبتهلاً
إليك يا خير من مدت إليه يد
فلا تردَّنَّها يا رب خائبة
فبحر جودك يروي كل من يرد[1]

دخل لص على **مالك بن دينار** فما وجد ما يأخذ، فناداه مالك: لم تجد شيئًا من الدنيا، فترغب في شيءٍ من الآخرة؟ قال: نعم، قال: توضأ، وصل ركعتين، ففعل، ثم جلس وخرج إلى المسجد، وخرج، فسئل: من ذا؟ قال: جاء ليسرق، فسرقناه[2]!!

قال **مطرِّف بن عبد الله**: لأن أبيت نائمًا، وأصبح نادمًا: أحب إليَّ من أن أبيت قائمًا، وأصبح معجبًا[3].

نسير إلى الله في توبة صادقة وبقلبٍ وجل.. عسى الله أن يرحمنا.

---

(١) عقود اللؤلؤ ص (٢٥١).
(٢) السير: (٥/ ٣٦٣).
(٣) السير: (٤/ ١٩٠).

يـــا رب إن عظمـــت ذنـــوبـــي كثـــرة
فلقـــد علمـــت بـــأن عفـــوك أعظـــمُ
إن كـــان لا يـــرجـــوك إلا محســـنٌ
فمـــن الـــذي يـــدعـــو ويـــرجـــو المجـــرم
أدعـــوك رب كمـــا أمـــرت تضـــرعـــاً
فـــإذا رددت يـــدي فمـــن ذا يـــرحـــم
مـــا لـــي إليـــك وسيلـــة إلا الـــرجـــا
وجميـــل عفـــوك ثـــم إنـــي مسلـــم[١]

أخي:

أين نحن من تذكر ذنوبنا، وأن ما أصابنا هو بسبب ذنوبنا!؟ فقد أغلظ رجل **لوكيع بن الجراح**، فدخل بيته، فعفر وجهه في التراب، ثم خرج إلى الرجل، فقال: زد وكيعًا بذنبه، فلولاه ما سُلطت عليه[٢].

وقال **ابن سيرين**: إني لأعرف الذنب الذي حُمل به عليَّ الدين ما هو، قلت لرجل منذ أربعين سنة: يا مفلس[٣].

رحمهم الله ـ لقلة ذنوبهم ـ عرفوا من أين يؤتون.. ونحن لكثرة ذنوبنا لا نحصي.. ولا نتذكر..!!

قال **عبد الرحمن بن يزيد بن جابر** قلت **ليزيد بن مرثد**: مالي أرى عينك لا تجف؟ قال: وما مسألتك عنه؟ قلت: عسى الله أن ينفعني به، قال: يا أخي إن الله قد توعدني إن أنا عصيته أن يسجنني في النار، والله لو

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ١٧١)، جامع العلوم والحكم: (٤٧٧).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ١٧١).
(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٢٤٦).

لم يتوعدني أن يسجنني إلا في الحمام لكنت حريًا أن لا تجف لي عين، فقلت له: فهكذا أنت في خلواتك؟ قال: وما مسألتك عنه، قلت: عسى الله أن ينفعني به، فقال: والله إن ذلك ليعرض لي حين أسكن إلى أهلي. فيحول بيني وبين ما أريد، وإنه ليوضع الطعام بين يدي فيعرض لي، فيحول بيني وبين أكله، حتى تبكي امرأتي ويبكي صبياننا، ما يدرون ما أبكانا[١]

قدم لنفسك في الحياة تزودًا
فلقد تُفارقها وأنت مُودعُ
واهتم للسفر القريب فإنه
أنأى من السفر البعيد وأشسعُ
واجعل تزودك المخافة والتُّقى
وكأن حتفك من مسائك أسرع[٢]

قال ابن سيرين: إذا أراد الله ـ عز وجل ـ بعبده خيرًا جعل له واعظًا من قلبه يأمره وينهاه[٣].

أخي الحبيب:

خذ من شبابك قبل الموت والهرم
وبادر التوب قبل الفوت والندم
واعلم بأنك مجزيٌ ومرتهن
وراقب الله واحذر زلة القدم[٤]

---

(١) حلية الأولياء: (٥/ ١٦٤).
(٢) ديوان الإمام علي: (١٢٩).
(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٢٤٣).
(٤) ترتيب المدارك: (٢/ ٤٦١).

القلوب التائبة منكسرة بين يدي الله.. تسبقها الدمعة.. ويحدوها عفو الله وسعة كرمه.. وهي قلوب قال عنها **عوف بن عبدالله**: قلب التائب بمنزلة الزجاجة يؤثر فيها جميع ما أصابها، فالموعظة إلى قلوبهم سريعة، وهم إلى الرقة أقرب، فداووا القلوب بالتوبة، فلرب تائب دعته توبته إلى الجنة حتى أوفدته عليها، وجالسوا التوابين، فإن رحمة الله إلى التوابين أقرب[١].

وقال **الفضيل بن عياض**: كل حزن يبلى.. إلا حزن التائب[٢].

إلهي لا تعذبني فإني
مقرٌ بالذي قد كان مني
وما لي حيلة إلا رجائي
وعفوك إن عفوت وحسن ظني
وكم من زلة لي في الخطايا
وأنت عليَّ ذو فضلٍ ومنِّ

يقول **ابن الجوزي**: ينبغي للعاقل أن يكون على خوف من ذنوبه، وإن تاب منها، وبكى عليها، وإني رأيت أكثر الناس قد سكنوا إلى قبول التوبة، وكأنهم قد قطعوا على ذلك، وهذا أمر غائب، ثم لو غفرت بقي الخجل من فعلها.

فالحذر الحذر من كل ما يوجب خجلاً.

وهذا أمر قل أن ينظر فيه تائب أو زاهد، لأنه يرى أن العفو قد غمر

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ١٠٤).
(٢) حلية الأولياء: (٨/ ١٠١).

الذنب بالتوبة الصادقة . . وما ذكرته يوجب دوام الحذر والخجل[١] .

قال **سلمان الفارسي** : ـ رضي الله عنه ـ إذا أسأت سيئة في سريرة فأحسن حسنة في سريرة، وإذا أسأت سيئة في علانية . فأحسن حسنة في علانية، لكي تكون هذه بهذه[٢] .

أخي المسلم:

من نعم الله علينا أن طريق التوبة مفتوح . . ليس عليه حُجَّابٌ ولا دونه أبواب . .

إنه باب: أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، غافر الذنب، وقابل التوب . .

قال **أحمد بن عاصم الأنطاكي** : هذه غنيمةٌ باردة، أصلح ما بقي من عمرك، يغفر لك ما مضى[٣] .

الحمد لله الذي أمهلنا ومن العيوب سترنا . . وإلى بابه: باب التوبة سيرنا . .

قـــدم لنفســـك تـــوبـــة مـــرجـــوةً
قبـــل الممـــات وقبـــل حبـــس الألســـن[٤]

قال **بعض السلف** : كان داود ـ عليه السلام ـ بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة، فمن قضى له بالتوبة كان كما قال **سعيد بن جبير** : إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها

---

(١) صيد الخاطر ص (٥٠٢).
(٢) صفة الصفوة: (١/٥٤٨).
(٣) الزهد للبيهقي ص (٢٢٨).
(٤) التذكرة ص (٥٣).

الجنة، وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينيه ويعجب بها، ويعمل السيئة فتكون نصب عينيه فيستغفر الله ويتوب إليه منها[١].

وقال **مالك بن دينار**: إن البدن إذا سقم لم ينجع فيه: طعام، ولا شراب، ولا نوم، ولا راحة. وكذلك القلب إذا علقه حب الدنيا لم تنجع فيه الموعظة[٢].

أخي:

أقبـــل علـــى صلـــواتـــك الخمـــس
كـــم مـــن مصبـــح وعســـاه لا يُمســـي
واستقبـــل اليـــوم الجـــديـــد بتـــوبـــةٍ
تمحـــو ذنـــوب صحيفـــة الأمـــسِ
فليفعلـــن بـــوجهـــك الغـــض البلـــى
فعـــل الظـــلام بصـــورة الشمـــس[٣]

إذا عزم العبد على السفر إلى الله ـ تعالى ـ: وإرادته عرضت له الخوادع والقواطع، فينخدع أولاً: بالشهوات، والرياسات، والملاذ والمناكح والملابس، فإن وقف معها انقطع، وإن رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه، ابتُلِيَ: بوطء عقبه، وتقبيل يده، والتوسعة له في المجلس، والإشارة إليه بالدعاء ورجاء بركته، ونحو ذلك، فإن وقف معه، انقطع به عن الله، وكان حظه منه، وإن قطعه ولم يقف معه ابتلي بالكرامات، والكشوفات، فإن وقف معها، انقطع بها عن الله وكان حظه،

---

(١) تسلية أهل المصائب ص (٢١٨).
(٢) حلية الأولياء: (٢/ ٧٦٣).
(٣) أدب الدنيا والدين ص (٩٧).

وإن لم يقف معها ابتلي بالتجريد، والتخلي ولذة الجمعية، وعزة الوحدة، والفراغ من الدنيا، فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود[١].

وطريق التائب طريق فيه مشقة، وتحفه المزالق والشهوات، ولكنه يسير إلى رب غفور كريم.

الحسنة عنده بعشرة أمثالها، أو يضاعفها بلا عدد ولا حسبان. والسيئة عنده بواحدة، ومصيرها إلى العفو والغفران، وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والأرض إلى آخر الزمان، إن ربنا لغفور شكور.. بابه الكريم مناخ الآمال، ومحط الأوزار، وسماء عطاء لا تقلع عن الغيث، بل هي مدرار، ويمينه ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار.. إن ربنا لغفور شكور[٢].

أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأفرح بتوبة التائب من الفاقد لراحلته، التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها، وأشكر للقليل من جميع خلقه، فمن تقرب إليه بمثقال ذرة من الخير شكرها وحمدها، إن ربنا لغفورٌ شكور[٣].

يا من يجيب دعاء المضطر في الظلم
يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا
وأنت يا حي يا قيوم لم تنم

---

(١) الفوائد ص (٢٢٣).
(٢) عدة الصابرين ص (٣٤٠).
(٣) عد الصابرين ص (٣٣٩).

هــب لــي بجــودك مــا أخطــأت مــن جــرم
يــا مــن إليــه أشــار الخلــق بــالكــرم
إن كــان عفــوك لــم يسبــق لمجتــرم
فمــن يجــود علــى العــاصيــن بــالنعــم[١]

ألقى الله ـ سبحانه ـ العداوة بين الشيطان وبين الملك، والعداوة بين العقل وبين الهوى، والعداوة بين النفس الأمارة وبين القلب، وابتلي العبد بذلك وجمع له بين هؤلاء، وأمدَّ كل حزب بجنود وأعوان، فلا تزال الحرب سجالاً[٢].

فشمر ـ أخي الحبيب ـ عن همتك.. وبادر نفسك.. فإننا كما قال **معاذ بن جبل**: ـ رضي الله عنه ـ إن المؤمن لا يسكن روعه، حتى يترك جسر جهنم وراءه[٣].

تفكــرت فــي حشــري ويــوم قيــامتــي
وإصبــاح خــدي فــي المقــابــر ثــاويــا
فــريــدًا وحيــدًا بعــد عــز ومنعــةٍ
رمينــا بجــرمــي والتــراب وســاديــا
تفكــرت فــي طــول الحســاب وعــرضــه
وذُلَّ مقــامــي حيــن أُعطــي حســابيــا
ولكــن رجــائــي فيــك ربــي وخــالقــي
بــأنــك تعفــو يــا إلهــي خطــائيــا

---

(١) عقود اللؤلؤ ص (١٩٧).
(٢) الفوائد ص (٧٨).
(٣) الإحياء: (٤/١٩٨).

والله ـ تعالى ـ يبتلي عبده المؤمن بما يتوب منه. . ليحصل له بذلك من تكميل العبودية والتضرع، والخشوع لله والإنابة إليه، وكمال الحذر في المستقبل والاجتهاد في العبادة ما لم يحصل بدون التوبة، كمن ذاق الجوع والعطش، والمرض والفقر والخوف، ثم ذاق الشبع والري والعافية والغنى والأمن، فإنه يحصل له من المحبة لذلك وحلاوته ولذته، والرغبة فيه وشكر نعمة الله عليه، والحذر أن يقع فيما حصل أولاً ما لم يحصل بدون ذلك[١].

* عاد حماد بن سلمة **سفيان الثوري**، فقال سفيان: يا أبا سلمة: أترى الله يغفر لمثلي؟ فقال حماد: والله لو خيرت بين محاسبة الله إياي وبين محاسبة أبوي، لأخذت محاسبة الله، وذلك لأن الله أرحم بي من أبوي.

قال **خالد بن معدان** مهيبًا لاغتنام الفرص واستثمار الأوقات: إذا فتح لأحدكم باب خير، فليسرع إليه، فإنه لا يدري متى يغلق عنه[٢].

إذا هبت رياحُك فاغتنمها
فإن لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها
فما تدري السكون متى يكون
وإن دَرَّت نياقك فاحتلبها
فما تدري الفصيلُ لمن يكون[٣]

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٥/ ٥٥).
(٢) حلية الأولياء: (٥/ ٢١١)، السير: (٤/ ٥٤٠).
(٣) أدب الدنيا والدين ص (٢٠٢).

قال **يحيى بن معاذ**: لا تستبطيء الإجابة، وقد سددت طريقها بالذنوب[١].

الله يغضب إن تركتَ سُؤَالَه
وابن آدم حين يُسأَلُ يَغْضَبُ[٢]

يا أرحم الراحمين نرفع أيدي التوبة.. ونستغفرك من كل ذنوبنا فنحن من التائبين العائدين.. قلوب تخفق وعيون تدمع.

أسير الخطايا عند بابك يقرع
يخاف ويرجو الفضل فالفضل أوسع
مقرٌ بأثقال الذنوب ومكثرٌ
ويرجوك في غفرانها فهو يطمع
فإنك ذو الإحسان والجود والعطا
لك المجد والأفضال والمن أجمع
فكم من قبيح قد سترت عن الورى
وكم نعم تترى علينا وتتبع
ومن ذا الذي يرجى سواك ويتقى
وأنت إله الخلق ما شئت تصنع[٣]

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** ـ رحمه الله ـ: الذي يضر صاحبه هو ما لم يحصل منه توبة، فأما ما حصل منه توبة، فقد يكون صاحبه بعد التوبة أفضل منه قبل الخطيئة، كما قال بعض السلف: كان داود بعد التوبة

---

(١) السير: (١٣/ ١٥).
(٢) عقود اللؤلؤ ص (٢٨٣).
(٣) موارد الظمآن: (١/ ٥٤٧).

أحسن منه حالاً قبل الخطيئة، ولو كانت التوبة من الكفر والكبائر، فإن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم خيار الخليقة بعد الأنبياء، وإنما صاروا كذلك بتوبتهم مما كانوا عليه من الكفر والذنوب، ولم يكن ما تقدم قبل التوبة نقصًا ولا عيبًا، بل لما تابوا من ذلك وعملوا الصالحات كانوا أعظم إيمانًا، وأقوى عبادة وطاعة ممن جاء بعدهم، فلم يعرف الجاهلية كما عرفوها[1].

والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع بعشر أسباب:

أحدها: أن يتوب توبةً نصوحًا ليتوب الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

الثاني: أن يستغفر الله فيغفر الله ـ تعالى ـ له.

الثالث: أن يعمل حسنات يمحوها لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

الرابع: أن يدعو له إخوانه المؤمنون ويشفعون له حيًّا وميتًا.

الخامس: أن يهدي له إخوانه المؤمنون من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به.

السادس: أن يشفع فيه نبينا محمد ﷺ.

السابع: أن يبتليه الله في الدنيا بمصائب في نفسه وماله وأولاده، وأقاربه، ومن يحب ونحو ذلك.

الثامن: أن يبتليه في البرزخ بالفتنة والضغطة، وهي عصر القبر، فيكفر بها عنه.

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٥/ ٥٣).

التاسع: أن يبتليه الله في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه.

العاشر: أن يرحمه أرحم الراحمين.

فمن أخطأته هذه العشرة، فلا يلومن إلا نفسه، كما قال ـ تعالى ـ في الأحاديث الإلهيات: «**إنما هي أعمالكم، أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**»[١]

[رواه مسلم في صحيحه].

يا أهل لذة لهوٍ لا تدوم لهم
إن المنايا تبيد اللهو واللعب
كم من رأيناه مسرورًا بلذته
أمسى فريدًا من الأهلين مغتربا[٢]

قال **يحيى بن معاذ**: مسكين ابن آدم، قلع الأحجار أهون عليه من ترك الأوزار[٣].

أخي الحبيب:

الأيام تمر والساعات تسير.. ونحن في رحلة إلى الدار الآخرة قد بدأت.. فوقتك هو رأس مالك.. فإضاعة الوقت أشد من الموت، لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها.

كيف ـ يا أخي ـ يكون عاقلاً من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة[٤].

---

(١) تسلية أهل المصائب ص (٢١٨).
(٢) شرح الصدور ص (٢١٧).
(٣) السير: (١٣/ ١٥).
(٤) الفوائد ص (٤٥).

أخي الحبيب:

فيـــا ليـــت أن الله يغفـــر مـــا مضـــى
ويـــأذن فـــي تـــوبـــاتنـــا فنتـــوب[1]

أخي المسلم:

وأنت في طريق التوبة تلمس علامات صحة التوبة في أمور خمسة:

أولاً: أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها.

ثانيًا: أن لا يزال الخوف مصاحبًا له، لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع البشرى تأتيه: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠].

ثالثًا: انخلاع قلبه، وتقطعه ندمًا وخوفًا، وهذا على قدر عظم الذنوب.

رابعًا: انكسار، وذل، وخضوع بين يدي الله.

خامسًا: الازدياد في الأعمال الصالحة والمداومة عليها.

* قال **يحيى بن معاذ**: للتائبين فخرٌ لا يعادله فخر، فرح الله بتوبته.

أخي الحبيب: حان وقت التوبة والرجوع.. والإيمان والخشوع والندم والدموع، فاسكب العبرات، وادع رب الأرض والسموات..

ولمـــا قســـا قلبـــي وضـــاقـــت مـــذاهبـــي
جعلـــت رجـــائـــي نحـــو بـــابـــك سلمـــا
تعـــاظمنـــي ذنبـــي، فلمـــا قـــرنتـــه
بعفـــوك ربـــي كـــان عفـــوك أعظمـــا

---

(١) موارد الظمآن: (٢/ ٩٤).

الخاتمة

ختم الكتاب بباب في سعة رحمة الله ـ تعالى ـ على سبيل التفاؤل بذلك.

فقد كان رسول الله ﷺ يحب التفاؤل، وليس لنا من الأعمال ما نرجو به أن يختم الله عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله ـ تعالى ـ فقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٨٤].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

ونحن نستغفر الله ـ تعالى ـ من كل ما زلت به القدم أو طغى به القلم. ونستغفره من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا، ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره، ونستغفره من كل وعد وعدنا به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتكلف تزيناً للناس بها[1].

---

(١) الإحياء: (١/٥٧٨).

أخي الحبيب:

جعلني الله وإياك من أهل التوبة والعودة والرجوع والأوبة . .

وجمعني وإياك ووالدينا وأحبابنا في جنات عدن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

المصادر

١ ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ـ دار الكتب العلمية ط١/ ١٤٠٦هـ.

٢ ـ أدب الدنيا والدين للماوردي ـ دار الكتب العلمية.

٣ ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ـ مطبعة المتوسط.

٤ ـ بستان العارفين للإمام أبي يحيى زكريا بن شرف النووي، تحقيق محمد الحجار.

٥ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ـ دار الكتب العلمية.

٦ ـ التبصرة لابن الجوزي ـ دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.

٧ ـ تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث.

٨ ـ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للإمام القرطبي، دار الرياض، ط ١٤٠٧هـ.

٩ ـ التذكرة في الاستعداد لليوم الآخر، علي صالح الهزاع ط٢/ ١٤٠٧هـ.

١٠ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، للقاضي عياض ـ مكتبة الحياة.

١١ ـ تزكية النفوس، جمع د. أحمد مزيد، دار القلم، بيروت.

١٢ ـ تسلية أهل المصائب لأبي عبد الله محمد بن محمد النبجي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.

١٣ ـ جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي، ط٥/ ١٤٠٠هـ.

١٤ ـ جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى لأبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي ـ تحقيق د. صلاح جرار، دار البشير ١٤١٠هـ.

١٥ ـ الجواب الكافي لابن قيم الجوزية ـ تحقيق أبي حذيفة ـ دار الكتاب العربي ط١/ ١٤٠٧هـ.

١٦ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم ـ دار الكتاب العربي.

١٧ ـ الحسن البصري لابن الجوزي.

١٨ ـ ديوان الإمام علي، جمعه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ.

١٩ ـ ديوان الإمام الشافعي، دار الجيل ـ بيروت ط٣/ ١٣٩٢هـ.

٢٠ ـ كتاب الزهد الكبير، للإمام المحدث أحمد بن حسين البيهقي، تحقيق د. تقي الدين الندوي، دار القلم، ط٢/ ١٤٠٣هـ.

٢١ ـ كتاب الزهد للإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل، دراسة وتحقيق محمد السعيد بسيوني، دار الكتاب العربي، ط١/ ١٤٠٦هـ.

٢٢ ـ الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح، محمد بن محمد بن يوسف الجرزي، تحقيق محمد بسيوني، دار الكتاب العربي ط١/ ١٤٠٦هـ.

٢٣ ـ سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ.

٢٤ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي ـ دار إحياء التراث العربي.

٢٥ ـ شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للحافظ جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية ط١/ ١٤٠٦هـ.

٢٦ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي ـ تحقيق محمد فاخوري ومحمد رواس ـ دار المعرفة ١٤٠٥هـ.

٢٧ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط٢/ ١٤٠٧هـ.

٢٨ ـ طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية.

٢٩ ـ طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي السبكي، دار إحياء الكتب العربية.

٣٠ ـ العاقبة في ذكر الموت والآخرة للإمام أبي محمد عبد الحق الأشبيلي، تحقيق الشيخ خضر محمد خضر، مكتبة دار الأقصى ط١/ ١٤٠٦هـ.

٣١ ـ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عثمان، دار الكتاب العربي ط٢/ ١٤٠٦هـ.

٣٢ ـ عقود اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان، إبراهيم بن عبيد.

٣٣ ـ مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، تصوير ط١/ ١٣٩٨هـ.

٣٤ ـ الفوائد لابن القيم ـ دار النفائس.

٣٥ ـ مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية ط٢/ ١٤٠٨هـ.

٣٦ ـ مفتاح السالكين لابن قيم الجوزية، مكتبة الرياض الحديثة.

٣٧ ـ مكاشفة القلوب لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط١/ ١٤٠٣هـ.

٣٨ ـ منهاج القاصدين لابن الجوزي.

٣٩ ـ موارد الظمآن لدروس الزمان، عبدالعزيز السلمان، ط١٣/ ١٤٠٣هـ.

٤٠ ـ واحات الإيمان لعبد الحميد البلالي، دار الدعوة ط٤/ ١٤٠٩هـ.

٤١ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، دار صادر، بيروت ١٣٩٧هـ.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

الوقت أنفاس لا تعود

المقدمة ٥
الوقت ٧
بيان أهمية الوقت ٧
موقفان للإنسان ٩
الساعات ثلاث ١٢
الناس رجلان ١٥
ما ينبغي للمؤمن ١٨
راحلة الأيام ٢٠
زمن الشباب الندم على ما فات ٢٤
جماع الخير ٣٣
الوقت عند ابن الجوزي ٣٥
هلم إلى الدخول ٣٦
الواجب نحو الوقت ٣٨
تعويد الأبناء ٤٠
وقت الإنسان ٤١
صوتٌ ينادي ٤٩
الصحة والشباب ٥٠

الموضوع **الصفحة**

خصائص الوقت ٥٣
المصادر ٥٩

أحصاه الله ونسوه

المقدمة ٦٥
مدخل ٦٦
آفات اللسان ٦٩
الغيبة ٩٣
بواعث الغيبة ٩٦
علاج الغيبة ١١٣
ما يباح من الغيبة ١١٤
كفارة الغيبة ١٢٢
النميمة ١٢٣
الباعث على النميمة ١٢٤
أعظم من الغيبة والنميمة ١٣٣
الكذب ١٣٥
الاستهزاء ١٤٢
كيف كان لسانه ﷺ ١٤٨
المصادر ١٥١

الدنيا ظل زائل

المقدمة ١٥٧
مدخل ١٥٩

الموضوع	الصفحة
دار القرار	١٦٤
أساس كل خيرٍ	١٦٦
التوكل	١٦٨
الدنيا مضمار سباق	١٧٣
إنما هي أيام	١٧٥
الليل والنهار مراحل	١٧٦
هوان الدنيا	١٧٨
إذا بلغ الأربعين	١٨١
وصف الدنيا	١٨٣
الزهد في الدنيا	١٨٨
الدنيا حُلم	١٩٣
إدراك السعادة	١٩٦
مجالس الدنيا	٢٠٠
متاع الغرور	٢٠٢
ذل الدنيا	٢٠٨
نصيب الدنيا	٢١٠
ثلاثة أيام	٢١٤
غم الأحياء	٢١٥
من دار إلى دار	٢١٨
همة المؤمن	٢٢٤
دوام البقاء	٢٢٧

الموضوع	الصفحة
الدنيا أدبرت	٢٣٢
خلو القلب	٢٣٧
الدنيا المقبلة	٢٤٠
أشد الناس حسرة	٢٤١
المصادر	٢٤٤

الفجر الصادق

المقدمة	٢٥٣
وجوب التوبة	٢٥٤
قسوة القلب	٢٥٦
مرض القلوب	٢٥٧
يا من عزم على السفر	٢٦١
الداء والدواء	٢٦٤
المؤمن يحاسب نفسه	٢٦٨
علامات السعادة	٢٦٩
جهاد النفس	٢٧٢
منادي الإيمان	٢٧٦
أصول المعاصي	٢٧٦
الهمة العالية	٢٧٩
النار وأغلالها	٢٨٢
أضرار الذنوب	٢٨٥
الذنوب جراحات	٢٨٨

الموضوع	الصفحة
نصح المذنب	٢٨٩
المحافظة على الأعمار	٢٩٣
سبب دخول جهنم	٢٩٦
صور من التوبة	٣٠٣
إذا عزم على السفر	٣١٦
بماذا تندفع عقوبة السيئة	٣٢١
الخاتمة	٣٢٥
المصادر	٣٢٧
فهرس الموضوعات	٣٣١

* * *